سفر و هذر

هارب من خطاب الصدق

Voyages et balivernes

محمّد رشاد الحمزاوي

Mohamed Rached Hamzaoui

رواية

roman



منشورات لارماتان



سفر وهذر

هارب من خطاب الصدق ...

Mohamed Rached
Hamzaoui

محمّد رشاد
الحمزاوي

سفر و هذر

هارب من خطاب الصّدق...

Voyages et balivernes

Je fuis la langue de bois...

Editions L'Harmattan منشورات لارمتّان
5-7 rue de l'Ecole Polytechnique 75005 Paris

ISBN : 2-7384-5953-6

سفر وهذر

هارب من خطاب الصدق ...

رواية

محمد رشاد الحمزاوي

يا قوم لا تتكلموا

إن الكلام محرم

ناموا ولا تستيقظوا

ما فاز إلا النوم

الرصافي

لكننا قررنا أن نتكلم

وألا ننام

وأن نظل مستيقظين

رواة هذه القصة.

---

* هذه العلامة تحيل إلى ألفاظ أجنبية معربة واصطلاحات محلية قليلة يمكن العودة إليها في " المعجم " المخصص لها في آخر هذه الرواية.

هـــذر بدون سفـــر

- لا يهمني كيف تختنب ولا كيف تكتنب إنما تهمني رؤية فيها محنة وبدعة.

- محنتي من خطاب الصدق الذي أتحدث له عن مدينة بدعة تهون من صدقه المفرط وتحميني من حقوقه المجحفة.

- أقول أن المدينة تدعو إلى الصدق المطلق بالكلام وهي في معدنها مستبدة ظالمة.

- وقلت إن الحريم دَيْن ثقيل جاثم على مدينتي إلى يوم الدين يأكل منها ومني ويسد أفقي الجميل.

- خطاب الصدق عندي نموذجية توقيفية تتكر الإنسان، وهو مستحيل كامن ممكن.

- إن لي في النفس جرحا عهيدا عساه أن يظل مفتوحا موجعا ليتقي شر الإنسان الكفور الصدوق.

-أحد الرواة-

برقية السفر

بودودة: وصلتني هذه البرقيـــة من صاحبنا الكاتب

يقول فيها: لقد طرأت على الدنيا أحداث ومحن القرن الخامس عشـــر – قف – مشتاق إليك وإلى الأصدقاء من أبطال قصّـــة "بودودة مـــات " – قف – الملتقى متأكد بمسقط رأسي المجيد يـــوم الجمعـــة – قف –

عبـــــــــار: وتقـــول برقيتي: إن كنت يا عبار على قيـــد الحياة، أقبل إلى بلدتي العتيدة على جناح السرعة ومعك فطومة بنت المعلـــم لأستشيركما في آمر مهم – قف –آسف أن يكون بودودة قد أثّرَ مشيـــه – قف –ليته كان معنا– مع المودة –قف –.

بـــــودودة: إنـــي حي أرزق يا ناس! والبرقيـــة التي قرأتها عليكم شاهدة على ذلـــك!!.

محمــــــــــــود: التلكس الذي أرسله إلي يفيد أنه أصبـــح يخلط بين أصحابه في قصّتي "بودودة مات" و"طرنو تعيش وتربي الريـــــش".

ففطومة وبنت المعلم كانتا معي في القصة الأولى فضلا عن أن بنت المعلم قد توفيت رحمها الله. وقد أضاف "اتصل بحياة البترية ودادة فاطمـــة الأثيثـــة وعبار الأبي الأغبر صاحب "ليلة القـــدر" ... وطـــيروا جميعـــا إلى قريـــتي الكريمـــة، لعلنا نجد مخرجا نأتم به من الضياع الذي أصابنا.

حيـــــــــــــاة: غريب صاحبنا المؤلف! لقد بادرني بأسئلـــة عجيبـــة في الفاكس الذي أرسله إلي، يقول فيه : الإتاء! الإتاء! وأردف ذلك ببيت شعر في فاكس، ياعباد اللّـــه:

وبعض القول ليس له عناج كمخض الماء ليس له إتاء!!

وعلق: الأحسن أن نعوض "القول" بـــ "الفعـــل" وتساءل: هل علينا أن نصبح أمريكيين أو يابانيين بعدما انسحب أصحاب مـــاركس تاركين أيتاما كثيرين؟ ومتى سنسترجع الحضارة؟ إيـــاك أن تصلي إلى قريتي

الحرام مع المهرجين والمشعوذيـــن من أبناء القـــرون الواحـــد والعشريـــن والخامس والثلاثين والخمسين!!.

وتساءل الحاضرون: ما يعني بأهل الهرج والشعوذة؟ واتفقوا بعد جدال وخصام على أنه يعني بهم تلك المخلوقـــات الـــوارد ذكرهـــا في مسرحياته "زمن الترهات " وفي كتابه "الفصاحة فصاحات".

شـــارب النهر:لقد حيرتني رسالته لأنه يقول فيها: أقبل إلى قريتي الشمـــاء لننطلق منها إلى رحلة طويلة ... إني أريد أن أسافر وأن اقتفي أثر الرحالة من العرب والمسلميـــن، وأتيه في الأرض وأحلم مثلهم أقص على الناس دنياهم كما رأيتها.

وفجأة خيم على القوم ســـكون، وكـــاد أن يســـقط في أيديهم لما لاحظوا أن أشباحا غريبة كانت تحوم حولهم وذكرهم بأهل الهرج والشعوذة. لكنهم سرعان ما تنبهوا إلى أنهم تاهوا في البرقيات وملابســـاتها وألغازها ؛ وفاتت كل واحد منهم آداب الترحاب والسلام بعد طول العهد. فامتدت الأيدي وكثر العناق وتلاقت قصص ومسرحيات وأبطال لم تخطـــر على بال المؤلف نفسه. وكثر الاستغراب والسؤال. واكتشفـــوا كلـــهم أن الدهر قد أتى على كل واحد منهم بما لم يكن في الحسبان. فحمدوا الله على دوام الصحة، وطول العمر، وجمع الشمل والذكريات وربط صلة الرحـــم بينهم في قريـــة المؤلـــف.

بـــــــودودة: لكن ما مراده من جمعنا في هذه القريـــــة التي توفاني فيها في ليلة ثالجة لا تشفق فيها أم على صبيها؟

حيـــــــــــاة: لاستدراجك إلى دروس ومحـــاضرات في تدريب الأبطال واكتساب مهارات في القصة وقضاياها.

محمـــــود: بل لندرك أن الهم أصبح هموما وأن الزمن العربي الإسلامي قد قرر أن يعيش وينمو على هامش هذه الدنيا الطائرة على جناح الصواريخ.

عبـــــار: أنا لا أوافق. ما لكم تنظرون إلى هذه المدنيـــة ودنياها نظرة من أجها. إن أذهانكم قلقة تؤثر أن تدرك هذه الدنيا بما عرفتم عنها في عهد صباكم وشبابكم. إنكم تبحثون عن صورها العتيقة وترفضون ما طرأ عليها من عمران وتطور في الأخلاق والسلوك، مما لا يطيب للسادة الشيوخ من أمثالكم.

بـــودودة: يبدو لي أننا نكاد نحيد عن الهدف الـــذي مـــن أجله جئنا إلى هذه القرية. ألم يحطنا صاحبنا علما بأنه يريد أن يســافر ... سيدنا الكريم يحب السفر ... يا سلام! فإلى أيـــن المفـــر؟

شارب النهـــــر: لعله يريد أن يسافر إلى بلاد واق واق !

محمــــود: رأيي أنه يرغب في أن يرحّل الدنيـــا كلـــها معـــه والعزيزة قريته في مقدمتها. المغبونة تستأهل أن تستريح.

عبـــــــــــار: وذلك غير مستبعد إن علمنا أنهـــا ظلت حسرة في سويداء قلبه.

واستقر رأي الحاضرين على أن قريـــة صاحبـــهم قريـــة مغبونة مثلها مثل قرى العالم الرابع من بلادنا. ولقد كانت عاصمـــة مملكـــة مستقلة قبل عهد الرومان ؛ وكانت حصنا منيعا احتمى به القائد الـــبربري يوغرطه لما طاردته جيوش الرومان ؛ ومنطلقا لثورة علي بن غذاهـــم الـــتي زعزعت أركان الدولة الحسينيـــة ؛ ومنها تراجعت جيوش القائد الألمــــاني رومل التي كادت أن تغزو الجزائر وتأتي على من كان فيها من جيوش العالم "الحــــر".

وهي تعود للذاكرة كل مساء في الشتاء أحب من أحـــب أو كره من كره، في النشرة الجويـــة بالتلفزيون لأنها قد ضربت الرقم القياسي في شدة البرد حتى كاد أن يتجاوز برد هلسنكي وموسكو. فكفاها شهرة أن تنتسب إلى حضارة الغرب بشدة البرد وإلى حضارة الشرق بشدة الفقر. وفي ذلك عزة وعزاء.

وظلوا جالسين بمقهى البلد العالي في جدال شديد حول مقاصد سفر صاحبهم الغريبة. وتشوقوا إلى رؤيته كلما وصل إلى أسماعهم ضجيج حافلة وهي تصعد جبل القرية لاهثة متوجعة. فهو يعرفهم جميعهم. إلاّ أنه لم يحصل أن تصوروه كامل التصور، كما أنهم لم يدركوا تماما كيف أبدعهم وكيف تصرّف فيهم بالصدق والكذب. فمن هو الصنيعة: أهو أم هم؟

وانقضى من الليل نصيب من دون أن يحضر صاحبهم في الموعد المضروب. فانتظروه ومططوا في الانتظار حتى احتاروا في أمرهم. فانقلب تعلقهم بمشروع السفر إلى خشية على صاحبهم. فلو ... ولو ... ولو ... لعن الله التطير والتشاؤم. وتعاهدوا على ألا يتفرقوا حتى يطلع عليهم ... مثلما كان يطلع على كل واحد منهم في رواياته. وطال الانتظار وكادوا أن يستأخذوا تغيبه عنهم ثم قرروا، درءا للملل وشحذا للأمل، أن يروي كل واحد منهم تصوره للمشروع الذي دعاهم إليه، وأن يعارضوه بما عسى أن يبوح به لهم في شأنه عندما يلتقي بهم. وتحمسوا للفكرة طمعا في الفوز بالريادة في الأدب والكتابة والخيال والتخيل وتصور الإنسان الجديد المنتظر.

وتوهم كل واحد منهم أنه سيكون المنتصر ويصبح الكاتب لأكتب وينقلب إلى حاسوب يعجن المخلوقات والأحداث كما يشاء ... لكن بودودة أفسد عليهم المحاولة والمغامرة والحلم.

بودودة: أنا محتار يا جماعة! هل أنتم على يقين من أننا نتحدث عن نفس الكاتب أعني عن نفس الإنسان؟

عمار: ليس في ذلك شك. إنه صاحب قصصنا ومصور أشخاصنا وشخصياتنا وإن كانت في البداية من حبر ومن ورق. وهو كذلك نموذجنا وبطلنا المنتظر لأن كل واحد منا سيقدمه في قصة من عنده وبالتالي سيبني صورة الإنسان العربي المستقبلي.

محمـــــود: يبدو لي ان كلام بودودة معقول. من منا يعرفه معرفة شخصيــة جيدة حتى يمكن له أن يتأول رحلته ومقاصده؟

حيـــــــاة: هل حدث له أن تساءل عن شأننا وعن نماذجنا وعن غاياتها؟ فلقد زج بنا في قصصه المختلفة وتصرف فينا كما شاء وباعنا واشترانا وقرأنا وفسرنا ولفنا وعصرنا ثم رمى بنا إلى حشود القـــراء والنقاد والمتشدقين وتجار الأدب والمذاهب والعقائديات المتفائلة والمتطـــيرة التي تؤول وتخرج وتتفلسف ... أنا لا أحب الكتابة والأبطال على الـــورق. كفى أن ضيعت شهرزاد العمر في حبك قصة شهريار وحماقاته التي حار فيها علماء النفس والأطباء ... كل ذلك حبر على ورق.

عبـــــــار: يا لطيف! يا لطيف! ما هذا الغضـــب يـــا جميلة على هذا الإنسان بل على هذا البعل أكان كاتبا أم بطلا؟ يتهيأ لي أنـــه يستحق كل خير. فهو طويل القامة، جميل الملامح يعجب كل مليحة مثلك، قوي كالجبل، يقهر الصمت لأنه صاحب بيان، تعجـــز أمامـــه كـــل معجزة. فهو بطل أسمر، مثل يوغرطة الذي مات وشهامته في عينيـــه.

شارب النهـــر: كأني بك قد سويت بين الكاتب والبطـــل الخرافة وترهاته! فلقد عدت بنا إلى خرافة البطل. فلم لا يشبه رمبو الأمركي في جولاته وخزعيلاته؟ أو البطل 007 في مجونه وجنونه؟ فلم لا أتصوره قزما جسميا أو فكريا أو بدويا غائر العينين، متوتر الأعصاب يأكله العجز، يبكي على الأطلال، يحبك المؤامرات ويشوه الأخلاق. فلقد ســبق لصاحبنـــا أن صنع منا نماذج يساريـــة ويمينيـــة وحياديـــة وفوقيـــة وتحتيـــــة، ودينيـــة وملتحية، لفيفا أجنبيا متفتت المشاريع متخشب الآراء بدعوى أن البطل من عرض عضلات شذوذه ومروقه، وانحرف وتهور وابتدع ملة جديدة ودنيـــا عجيبة.

بـــــــودودة: لقد كنت على صواب لما قلت إننـــا لا نتحدث عن نفس الإنسان كاتبا أو بطلا منتظرا ... وعلى هذا الأساس يحلو لي يا جماعة أن اعتبره مجموعة من الأضداد مثلـــي ... وبضدهـــا تتميـــز

الأشياء. أليس كذلك؟ فأنا لا أحب المتشابهـــات والمتوافقـــات المنافقـــات والانسجامات الملفقة والمطلقات الطائرات لأنها كثيرا ما تكون عقائديـــات كاذبات. هذه حقيقة أزليـــة وتجربتي تقول لي "ما كُـــلّ مُـــدَّور كعـــك"، وحفظت عن ظهر قلب

وما كل مخضوب البنان بثينة ولا كل مصقول الحديد يماني.

محمـــــــود: يا سلام عليك يا بودودة! من أين لك كـــل هذا العلم؟

نحن وهو وغيرنا نماذج. صحيح أننا نباع ونشترى في أسواق القراء والمثقفين الذين يتصرفون مثلا في شخصي ويؤولونه باسم حرية القارئ والباث والمتقبل وترهات أخرى جميلة والله. لكني محتار في هذه الحال لأني ما زلت أبحث عن مثال البطل العربي إن قدّر لنا أن نصنعه. فـــهل صاحبنـــا في سفرته سيكون نموذجا منه جزئيا أو كليا؟ فإن لم يكن كذلك ...!

حيـــــــــــــــاة: استخرجه من تاريخك الإنساني لأن المثال النبوي لا يدركه البشر من أمثالنا – فامرؤ القيس فضل الســـكرات على الفاجعات، والمتنبي باع أشعاره ليؤيد كافورا ... أما الأمراء والسلاطين فقدّرهم بعدد جواريهم. فلقد كان لهارون الرشيد، وهو عظيم، ثلاث آلاف جاريـــة، ونافسه المأمون، وهو عبقري بخمس آلاف منهن، وانتصر عليـــهما الأمين بثلاث عشرة ألف جاريـــة كما تقول الروايـــة وإن كان المسكين قد اتهم بشذوذ آخر فوّت عليه الخلافة.

عبـــــــــار: الحمد لله على أن عدنا إلى موضوعنا. أنا أعتقد أن صاحبنا في رحلته المنتظرة سيستكشف لنا الأمر في جميع أبعاده.

شارب النهـــر: يبدو أنه لن يتجاوز المعهود ممـــا عرفنـــا. سيسافر ليبحث عن اللذة والمتعة مثله مثل كل بني يعرب الميـــامين الذيـــن يرحلون رحلة الصيف ليحللوا ما حرم عليهم في بلادهم، ويستمتعوا بنعـــم أهل الذمة في انتظار جنة الآخرة ثم يعودون إلى أوطانهم ليحملوا حملة شعواء على مدينة الغرب الفاسقة داعين إلى التعلق بأصالتنا وثقافتنا وحضارتنـــا ...

لأنهم من أصحاب خطاب الصدق الملفق المزدوج والمقنع، الشغوف بالتراث الموروث وإن كانوا لا يعرفون له رائحة ولا طعما ... إنها أحسن وسيلة لدرء الخطيئة يا أخي. أد الفرض وانقب الأرض ولا يهمك، وكل الغلـة وسب الملة.

بـودودة: لا تبالغ! وكن رحيما بهم وبنا إذ يكاد يمضي من الليل شطره يا جماعة. ولقد تواعدنا على أن يقص كل منا قصته عن صاحبنا بطلها. فما رأيكم إن اتفقنا على أنه "عَرْ مُسْلِمي"، * "تـقَدْ وَسَطي" هذا من حيث المعتقد، "نَقالِبَري" من حيث السلوك "هِبْلَـع" من حيث الطبع ... يقول إنه يحب تواضع عمر ويدعي أنه شغوف بعلي، عشق أبا نواس وبشارا، وتعلق بالحلاج وابن العربي، وتحسر على طارق بن زياد البربري الذي ذاب كالملحة في بحر العرب ... لا يحب كثيرا ابن خلدون. خسارة! لأنه تملق كل السلاطين وتخلص منهم جميعا ... إنه يكره هذه البراعة وهذه الشطارة.

محمـود: صاحبك هذا منحوت من كل ما هب ودب! أنت مخطئ تماما. فهو عربي شغوف بالجواري والحسان، ولوع بهن، إباحي مكعب لا يتحدث إلا باسم الثورة، معجب بالأقمار الصناعية والأسفار المريخية، والسراويل النسائية الرجالية، يود لو أصبح دمية أمريكية أو يابانية وحتى طليانية!

حيـاة: صاحبنا مجموعة متناقضات وإن أصر على وحدته ووحدانيته. فلقد استمدها من الواقع المعيش ومن نرجسيات أصحابه ومنافسيه من أهل التدبير والتدمير في الصالونات ... لو سألته عنهم لقال لك: أولهم قزم له نفحة من ذكاء وخبث وثانيهم طويل حفاظة بدون روية. فهو كالفيل لا يفقه من الدنيا شيئا. وثالثهم برميل حنون يمشي لا يعرف قبيلا من دبير. وصاحبهم الرابع يقضي عمره في التآلف مع النظريات والمذهبيات الواردة والباركة والهاربة عنه وعن أمثاله.

أما أتباعهم فمنهم متشدق هاج تمنطقه حتى استحال فهمه ومنهم شبرم يبحث عن أسلوب يمطط جسمه وعقله. ومنهم أحول يرى الدنيا مثناة، ومربعة، ومنهم متفقهج ساكت باهت يحب قاضي البصرة من أصحاب الجاحظ. ومنهم ... ومنهم ... ومنهم ...

عبـــار: لقد حدنا عن هدفنا. متى نوفق إلى رأي نجمع عليه؟ الحقيقة نحن وهو نرجسيات مختلفة نعشق الهدم و نذكر السلبيات وننسى الإيجابيات. لا نحب من التاريخ نقده المر لأننا أقررنا رغم هزائمنا وعقدنا، أننا من أمة فريدة الجمال والحسن والدلال، لم يسبقها في العلم والمعرفة إنس ولا جان في الغابر والقابل من الأزمان

بـــودودة: كفى سجعا يا ابن الحرة. من منكم يوافق على رأيي؟ لا أحد! من يوافق على رأي حياة؟ لا أحد كذلك! ياناس صاحبنا وبطلنا المنتظر رجل طيب من العرب قد أحسن إلينا كلنا وأسأنا إليه ... قتل الإنسان ما أكفره! لقد حان وقت الرواية ... تصوروه كما شاء كل واحد منكم. ففي الخلاف رحمة. هيوا يا رواة، هاتوا قصصكم. لنبدأ! من الراوي الأول؟ وما عسى أن تكون رحلته؟ لعلنا سنجد فيها طباع صاحبنا وبطلنا المنتظر ورؤاه ورؤانا العربية؟

محمـــود: ملاحظة أخيرة. الحمد لله على أننا لم نتفق على إنسان واحد أوحد موحّد مومويّ، قدسي، ربوتي حديدي. أنا أحبه وإن كان نرجسيا، صاحب رؤية متجددة، تبحث عن الحقيقة الهاربة من الحدود ومن القيود وخاصة من خطاب الصدق.

بـــودودة: ومن البطولات والعقائديات والقراءات الجاهزة. فأين الرواة والروايات المتحركة. وأين السفر والرحلات. هاتوا الكلام الصحيح، المليح، الفصيح!

حيـــاة: كلمة أخيرة! الرحلة ما نوعها؟ فهل هي من قبيل رحلة التيفاشي أو الشيخ السنوسي أو من قبيل رحلة

الدوعاجي؟ وهل ستكون على الدابة أو على الشَمَنْدَفَر* الزهاويّ أو على جناح الهوى؟

بـــودودة: من كل قبيل رهيبل وغريب وعجيب إلى كل قريب وبعيد وممكن ومستحيل، وإلا بطلت حلاوة السفر! السفر الفرار، وإلى مدن الذكرى والنساء، والمؤمنين، والنبأ، واللاعودة، وسفر الوثبة والريادة. السفر معجم مفتوح سيكتبه ويمنهجه الخليل بن أحمد عندما يبعث حيا ... في حضارة عربية إسلامية جديدة.

شارب النهر: لم الخليل بالذات؟ ولم لا يكون بشارا أو أبن العربي والشعراء والكتاب؟ ولم العودة إلى الماضي يلاحقنا في كل مشروع، ونتذرع به هروبا من الحاضر الأليم وخوفا من المستقبل الغامض؟.

بـــودودة: ألم أقل لكم إن وقت الرواية قد حان؟

محمود: لا بد لي من جواب. فالخليل من ذهب ومسك وهو من البصرة التي قيل فيها "فهي واسطة الأرض وغوصة البحر، ومغيض الأقطار وقلب الدنيا ... وخير بلاد الله للجائع والغريب والمفلس". إني أبحث عن إنسان يفكر وعن مدينة تحتضنني وتحميني من خطاب الصدق ومطلقاته ... تلك هي مدينتي. أما الباقي ففيه نظر. ذلك ما تعلمته في السجن.

بـــودودة: لقد استحال الاتفاق معكم ... سكوتا سكوتا! محمود يريد أن يتكلم. سيروي لنا قصته عن رحلة صاحبنا. هيا يا محمود! الكلمة لك. وليكن الخيال رفيقك والإبداع حليفك. ولا تنس المتعة يرحمك الله. واحترم ما خصّص لك من وقت حتى نأتي بكل قصصنا قبل مطلع الفجر

فنهض محمود ...

مدينـــة البحار

لا تحب مجتمع الحريــم

نظر محمود إلى الحاضرين من أصحابه وقد هدأوا وسـكنوا.

فتأمل ملامحهم الواحد بعد الآخر ثم أمعن النظر في الظلام المنتشر كأنه يخشى من جفوته ووحشته على قصته. فجاء صوته خافتا مسموعا.

"قال صاحبنا:" كانت أمي تفرش مائدة الطعام وتنظر إلي بعين مواسية فيها حسرة كأنها كانت تتوقع فاجعة محتومة. وفجأة سمعنـا ضربـا زلزالا يهز باب بيتنا الذي انفلق ودخل علينا سبعة مقنعون لباسهم أسـود، وسلاحهم يبرق وعضلاتهم ترقص. إنهم من فئة السيد "رمبو" المستعربيـن.

زعق فينا زعيمهـم:

– فرقة الإكرام الوطنيـة! أين الملعون ابن ال ... الجبـان؟ ابحثوا عنه في كل ركن وثقبـة!

شـارب النهـر: مـا بعـد ال ...؟ لم عوضتـها بسكتات؟ هل أنت خائف مثل جميع العرب من كلامك ومـن أصحـاب خطاب الصدق. إنك تخفي وراءها بذاءة. قلها وأرح بالك لأنها من صميـم فصيح أدب فرقة الإكرام!

بـودودة: لكل واحد منا أن يقرأها كما يشاء. إنها عندي: يا ابن الحلال!

حيـاة: كـلام أحمق لأنها لا تناسب المقام.

عبـار: وما العمـل؟ وما هي أحسن قراءة؟

شـارب النهـر: استعمل يا أخي حاسوبا يوفر لـك الجواب الصحيح من آلاف الأجوبـة الممكنة.

حيـاة: معنـى هذا أن القصة العربيـة يمكن أن تصبح حاسوبيـة ونوويـة و ... و ... أنا أريدها مرّيخيّـة!!!

محمـود: كفى هرجا! إني أريد أن أواصـل كلامـي وإن كانت الفراغات والسكتات ستظل مفتوحة حتى يؤولها من يشـاء وكمـا يشاء.

قال صحابنا "وارتمى أولائك الصعاليك على بيتنا في شبه مصارعة يابانية كانت إعصارا أتى على كل شيء ثم عنّفوا أمي حتى أغمي عليها وحاشونا إلى المركز الأمني وزعيمهم يهدد ويخطب ويفلسف:

– جبان! غدار! يفر ويترككما رهينة عندنا. بارع في توزيع المناشير وتدوين البيانات والإعلانات! هذا بيان من أجل السلام في فيتنام توصل إلى نشره بمجلة جون أفريك ال ... ال ... وهذا بيان يدافع عن التعاضديات والتعاونيات أصدرته له جريدة لوموند ال ... وفي بيان آخر يدعو إلى تعدد الأحزاب وإلى الحرية، والناصرية الاشتراكية والخلافة العباسية والأموية والفاطمية.. ؛ خليط من الأراء و"شَكْشُوكَة" * دولية تهيأ وتطبخ في سوقنا الوطنية ... فنحن دائما أذناب وأتباع، وضحايا لعنة تاريخية. فلقد أرادونا مقاطعة رومانية وولاية عباسية، ومنطقة موحدية، وإيالة عثمانية، ومحمية فرنسية، وتمنى بعضهم أن نكون محافظة ناصرية، ووحدة قطرية بعثية وجمهورية إقليمية سوفياتية ستالينية. فمالنا لا نكون أصحاب قرار، ورأي ونظريات، وخدم وحشم ونصيب وقيادة وريادة! ياحسرة على أيام زمان لما كان يوغرطة يصول ويجول كما يشاء دون رقيب ... وكنا أمة واحدة صفها موحّد واحد شتته هؤلاء المارقون الفاسقون ... قطع الله لسانهم. ما أكثر أفكارهم وبلبلتهم وصراخهم! فما أفصحهم! لقد وسع معجم هرجهم كل شيء.

لن تخرجا من هنا قبل أن نعثر على الأستاذ سليم المحترم ابنك يا سيدة! ، وأخيك يا زعيم الشباب!

وسلم أمرنا ذلك الضابط الهائج المائج إلى أعضاء فرقته الكرام، فزجّوا بنا في غرفة مظلمة دعانا منها بوق صارخ إلى أن نحرر دماغينا مما أصابهما من تلوث فكري وعقائدي، وأن نعتصم بخطاب الصدق وصحافته وإذاعاته ومؤسساته ومؤتمراته وحفلاته، ومهرجاناته، ولافتاته، وأفراحه، ورجالاته، وأتباعه وجواريه ومغنياته لنحل مشاكلنا وننجز مشاريعنا، ونفضّل على اليهود والنصارى والبوذيين،والروس والأمريكيين

والفرنسيين والوقواقيين و ... و ... و ... و ... وظللنا في سجننا أياما، نأكل ما طاب ولذ من خطابات الصدق ونشربها ونستنشقها ونستوعب حقائقها المطلقة التي لا يحيط بها الشك من قبل ولا من خلف، ولا يطرأ عليها زيادة ولا نقصان ولا إسقاط ولا إهمال، يعني أنها "بَرْفات" * بالفرنسية و"بِرْفِكْتْ" بالأنجليزية والأمريكية. فما أحلى خطاب الصدق العربي وما أمتعه!

كانت تلك الخطابات تتلى علينا بالفصحى وبلهجات عربية مختلفة، لتفيد أن هذه الحقائق السمحة واحدة وخالدة في كل مكان وزمان، وبالأمس واليوم والغد. فلا فائدة في التفكير في الاستعاضة عن خطاب صدقنا أو الفرار منه أو البحث عن بديل عنه أو عن مكان قد سلم منه. فأينما توجهنا وجدنا وجه خطاب الصدق العربي الحبيب مع التأكيد على أن موطننا المضياف، يعتبر أحسن مناخ في المجموعة الحضارية الدولية.

فحتى التعذيب فيه متحضر، فضلا عن أنه يطيب فيه العيش والاستمتاع بالحقائق الحقيقية التي يزودنا بها بكل نزاهة وموضوعية لا تضاهي خطاب صدقنا الواحد الأوحد، المخلص الأخوي، الحنون، المتضامن، الرؤوف، العادل، المتجدد، العميق اللطيف، الأنيق، المالح المليح، الذي يسهر على بلاغته وصوابه رجال أشداء أكفاء نزهاء، نظاف عفاف، لا فلس لهم والله في الجيوب، لا يأتيهم والله "البَلّوطْ" * عفوا الباطل من القدام ولا من التالي أي لا من قبل ولا من خلف بالعربي الفصيح ... لعن الله الترادف في العربية ولهجاتها!

المهم هو أن نعلم أن خطاب صدقنا يحيط بكل شيء، في كل زمان ومكان، وبأفراحنا وأطراحنا وحتى بخلواتنا العاطفية والجنسية، وبخليلاتنا وفضائحنا ومرتباتنا الشهرية، وغلاء المعيشة اليومية. فهو نابع من الشفافية العربية ويدعو إلى الطمأنينة الكاملة الدائمة. فلا داعي إلى النرفزة والعقد، والتوتر والتشاؤم والخوف والرعب. فهذه كلها مفاهيم خلقها الغرب، وفرويد اليهودي وأتباعه من العرب المهلوسين، لأن خطابنا

الصادق الصّدوق سيحقق جنات جنة الخلد علـــى الأرض قبـــل 1999 إلا ربعا. أفي ذلك شك؟ فليرفع من شك في ذلك أصبعه أيها السادة! ما رأيكما يا بـــــودودة ويا حياة؟ تكلموا يا ناس بكل حريـــة، شريطـــة ألا يخـــالف ذلك خطابنا الوطني والقومي والعربي والإسلامي و ... و ... و ... و ....

هذا ما كان البوق يردده يوميا على أسماعنــــا، مـــن دون أن يسكت ولو دقيقة واحدة، حتى كاد أن يذهب شيرتنا لـــولا تعلقنـــا بـــالله وبرحمته ... وكانت أمي تردد معـــه.

– نعم ... نعـــم، صحيح، صحيح جدّا كفى! كفى. اقتنعنا بصدقك وسلمنا به "باسْطَـــه" * ! مالهذا اللعين لا يسكت ولا يستريح!

زارنا زعيم فرقة الإكرام الوطنيـــة فجأة في الليـــــل، دون أن يكـــون معه صعاليكه وبلغنا:

– لكما مهلة ثلاثة أيام تعودان فيها بســـليم، وإلا أخذنـــاك رهينة مكانه يا سيد عثمان. لا بد أن يعود الشريد أخوك إلى بلاده، ويقبـــل أن يستمع بمعدل ساعة واحدة في اليوم لخطاب صدقنا الوطـــني والقومـــي، ويقتنع به كما اقتنع به شعبنا مائة بالمائة، تدل علـــى ذلـــك الانتخابـــات التشريعيـــة والبلديـــة والدولية. يعز علينا أن نراه بعيدا عن الوطـــن!

ولقد أدركت أمي الرسالة بعد أن خرج الضابط تاركا الباب مفتوحا. فألزمتني بالسفر ليلتها إلى ما أسمته بمدينة البحار، وبأن أتسلل عـــبر السهول والشعاب والجبال متنكرا في زي امرأة، وبأن أخـــرق الحـــدود إلى البلد المجاور. كنت أعرف تلك الأصقاع وجبالها وأوديتها لإني قضيت شبابي فيها وجبتها على ظهور الخيل أتتبع آثار أخي الآخر جميل الذي حكمت عليه سلطة الحماية الفرنسيـــة بالسجن المؤبد بتلك البلاد وقد نقل إليها بالقطار من قريـــة مجاورة لقريتنا يقال إن فلك نوح عليه السلام كان قد أرسى بهـــا في غابر الزمان. فكانت سفرة اللاعودة ولم تشفع فيه العاديات ضبحـــا ولا المغيرات صبحا، ولا دعاء أبي ونحيب أمي وزغردة النساء. ولم يخطر على بالي أن سفري إلى الخارج سيبدأ بفرار وسأشق مسافات طويلـــة ليـــلا راجـــلا

ومتنكرا، دون أن أعلم ما عسى أن يعترضني في طريقي وفي تلك المنطقة من مفاجآت وفاجعات. فلقد خرج منها علي بن غذاهم مظفرا في سفر أمل يجر وراءه حشودا جائعة، ومات مهزوما مدحورا.

وهرولت نحوها جيوش من الحلفاء في الحرب العالمية الثانية لتحتمي بجبالها بعدما هزمها جيش رومل الذي دحر فيها بدوره على بعد ستة كيلو متر من قريتنا، قرب ضيعتنا التي قضى بها ذلك القائد الألماني ليلة واحدة ثم عاد أدراجه وتبخر ذكره من جبالنا بعد أن أكله خطاب الصدق النازي. وفي هذه المنطقة رأيت بعيني رأسي محمدا الخطابي أخا الأمير عبد الكريم الخطابي متنكرا يرافقه أخي حميد في مهمة إلى المجاهدين من القطر المجاور. ولقد بدا لي أن هذه المنطقة من العالم الرابع لا ترحم أحدا إلا ما ندر، وإن كانت جميلة عندما تغسل أمطار الخريف صخورها وتتغزل الرياح الغربية بصنوبرها، وتكسوها الثلوج ببياضها وتغرب شموسها على جبالها، وتصافح نسمات الربيع "أبو قَرْعُونَها" * وسنابل شعيرها وقموحها، وتغني فيها الطيور العابرة بلهجات أوطانها البعيدة ويثمر "هِنْدِيها" * ، وينادي به الباعة.. "هِنْدِي تالة يا وكّالة!" فتكون مثل البصرة خير بلاد الله للجائع والثائر والمسافر وللهارب مثلي.

جبتها في تلك الليلة تاركا ورائي عشيرتي وبني بلدتي وحتى أمي التي دفعتني إلى السفر دفعا غريبا دون أن أفكر في سلامتها بعدي. ولقد علمت أنهم أعادوها إلى بوق خطاب الصدق وآياته فحفظتها وأكلتها ودخلت نفسها ونفخت نهديها وتفشت فيها جنينا جرثومة فتحولت إلى كرة ضخمة طارت ذات يوم في سماء القرية، وانفلقت في الفضاء وتلاشت أصواتها صارخة:

– لا تنس يا عثمان وصيتي لك ولأخيك سليم الموجود بمدينة البحار!

عبار: وما فحوى الوصية؟

حياة: وهل فر أخوه سليم إلى مدينة البحار؟

محمـــود: بل سافر إليها مع جماعة مـن الشبـاب تحسبا لخطاب الصدق الذي اعتبرهم من أهـل الجحود، والعقوق، والتفسـخ، والتمغرب، والكفر و ... و ... و ... و ... ممن تنكروا لأصالتنا وثقافتنا وتعلقوا بأعدائنا وحضارتهم الزائفة المائعة، العاريـة مثل نسائهم المباحـات. ذلك نصيب من حالف خطاب الصدق، وإن كان فقهاؤه يرددون في كـل زمان: "وفي الخلاف رحمة ؛ والخلاف لا يفسد للود قضيـة" ... وذلـك في مستوى الكلام بطبيعة الحال ... أما في التاريخ فلا بأس أن ينقلب الخـلاف إلى هراوات وسكاكين ومدافع وراجمات، ووشايـات وأخبـار وروايـات وشائعات ... و ... و ... و ... وتلك قنابل ترسل عليهم على الحسـاب وإن كان لم يقرأ لهم رأي ولا كتاب ... المهم أن يعودوا إلى خطاب الصدق الذي يعتبر نفسه الخطاب الوطني والقومي والعربي والإسلامي، والإنسـاني، والدولي والاشتراكي والليبرالي والشعبي والثوري، والهادي المسكن والمريح المقنع ... و ... و ... و ... والحمد لله على دوام العز ووحـدة الكلمـة والصف والبنيان المرصوص والتأييد الذي لا ينخرم ولا يترك لأهل الفتنـة مدخلا ولا مخرجا.

لقد همت في غابات المنطقة وكدت أنسى الأخطار المحيطـة بي ووصية أمي. فما قالت لي وهي تقبلني مرتعشة وتدفعني بشدة نحو الطريـق المظلم؟ أتذكر أنها قالت:

– افلت بسرعة ولا تلحّ في السؤال عن حالي. فـلا بـد أن تعود مع أخيك إلى وطنكما. تغلب على عنفه مع خصومه، وعلى تعسفه مع أبيك وتهديده بالانتقـام منه ضربا وقتلا. إياكما والعقـوق. سأسـافر بعدك. ولعلنا نلتقي في المريخ.

وكدت أجن لما فكرت في كلام أمي. فهل أصابها مـس؟ لم دعتنا إلى العودة إلى الوطن وخطاب صدقه وإلى الرفق بوالدي، وقد أذاقـها في حياتها مرارة الحنظل؟ وكيف سنتلاقى في المريـخ؟ وكيـف جـاز لي أن أتركها لزبانية خطاب الصدق؟ وازداد تيهي لما أيقنت أني آثـرت نفسـي

وأنانيتي على سلامتها على غرار أنانية والدي المفرطة التي كانت منطلق نقمة أخي سليم عليه، لأنه كان يعاملها معاملة الأمة ويشتمها ويضربها على مسمع ومرأى منا، ونحن نبكي ونتوسل إليــه.

وكان تزوجها وعمره في الخمسين. فنشأت وأخـــي نشــأة أحفاده لأننا عرفناه وهو يكاد يكون شيخا. وكان أخي سليم ابنه الثـــالث والعشرين، وأنا الرابع والعشرين من أبنائه الميامـــن، لأنه كان، سامحه الله، مزواجا يحب النساء حبا جنونيا يستهويهن بسهولة غريبة، ويطلقـــهن مـــن بعولهن إن أعجبنه،حتى وإن كن زوجات بنى عمومته. وكان بارعا في هـــذه العمليات يحيطها بكل الحيل الشرعية والفكرية التي تتطلـــب مـــن الجـــهد والجهاد والعناد، ما لا يقدر عليه عاقل. فلقد كان حريصا على المحافظة على أربع زوجات لا أكثر ولا أقل، حتى لا يخرج على حدود الشريعة ، مما كان يدعوه إلى بهلونيات عجيبة من أجل الزواج بامرأة جديدة والتخلـــص مـــن جارية قديمة. وكان الزواج عنده نكاحا ومتعة. فأنتج منا ثكنة من أنصـــاف الإخوة والأخوات. فقضينا حياتنا في خلاف وتناحر، يحمل كل فريق منـــا راية أمه ومشاكلها ونزاعا تما مع ضرائرها ... وأبي يهيمن على الجميع فائش متفيش كالديك على دجاجه، يأكل ويشرب ويجامع وينجـــب، وعلـــى الله رزقنا ومآلنا.

والغريب أنه لم يطلق أمي مثل غيرها من نسائه ولـــو مـــرة واحدة، رغم ما حاكت لها ضرائرها من مكائد عند السلطان تدق الأعناق، لأنها كانت صغرى نسائه وأجملهن وأثقفهن. وكانت عنيدة مستعصيـــة تريد منه أن يحبها قبل أن يشتهيها، وأن يستهويها بالشعر قبل أن تستسلم له.

وكان يحب عصيانها وتمردها عليه ودلالها المثقـــف، دون أن تسلم من ظلمه الذي ينسبه أخي سليم إلى ذهنية مجتمع الحريم وظلمه. وهو عنده ذو وجوه كثيرة لأبي منها نصيب كبير. فمنه ظلم تفجـــره الأســـرة، والمعقدات والبطالة، والشائعات، والكبت الجنسي، والمرض، والحب، والجنة

والصوم والزكاة ... غريب أخي له تخريجات صاعقة ومواقف مذهلة يوفق دائما إلى تبريرها وتأويلها.

فهو يرى أن أبي متهور ينتجنا كالأرانب من دون أن يحترم قانون العرض والطلب، لأن غايته استهلاكية بحتة منعدمة الجدوى. فلا يمكن له أن يصدر إنتاجه لنستورد به عملة صعبة، أو لنعتمده في نطاق التبادل الثقافي أو التكنولوجي. فهو في رأي أخي نموذج حضاري وثقافي تاريخي موروث من عصورنا الذهبية، ويشهد بذلك ما ترك لنا خلفاؤنا من أبناء وبنات يعسر معرفة أسمائهم. إنها عقلية عريقة لا يمكن التخلص منها بيسر. فلن تنفع فيها قنبلة ذرية ولا نووية، بل ثورة ثقافية مازالت بعيدة بعيدة. ألم يأتكم نبأ ذلك الشهير المعاصر الذي تجاوز أبي وحيله؟ فلقد قرر أن يتزوج من أمة كاملة، حتى لا تفلت منه وتظل تستمع من خلال الزواج واللذة إلى خطابه السرمدي . ماشاء الله! هذه استراتيجية لا يقدر عليها الألمان ولا الأمريكان، ولا الروس. فكان أخي سليم يقول: لا فائدة في الكفاح والصياح والصراخ ضد ما أقره النكاح، لأن أبي هذا أبونا جميعا ورمز مجتمعنا الحريمي "..

كان أخي مصرا على الانتقام من أبي ولو ذهنيا حتى يفرقع خطاب صدقه ويحل محله مجتمع قويم لأنه يرى، رواية عن أبي هريرة" من كانت له امرأتان يميل لإحداهما على الأخرى جاء يوم القيامة أحد شقيه مائل" وأكثر ذلك في قسمة الليالي. فكيف يعدل أبي بين زوجاته الأربع في الشهوة التي لا تقاس بمقياس، ولا تعرف للعدل ذنبا ولارأسا؟ في الواقع الناس يعيشون في الحرام باسم الحلال، وأبي سيأتي يوم القيامة وشقه مائل يكاد يربط رجليه. إن أخي ما زال يرى أن لنا كرامات تساعدنا على بناء مدينة فاضلة تختلف عن مدينة الفارابي التي فشل مشروعها، لأنها لم تسلم من عقلية مجتمع الحريم.

حياة: لا تحرمنا يا محمود من تعريف هذه المدينة الجديدة.

محمـــــود: أعرفها كما يقول المثل الشعبي بـــ: حيك ليك من الشرق يجيك من الغرب يجيك كل شيء جاهز بين يديك نهارها سكر، وليلها عسل، وأقوالها صواب وحكمة، تقبل فيها لعبة الهزيمة والانتصـــار. لا يشنق فيها معارض ولا يعتبر مارقا أو لو أمرها لا يتزوجون أمتهم بـــالحيل، تأتي بهم رياح النصر وتعود بهم رياح الاستراحة والتفكير. المقدس عندهم ما ارتضاه أغلب الناس عن رؤيـــة وبصيرة. ولا داعي إلى أن يكون أزليـــا لأن الحقيقة الحقيقيـــة لا توجد في حقيقة خطاب الصدق.

عبـــــــــار: هذه جنـــة وفيـــها "بْرِيكَاجـــــــي" * كما يقول المثل في تونس.

محمـــــــود: هذا صحيح. ولقد طلب مني أخي ســـليم أن أترجم مثلك الشعبي هذا إلى العربيـــة الفصحى. لكني فشلت. فألح علـــي لكي أنقله إلى اللهجة العراقيـــة والمصريـــــة، والمغربيـــــة والجزائريـــة والسعوديـــة، واليمنيـــة واللبنانيـــة ... الخ حتى يكون لـــه مـــدّ قومـــي. ووعدته بأن أبذل الجهد لوجود حل للقضيـــة وما يشابهها من دون أن يؤول بنا الأمر إلى وحدانيـــة مطلقة ملساء، صماء مثل صخرة المونوليـــت الـــتي يستحيل قرصها والتي تعتبر نموذجا من نماذج خطاب الصدق.

بـــــودودة: ما المانع من أن يكون لنا إنسان عربي موحد منظم لا فوضوي ولا غربي ولا شرقي؟

محمـــــود: أخي سليم يرى أن ذلك يعني إنسانا موحـــد السمات والأخلاق والأكل والشرب والرقص والغناء، واللبـــاس والمشـــي والنوم و ... و ... و ... على نسق واحد من الخليج إلى المحيط. يـــالطيف! لأن الجمال سيفنى وسيموت الشعر وحسنه، وينقرض الفن، وتسحق أمـــة الأدباء وقفزاتها، وسيضمحل أهل الرأي من أمثال أخي سليم الذي قضـــى عمره يتوجع ويصرح من أجل مجتمع عربي فيه إنسان متنوع سعيد، وإن كان التاريخ التعيس مازال يصر على حرماننا منه. فكأنه متحـــالف علينـــا مـــع النصارى واليهود والشيوعيين والصرب والروس والأمريكان لمنعنا مـــن أن

نتعم بمجتمع لا يقول بالأثلاث والأرباع والأنصاف من الإخوة والأخـوات ولا بالأب المزواج وفرقة الإكرام الوطنيـة ولا ينكر علينا ماضينا شريطـة ألاّ يفرض علينا في عصورنا الحديثة نماذج جاهليـة وأمويـة وعباسيـة وسلجوقيـة وحفصيـة ومراديـة وقرشيـة حتى لا نغوص من جديـد في الأمس الأزلي وحتى لا يصبح مفهوم الوحدة والتوحيد مطية لقراءة مشاغلنا المعاصرة باعتبار مآثر ماضينا. فلو لا الأدباء والشعراء والعلمـاء لخنقـت أنفاسنا.

بـودودة: قصـة صاحبنا بل قصتك عنه تنتسب إلى الهذر وإلى التقديم والتأخير والتداخل والفوضى فضلا عن أن أخاك سليما أمة برأسها. إني أخشى على نفسي من جنونـه أف! أف له. أني أرى أنـه يبشرنا بخطاب صدق جديد أدهي وأمر مما كنا نعرف منه.

محمـود: القصـة كما أرويها عن صاحبنا من صميم الواقع وهذره. ولنا فيهما مواقف مشتركة. فنحن من نتاج مجتمـع الحـريم الذي ألفناه حتى تعودنا به ونسينا مصائبه.

حيـاة: الحل أن نتخلص من خطاب الصدق. لكن هل يوجد مجتمع قد سلم منه تماما؟

محمـود: يكفي أن ينقرض مجتمع الحريم ومتعلقاته.

بـودودة: لا داعي إلى هذا الجدل. نحن نريـد قصـة عربيـة أصيلة فيها مدخل وعقدة ونساء وجوار وحل مهما كان نوعه. هيا عجل يا محمود. واصـل قصتك ولا تتجاوز نصيبك من الوقت.

محمـود: قـال صاحبنا: كنت أتنقل ليلا واختفـي نهارا اتقاء حراس خطاب الصدق وعيونه لا سـيما في مفترقـات الطـرق الحساسة وعلى حدود البلد المجاور الذي وجدت فيه خطاب الصدق علـى أشده مثلما هو الشأن في بلادنا. فتيقنت أن بليتنا واحدة، وانفصامنا مشترك وطبعنا السليم من نموذج واحد.

استبد بي خوف شديد عندما شعرت أن شخصا متنكرا يراقب حركاتي وسكناتي يكاد يكون من ظلي. سعيت مرارا عديدة إلى أن استكشف ملامحه لكن دون جدوى. فكان يذوب كالملحة في الماء ببراعة جنونية مما حفزني على أن أطلب الباخرة المسافرة إلى مدينة البحار على الساعة الثانية عشرة صباحا.

وقفت أمام ضابط الجوازات يوم سبت على الساعة العاشرة والنصف ففاجأني قائلا:

– ما لك تعرض جواز سفرك ثانية. لقد سبق لي أن ختمته في الساعة التاسعة والنصف. مر! ولا تفسد علي عملي. اليوم حرّ والمسافرون من نوعك كثيرون.

فحييته ودخلت الباخرة مرتبكا محتارا. وكدت أسقط على الأرض لما رأيت على جسر الباخرة شخصا يشبهني مائة في المائة. فلعله السفر المضني والخوف والجوع؟ دلكت عيني وحدقت في شبيهي المطلق. قرأت فاتحة الكتاب وصليت على النبي محمد عليه الصلاة والسلام وعلى آلة وصحبه وقصدت مطعم الباخرة لأنال نصيبا من الطعام لأنّ ضبابة كانت تغشي بصري كلما جعت وتقطر الحامض الكلوري على قرحة معدتي فيلهب عصب بصري. فما كدت أجلس على كرسي المطعم حتى سمعت النادل يخاطبني بشدة.

– لقد نلت وجبتك يا سيد! ما لك تأكل ثانية؟ وجبة واحدة لكل مسافر إلى مدينة البحار.

– لكنـــي!!!

– أرجوك لا تعكر الجو. الطعام بمقدار والرحلة شاقة مضنية في عملي هذا.

فنهضت متعثرا ورأيت شبيهي خارجا من المطعم وهو يقضم بنهم تفاحة حمراء. اقتفيت أثره صارخا.

– يا هذا، يا رجل يا مزورا لن تفلت مني هذه المرة!

وهرولت نحوه وهو يأكل تفاحته ويشاهد عباب البحر قرب بحار عجوز فما كدت أقترب منه حتى رأيته يضغط بشدة على جنبه الأيمن وسمعت صوتا كأنه إرزيز وإذا بملامح وجهه تمتقع وتستحيل إلى ملامح أبي وبيده جريدة كتبت عليها بخطوط عريضة خطابات الصدق التي رأيتها في مكتب فرقة الإكرام الوطنية. فعنفته وهززته هزا. فلم يرد عليّ. فقال لي البحار العجوز

– إنه أصم أبكم. يسافر معنا طيلة السنة. يقال إن به حسرة على أخيه الذي انقرض ذكره بعد أن فرّ من خطاب الصدق وحراسه في بلاده.

فلم أصدق هذه الرواية وتركته ثم مضيت أضرب أخماسي في أسداسي وأنا أخشى على نفسي من هلاك جديد. وفكرت وغضبت وجننت ثم تعقلت ونظرت إليه فإذا به يشاهني ثانية. وظل السجال بيننا عنيفا وتدخلت لدى ربّان الباخرة فسجنني في غرفتي ولم يترك سبيلي حتى وصلنا ميناء بلاد مدينة البحار. فلم يمنعني ذلك من أن اعتقد أن أصحاب خطاب الصدق ببلادي قد أرسلوا ورائي ووراء أخي جاسوسا روبوتيا على غاية من الحكمة والصنعة والتكنولوجية الماكرة ليقطع علي خط الرجعة ويذيقني من العذاب والمآسي ما لا يمكن تصوره، ثم لعله يقتلني ويقتل أخي بعدما يفوز بنا.

اشتد استغرابي وتعجبي لأني لم أر له أثرا حتى وصولي إلى مدينة البحار العاصمة حيث قصدت بطحاء واسعة وراء جامعة مشهورة على مقربة من مكتبة عتيدة شاهقة نقش على ناصيتها أسماء مشاهير علماء الدنيا ومنهم أسماء مشاهير العرب والمسلمين مكتوبة باللاتينية من أمثال المقريزي والنويري والحريري وابن سينا وابن حوقل والفردوسي ومحمد (كذا) وحتى أبي تمام وإمرئ القيس ؛ وكانت تلك المكتبة على مقربة من صرح شاهق مشهور شيد اعترافا بجميل رجالات بلاد مدينة البحار. ولقد أفادتني الأخبار المتواترة ببلدي أن أخي مقيم بذلك الحي وببطحائه التي كان يقصدها كل

من همش وثار على الدنيا وأطلق العنان لأفكاره وآرائه داعيا إلى رسالته وصوابها وغرائبها ومغامراتها من دون أن يكون وراءه رقيب.

فاستمعت ليلة وصولي عندما كنت أبحث عن أخي إلى خطب وآراء بليغة ثورية وشيوعية وإسلامية سنية وشيعية، ويهودية وبوذية وبهائية وجنسية إباحية وموسيقية، واشتراكية وصوفية وكردية وزنجية واستعمارية، ونازية ووجودية ولسانية وتاريخية وأمريكية وروسية ويابانية و ... و ... و ... فشعرت بأني في مهرجان سيفسد علي رأيي وصوابي وكل معايير ومقاييس خطاب صدقنا العزيز.

لكني بقيت هناك حتى مطلع الفجر ونسيت أخي وقضيته. وازدادت نشوتي لما لاحظت أن الجاسوس شبيهي قد اضمحل، وأني أتنقل مع الناس من خطاب إلى خطاب وإلى خطب وخطب. فكانوا يردّون على بعضها بالعنف والشدة، ويؤيدون غيرها بالتصفيق والرقص والغناء دون حضور شرطة وبوليس ودون أن يزعم خطيب واحد أنه تميز بخطاب الصدق. وسألت شابا إفريقيا أسود كان يلتهم مثلي تلك الخطب كأنه يشرب كلامها ويعيش من آرائها.

– ألا تدلني من فضلك على خطاب الصدق في هذا البلد.

– هه! هه! هذه بضاعة لا تصدرها إلا بلاد العالم الثالث والرابع والخامس. أما هنا فلكل صاحب صدق صدق.

فلم أفهم شيئا يذكر مما قال على أني أدركت أن حراس خطاب الصدق في هذه المدينة معدومون وأن كل إنسان حر طليق في البحث عن خطاب صدقه وتحمل تبعاته ومسؤولياته.

قررت في اليوم الثاني أن أكبح جماح تيهي وهوري وهوسي أمام خطاب الصدق وأن أبحث عن أخي لأعود به إلى أرض الوطن عملا بوصية أمّي وأن أصلح بينه وبين والدي فينقلب الأربعة والعشرون من الإخوة والأخوات الأنصاف إلى إخوة وأخوات كاملين. فعلمت أنه يجلس بمقهى اللوح في الشارع المنحدر من البطحاء والمؤدي إلى سوق الخضر.

فدخلته على أطراف أصابع رجلي ووجدت نفسي في ندوة مجموعة من الملتحين الذين رفعوا رؤوسهم بغتة وأشاروا إلي بأصابعهم إشارة واحدة.

– لقد أوحي إلينا بقدومك المرة الأولى، فطردناك، وعدت إلينا ثانية فثبت لنا أنك جاسوس مجتمع الحريم الذي يريد أن يفرض علينا مقاييسه ومعاييره. ونحن قد طلقناه كما طلقه المسيح عليه السلام.

ولقد سبق أن استبد بداود وسليمان المزواجين إلا أن يهود العصر قد علقوه إلا أنت وأصحابك. فظللتم مجتمع الحريم الواحد في الدنيا.

– لكن أخي لا يحب مجتمع الحريم ولعله بينكم.

انهالوا علي ضربا كالرجل الواحد وكادوا يرحون عظامي رحيا. ولم أسلم منهم إلا بأعجوبة عندما انطفأ النور الكهربائي فجأة إثر خلل فني خارج عن نطاقنا جميعا كما يقال عندنا.

وعرجت على مرقص إفريقي قيل لي إن أخي يحب غناءه ومرحه. فدخلته على مضض. فما كدت أصل عتبته حتى استقبلني أهله بالسلام والترحاب على أنغام موسيقى مجنونة وأنوار معتمة تتلوى على أنغامها وألوانها أجسام إفريقية رشيقة. وفجأة رأيت أسودين قادمين علي فاختطفاني وقاداني إلى غرفة كبيرة فيها شخص يشبه أخي. فصرخت.

– أخي! أخي سليم! لقد وصلت إليك. شكرا لكما.

– هل أن أخاك أسود؟ انظر إلي. متى كان أخوك أسود؟ فلعلني نصف أخ من أمة أبيك الإفريقية؟ فهمنا من زيارتك لنا بالأمس أنك تبحث عن شيء آخر ... عن الأفيون لتحقنه لنا ثم تبيعنا لأصحاب خطاب الصدق ببلادك وغيرها ... فتحيي تقاليد أمثالك الذين باعونا رقيقا إلى يوم غير بعيد ... وعدت إلينا اليوم لتستكمل الصفقة بعد أن اختطفت عشرة منا افتقدناهم منذ البارحة.

وتخلصت منهم وأنا لا أكاد أصدق أن جلدي ما زال على ظهري. فلو لا خفة رجلي!! ولقد قادتاني بعد يومين من التردد إلى قصر واسع يشبه قصر العدالة قيل لي إن أخي كان يأتيه. فتهت في ممراته الشاسعة

وتعلقت بجدرانه وما عليها من لوحات زيتية قيل لي إنها تجمع بدع المعمورة ومحنها كلها. ولقد جمعت هنا لتتخاطب وتتحاور حتى لا يتغلب على الدنيا خطاب الصدق وملحقاته مثل ما هو الشأن في مجتمع الحريم. وجبت قاعاته حتى دخلت واحدة فيها تجمع خلق كثير من أشباه المحامين من كل الأجناس. وكانوا في سجال ساخن حول قضية الإعدام وقضايا القصاص الجسدي. فكان نقاشهم شديدا وحماسهم ملتهبا منهم المؤيد ومنهم الرافض. وفجأة انطلق صوت منهم:

– لا فائدة في الهذر. لا بد في المستقبل وفي هذه الدنيا المتقلبة العنيفة أن نطبق قصاص اليد بالرجل والعين بالسن، والرأس بالبطن والأنف بالركبة.

فارتفعت صيحة صاخبة من شق من الحضور.

– لا! لا! أبدا لن نوافق. لقد فهمناك لأن ذلك الرجل الذي دخل علينا الآن قد أقنعك بذلك بالأمس وأفسد علينا أمرنا. خذوهما للمحاكمة لأنهما يريدان العودة بنا إلى عدالة التعذيب.

ولا فائدة في أن أحكي ما وقع لي. فما كاد الليل يأتي حتى وجدتني كالتمر المعوس لا لون له ولا طعم. فلا مقر ولا مصير، يتابعني خطاب صدق جديد أسميته خطاب العداء كان يحكم علي بما ورائي وبمهادي وخلفياتي الصادقة والكاذبة وبجنسي ولوني مثلما حكم على السود الأفارقة، والهنود الحمر، والصينيين الصفر، والتوارق الزرق، وأهل الجنة الخضر، وأصحاب القبور الغبر وأهل الجحيم الداكن. فكأن الويل والشؤم ورائي كلما قصدت جماعة سائلا عن أمر أخي. جررت جسدي جرّا وقررت قضاء الليل في محطة الميترو ومغاراتها الدافئة لأربح نومي وأوفر مصروفا وعملة صعبة قليلة الوفر.

كان نومي لذيذا ثقيلا اثنني منه ضجيج وصراخ ونجدة، فرأيت جماعة من "البُونْكْ" * محيطين برجلين أسمرين لهما لهجة أهل مراكش. وكان القتال بينهم عنيفا بالضرب والركل والسب والشتم والخناجر

والسلاسل، والدماء تسيل والحقد بالأطنان دون أن يظهر شرطي أو يتدخل مصالح بينهم. اشتد ضغط جماعة "البونك" الكثيرة على المغربيين اللذين كانا يقاتلان قتال الأسود. فخنجرا أربعة من خصومهم وهزما ثلاثة آخرين وكادا أن يأتيا عليهم لولا مدد من "البونك" قضى على وثبة المغربيين. فإنهالوا عليهما ومزقوهما تمزيقا ورقصوا على رفاتيهما رقصة الهنود الحمر، وقلبي يمزقه الحزن وموت المغربيين يخنجر جسدي.

– قتلنا "البيكُو" وذبحنا "الرّاتون" وأكلنا "التّورْداف" * وانتصرنا على "العرب" ودككنا اللون "الأسمر" دكا. عاشت المسيحية يحيا الغرب المسيحي والنازية ورمبو الأمركي بطل الحضارة الغربية.

قتل المغربيين جماعة تنتسب شكلا وحلاقة شعر إلى الهنود الحمر وإلى الملونين ممن أفناهم أنصار المسيحية أتباع الجنس الأبيض، رعاة البقر في أمريكا. الدنيا والله تمشي على رأسها في هذه المدينة التي خزيت فيها نفسي لأني فضلت سلامتي بمغارتي بالمترو ولم أغث أخوي بدعوى أن المعركة غير متعادلة وأن لا فائدة في أن ألقي بيدي إلى التهلكة .. فترحمت على الشهيدين وكنت أولى منهما بالرحمة والشفقة. لعن الله الجبن والعي!!

سعيت إلى أن أنسى كل ما حصل وهمت في شوراع المدينة ومعالمها ومتاحفها ومسارحها وحاناتها وتعلقت بجمال نسائها وغزلهن وحبهن وحملتني الموسيقى على أجنحتها ودخلت عالما شعرت فيه بأني بلغت النشوة القصوى. ولبست قبعة وتكلمت لهجة البلد وتفننت في النطق بالراء غاء على غرار نطق أهل الحاضرة مدينة البحار ونسيت أمي ووالدي وأخي وأهلي وعشيرتي وخطاب الصدق حتى أصبحت أشك في انتسابي إليهم. وتعلقت بدنياي الجديدة إلى حد أني كنت أقرص جلدي لأعود إلى نفسي وأصلي. فلم يؤثر في ذلك تماما وترددت على النوادي الفكرية وتفقهت في النظريات الأدبية واللسانية واليساريات وما إليها، وأصبحت في غرام جديد مع ثقافة المدينة التي استهوت كل جوارحي وأصابتني منها طمأنينة

امتصت مني كل ملوثات خطاب الصدق ومجتمع الحريم وذاكرتي ورصيدها، وخطاب العداء ومصائبه.

لكني عدت بغتة إلى واقعي المنشطر ذات يوم كان الربيع فيه ناشرا وروده ومطلقا نسيمه. وكنت جالسا أحادث شقراء فإذا بي أسمع ضجيجا وصياحا وصراخا وقنابل تتفجر، وأرى دخانا يستقل وأفواجا من الناس تتدفق. فاقتربت من ذلك الصخب مع صديقتي، فإذا بها مظاهرة نظمها الأكراد مطالبة بحقهم في دولة ووطن ولغة وسيادة. فتحمست لهم ورافقت مسيرتهم وصرخت وصفقت معهم. وفجأة سمعت صوتا ينادي:

– ها هو المنافق الذي ألقى قنبلة بالأمس في قاعة اجتماعنا. إنه يصفق معنا ليضرب ضربته الثانية. تبّا للعرب وبطشهم بالأقليات الدينية والعرقية وبالأكراد والأرمن والزنوج والأقباط والبربر والمسيحيين والشيعة والخوارج و ... و ... و ...

وانهالت علي الضربات والركل والشتم واللعن. فوجدت نفسي في مستشفى دون أن أدرك سبب هذا النحس الذي يلاحقني في كل مكان. غفر الله لأخي سليم الذي أوقعني في هذه المغامرات القاسية وإن كان فيها نشوة حفزت فكري وحساسيتي وجعلتني أشعر أن صورتي عربيا لا تعجب ولا تروق لأهل مدينة البحار. لكن لم غضب علي أولائك السود وفيهم مسلمون؟ ولم كاد الأكراد يقتلونني وهم أهل صلاح الدين الأيوبي ونور الدين زنكي؟ ولم لاحقني أولائك المحامون وكان فيهم نفر من أهل بلدتي وبلدي؟

تعلقت بخطاب العداء وما وراءه من جبال من الاتهامات التي كانت تسعى إلى ذهني وعقلي وجوارحي وتروعني حتى كادت تهزمني لا سيما وأن كثيرا من أبناء بلدتي في تلك المدينة كانوا قد اقتنعوا بها.

ولقد ازدادت حيرتي لأني لم أدرك في الحين أن خطاب العداء هذا فيه نصيب من الصحة ؛ إلا أن كثيرا من عناصره تكون خطاب صدق آخر مدسوس، لأن مدينة البحار على ما لها من مزايا وما لأهلها من

حظوظ في السعادة والعيش الكريم، وحرية الرأي التي نتوق إليـــها دون أن ندركها، قد رشحت نفسها وعن اقتناع مفرط، لتكون مثلا للدنيا ونموذجا لها وبالتالي أصابها الغرور وغفلت عن سلبياتها وشذوذياتها. غير أن ذلك كلّه لم يمنعني من أن أقر أننا في حاجة إلى محاســبة النفــس ومراجعــة رصيدنــا الإنساني، دون أن نتذرع بأخطاء الغير لإخفاء خطايانا، حتى لا نشبه ذلــك المريض الذي امتنع عن معالجة سرطانه لأن جاره يعاني سرطانا أشد وأدهى. فالمصيبة هنا لا تهون إذا عمت مع الأسف الشديد!

وانتابني فجأة فزع اهتز له كياني وارتعشت منـــه أعضـــائي، وكدت أفقد توازني العقلي والجسمي عندما أدركت، يا لحماقتي! أن خطاب العداء الذي كان يلاحقني في ترحالي لم يكن عفويا، بل كان من فعل فـــاعل قد سبقني إلى تلك الجماعات، وأساء إليها بتقمص صورتي وانتحال اسمـــي. ولن يكون فاعلها إلا ذلك الملعون شبيهي الذي لاقيته على متن الباخرة. فهو لم يقض وقته سدى وأعد لي من المسرات ما نعمت به إلى الحين. وخشيـــت على نفسي منه لأنه كان على مقدرة فائقة من المكر. ولا بد أنه قاتلي. فلقد أوهم غيري بأننا نتشابه في الأحوال والأعمال، وأوحى إلى أصحاب خطاب العداء من مدينة البحار أن مسؤوليتنا جماعية "مونولوتية"، لا سيما إذا كانت سلبية. فنحن في الإساءة رجل واحد من المحيط إلى الخليج. فشبيهي، وهو من حراس خطاب الصدق، يريد أن يفسد علي وعلى أخي أمرنا ورؤيتنـــا إلى مجتمعنا وينفي ما تميزت به ثقافتي وحضارتي من حـــوار وتســـامح وعنـــف وتعسف، ومحافظة ورجعية وتقدمية ويمينية ويسارية، مثلما هـــو الشـــأن في صراع الحضارات الكبيرة ... خدعته أنه يحاربني بحربتين: خطاب الصدق في وطني، وخطاب العداء في مدينة البحار، دون أن يحيط أعداءنا بأن للخلاف عندنا أصولا، تدل عليه قراءاتنا ومللنا ونحلنـــا إذ منـــا الســـني والشيعـــي والخارجي والدهري، والبهائي والشيوعي والصـــوفي ... و ... و ... و ... فالواوات عندنا كثيرة لا حصر لها يمكن أن نشتق منها فعلا متعدد الصيـــغ: ووّو يووّو أو وأوأ يوأوئ. وقد تداخلت واواتنا وفرقنا وتمازجت، حتى كان

منا الشفعتي، والحنفتلي، وكان منا من يصلي صلاة التجار ومن يصلي صلاة الأبرار ... دون أن نزعم كما يفعل بعضهم أننا كنا دائما سعداء أعزاء، لا حروب بيننا ولا دماء ... وهذا بالطبع هراء.

المهم أني قررت أن اقتص من ذلك الشبيه الذي أراد أن يضع منا ومن شعوبنا صورة متكونة من أقزام صدق ودعاة عداء، ولفيفا لا أصل له ولا ملة. غفر الله لأخي سليم!! فكيف العمل؟ فهل أعود إلى وطني وأسلم من ذلك الشبيه المصنع وخزعبلاته المبرمجة حاسوبيا؟ لا! ولا! وصية والـــدتي ورائي. فلا بد أن أفوز بأخي وأصفي حساباتي مع خطاب الصدق وخطاب العداء. فوعدت نفسي باليقظة والحيلة واشتريت مسدسا صغيرا وواصلـــت البحث عن أخي. فدلوني على مسكن عجوز بولندية بحي العمال المهاجرين، يقال إن أخي صاهرها وتزوج ابنتها. فما كدت أرى محياها حتى انفجـــرت غضبا وصرخت وأظفارها تسعى نحو خدي وعيني وسمعتها تقول.

– أتجرأ على العودة إليّ بعد أن تزوجت على بنتي ضرائر من كل ما هب ودب بهذه الدنيا من النساء.

– لكني أتيت أبحث عن أخي ســـليم. لا صلـــة لي ببنتـــك وبضرائرها؟

– توفيت غيضا من أفعالك ولحق بها ابنها وحرمت منها ومن حفيدي اوه! أوه! اقبضوا عليه. هذا مجرم ... تزوج على بنتي سبع نساء.

وتقهقرت أجري وأصرخ

– هذا خطأ. ليس لي مسؤوليـــة فيما تدعين.

ولاحقتني العجوز باكيـــة

– هذا هو الملعون سليم الـــــذي قتـــل بنتي كمدا. هذا هو صاحب الحريم. يا بوليس! النجدة! النجدة.

فسقط على رأسي من الطوابق المجاورة ونوافذها وابل مـــــن الأواني والكراسي، والعصي والمكانس والقوارير، فأصـــابت كـــل أجـــزاء جسمي وشعرت أني لا محالة سائر إلى تباب. واستيقظت، وأنا طريح فـــراش

في غرفة طلابية ضيقة تقوم مقام بيت النوم والاستقبال والمطبخ والاستراحة، وفي زاويتها شاب طويل القامة قوي البنيـــة داكن الشعر خاطبته.

– من أتى بي إلى هنا؟ ومن تكون سيادتك؟

فرد علي من دون أن ينظر إلي.

– كادت القنابل التي سقطت علـــى رأســك أن تفقـــدك ذاكرتك يا أستاذ سليـــم

– أنا لست سليما. سليم أخي.

– لقد كنت حذرتك يا سليم من ذهنية مجتمع الحريم. وقلت لك أنك تسلك مسلك والدك. ولكنك أعجبت بنفسك وبحظوتـــك عنـــد النساء، فأخذت تتزوج الواحدة بعد الأخرى وتنجب منهن أبناء من أنصاف الأخوة والأخوات. كدت أن تموت اليوم، ولقد فقـــدت ذاكرتـــك حـــتى أصبحت تنكر ذاتك ,

– أنا أكلمك بجد. سليم أخي. وأنا عثمان أخوه أشبهـــــه لا محالة. أتيت أبحث عنه لأعود به إلى أرض الوطن.

– هل أنتما توأمان.

– لا بالطبع! لكن فيه سمات شبه كثيرة.

– لأنك سليم إن لم تكن توأما له. فأنت هو بالضبط.

تهيأ لي عند ذاك أني أصبت بهوس، لأن المشـــــهد الشـــاخص أمامي ليس طبيعيا. لكن صاحب الهوس لا يدرك حال هوسه. فأنا حينئذ في حالة جائزة شرعا ولا بد أن القضية تنحصر في سوء فهم. فبادرته

– ومـــــن أنـــــت؟

– ســـؤال غريب والله! أنا طـــــارق الجمـــروني صـــاحبك ورفيقك. نسكن نفس الحي. لقد خلصتك اليوم من موت محقق. دفعت بك إلى تاكسي وأتيت بك إلى غرفتي. فلم عدت إليها؟ ولم هذا التفنن في العودة إلى زوجاتك بعد هجرهنّ؟

فلم يبق بين يدي من الصدق ما أصدق.

– أنا لست متزوجا ولا أعرف لي زوجات.

– أنسيت مرفت التركيـــــة، وسمبـــا السينغاليـــــة، وددو الكرديـــة وسليـــمة الباكستانيـــة، ونينا الأندلسيـــة، ونادا البولنديــــــة وسلفيا السويديـــة و ... و ... و ... أما الفرنسيات فحدث ولا حـــــرج. كدت تتزوج الأجناس كلها تريد أن تكون منهن حريم عصبة الأمم. ومــــا أسهل طلاقك! وما أعجب تهافتهن عليك، وإن كن على علم بتصرفاتك! يا لك من رجل غريب الأطوار تجري وراء اللذة والشهوة وتباهي بهما شعـــارا اقتداء بوالدك! لقد كنت تفتخر بهذه الخصلة الوراثيـــة.

– سليم هاجر من بلادنا نقمة على أبي المزواج وعلى تعلقـــه بمجتمع الحريم.

– البـــس ثيابـــك وغـــادر هذا البيـــت حـــالا. سـئمت تلفيقك ونكران ذاتك.عد طبيبا وعالج نفسك!

فعرفت أنه جاد وغادرت المكان حتى أدركت ضفـــاف نهــر مدينة البحار الكبير. فتوغلت في مدارجه ووقفت على مائه، فرأيـــت فيـــه خيالي وملامحي! فلاحظت أنها تشابه كثيرا ملامح أخي ؛ إلا أنهـــا ليســـت ملامحه تماما.

شارب النهـــــر: هل أنت متحقق من أنك لا تشابهه تماما؟

محمــــــــود: لذلك أتساءل عن السبب الذي جعل ذلـــك الرجل ينزلني منزلة أخي، وعن موقف تلك العجوز التي اتهمتني بسبع نســـاء وقد طلقتهن كلهن. هذا خور! ولعل وراء ذلك كله شبيهي الماكر. لا أكاد أصدق أن أخي سليما، عدو مجتمع الحريم الألد قد أصبح من أنصاره. فـــلا حول ولا قوة إلا بالله. لا شيء يستغرب في هذا الدنيا. قلب "الفِيسْـــتَه" * أمر وارد كما يقول المثل السائد ؛ والعرب قالت قديما "قلب المجن غريـــزة" ... وحقيقة اليوم ليست بالضرورة حقيقة الأمس أو الغد.

وعدت إلى وسط المدينة البحاريـــة أبحث عن أخي، ويقيـــني أن مؤامرة تحبك ضدنا الاثنين . يبدو أنها دبرت بتوافق بـــين أصحـــاب

خطاب الصدق وخطاب العداء. وتلك حقيقة قائمة في عالمنا الثالث المحترم.
فما كدت أصل إلى بطحاء المسرح الغنائي الفخم الضخم، حتى اعترضتني مظاهرة صاخبة كان يقودها صاحبنا طارق الجمروني. وكانت تحتج على حرب لبنان وتدعو إلى تأييد إيران الخميني، وتشهر بحضارة الغرب في قلب مدينة غربية وبأخلاقياتها المارقة وتؤكد على يقينها باندثارها في القريب القريب، وتنادي بالحرية والديمقراطية لشعوب العالم الثالث، دون أن يتنبه المتظاهرون إلى الحشود البوليسية التي انقضت عليهم فجأة من الشوارع الجانبية بقنابلها المسيلة للدموع وهراواتها وبنادقها. ففتكت بهم وشتتهم. فذهبوا شذر مذر، سلاحهم كلام، وغضبهم صراخ، وعزيمتهم مظاهرات، وجزاؤهم قمع وموت ونسيان.

هربت من الحملة البوليسية حتى وصلت رحاب قصر ملوك مدينة البحار. فرأيت العجب العجاب ... الجمروني قادم نحوي وبيده رسالة يلوح بها إلي.

– اقرأها واعمل بها يا سليم الصناعي.

– ما معنى هذا؟

– أنصحك بقراءتها وصدق ما أقول لك فيها.

– أنت كذلك من دعاة خطاب الصدق، اعتمدوك مع العجوز البولندية لتقطعا صلة الرحم بيني وبين أخي.

– أنت جاسوس وعميل خطاب الصدق وخطاب العداء

وهجم علي وضربني فأفقدني وعي الذي عاد إلى بعد حين والرسالة بيدي. فأسرعت إلى فضها فإذا بها حوار.

ع* – هذا السيد يدعي أن له أخا اسمه سليم.

ص – هذا اسم لا وجود له البتة في أسرتهم.

ع – وهل يعقل أن يتكلف كل هذا العناء ويتعرض لكل الأخطار من أجل شخص وهمي؟

ص – الأوهام ينشئها الإنسان ويقبرها في كل لحظة، لأسباب عدة.

ع – وما هي الدواعي التي دفعت بصاحبنا عثمان إلى أن يلقي بيديه إلى التهلكة؟

ص – الأحلام، الاشتراك العقلي، الهروب من الواقع المر، البحث عن مخرج جديد للحياة حتى لا تأكله الرداءة.

ع – إذا صاحبنا هذا عثمان قد أسقط ذاته في ذات شخص آخر وهو سليم البطل المنتظر.

ص – يبدو أن سليما هذا من منطقته، وكان من المعارضين وعاش في مدينة البحار ومات مقتولا. فلعله اتخذه شعارا وركبه فرس رهان.

ع = عاد سليم إلى بلده صامتا في كفن الفناء، كما يعود أغلب المسافرين من أمثاله إلى مدينة البحار.

ص = لو قلت من المهاجرين لصدقت.

ع + ص = فأين المفر يا عثمان؟ لا يمكن لك يا أخي أن تتقمص روح سليم. لا يمكن لك أن تغلبنا بالكلام يا عثمان.

والسلام ص + ع

كنت أقرأ الرسالة وجسمي يرتعد وعرقي يتصبب. فكنت خائفا وغاضبا ومجنونا، وسقطت أرضا وأخذت أصرخ حتى أغمي علي:

– الحمد لله على سلامتك يا ابني!

– عمي خالد! أين أنا؟ وأين أخي سليم؟

– سليم توفي منذ سنتين. قتلوه بفرنسا رحمة الله عليه. قتله خطاب الصدق وادعى أن قاتله خطاب العداء الذي لا يحب مجتمع الحريم.

– وما جرى لي؟ مالي هنا في هذا المستشفى وكنت بمدينة البحار

– أثرت فيك وفاته وتحمست للبحث عنه لأنك لم تصدق بموته. منعك أصحاب خطاب الصدق وعذبوك حتى كادوا يقتلونك. وأنجدك أهل الخير وعشت في غيبوبة وكدنا نيأس منك ... لولا رحمة الله ومهارة طبيبك.

– فهل بقي من الصدق ما يصدق يا عمي؟

– لا عليك. لقد انقضى خطاب الصدق التي كنت تعرفه وتعــددت الخطب.

– أأصبح الصدق "أصداقا" هل يمكن للصدق أن يصبح جموعـــا في العربيـــة؟

– أمر صعب لأن ذلك شأن الحب والنصح والعـــدل ... كلـــها لا تتعدد في العربيـــة عقليتنا لا تقبل التعدد.

– العربيـــة نطورها، يطورها أهل العزم يا ولدي بالمفاهيم الجديدة.

– خطاب الصدق القديم الواحد الأوحد مات!! شـــيء لا يكـــاد يصدق!

– بالباب يا ولدي كثير من الأصدقاء ينتظرون الدخول عليك. كل واحد منهم يريد أن يعبر لك عن صداقته وصدقه.

– لا أريد أن أرى أصحاب مدينة البحار.

– موجودون بالباب يا ولدي، تعدد الصدق اليوم يفرض وجودهـــم ووجود غيرهم. ولعلك ستجد ضالتك فيهم. لا يمكنك أن تعيش مـــن دون أن تكون لك مطيـــة. في حفظ الله دمت وإلى اللقاء القريب.

وخرج عمي ودخل علي الأصدقاء، وسلموا علي ثم فاجأني كل واحد منهم بعريضة مكتوبة فيها خطاب صدقه ومدينته الفاضلة، راجيا أن أكـــون من دعاته على حساب غيره باسم التنافس الحر، واقتصاد السوق و"الوكّال" المستهلك المستفيد كأن خطبهم سلع، وشخصي سوق يجب اكتساحها دون أن يسأل أحد منهم عن مصيبتي وغيبوبتي وعزاء نفسي. جاءوا لتســـخيري ولاستهلاكي، اعتقادا منهم أني دائما على استعداد للمـــهاترة، والمعاكســـة والمشاجرة، والصدق والحق والعدل والحريـــة والسجن. قتل الإنسان مـــا أعجبـــه!

وفجأة ارتموا علي بدون حياء، وسعت كل فئة منهم إلى أن تختطفني وتلاقفتني الأيدي والسواعد، واشتدت المعارك ودوى الرصاص. ووجدتـــني في سيارة سوداء تطوي الأرض طيا، فيها أربعة ملثمين. قال لي أحدهم.

– لقد فاز بك صدقنا. وستسعد بك مدينتنا. لقد انتهى عهد مدينة البحار ودخلت مدينتنا ".

وسكت محمود وابتسم ابتسامة الانتصار، عنوانا على انتهاء قصتـــه وعلى متابعة أصحابه لها متابعة مطردة. فانطلق الصـــراخ وقـــال بـــودودة شاكرا.

– أمتعتنا يا محمود بل أقول إنك بهذلتنا والله. قصّة عجيبـــة وممتعة! الدور دورك يا شارب النهر ... الرجاء المتعة والبدعة واحترام الوقت مـــن فضلك. الفجر أمامنا قريب.

واستعد شارب النهر ثم قال:

مدينــة الذكــرى

عاش الجمــل!

قال شارب النهـــر قال صاحبنـــا:

كانت السيارة التي تقلنا تأتمر بالأنوار والرموز، وخيل إلي أنها كانت تتمطط بمالها من آليات وأجهزة متطورة، يقودهـــا حاســوب دأوب وفيها هواتف ترن وتنطق، ومذياع يرسل ويجيب، وعلامات تغدو وتـــروح. فكانت عجبا عجابا استهواني وأخذ علي لبي، لا سيما أن المتلثمين الأربعـــة كانوا يتعاملون معها بسرعة هادئة، ويؤدون ما عليهم من خدمات بطاعـــة تكاد تكون آليـــة. وفجأة سمعت صوتا يؤكد:

– احذروا الأعداء! إنهم يتربصون بكم علـــى بعـــد عشـــر دقائق. الخطر الذي يحيط بكم فتاك. نرجو لكم الفلاح. مع السلامة.

فازدادت سرعة الملثمين الهادئة، واستحالت السيارة إلى شبه طائرة كانت تعلو وتنزل وتتلوى على قدر الطلقات الصاروخيـــــة الـــتي كانت تستهدفها من الخارج ؛ ثم أخذت ترتج بحسب ردود مدافعها الضوئية وصواريخها اللّيزريـــة ؛ واشتدت المواجهـــة بينهما وبين جرميـــن ملاحقين كانا يحاصرانها حتى ضيقا عليها الخناق. فسمعت رئيس الملثمين يقول:

– ركزوا على السيارة الأولى حتى نتخلص منها. دمروهـــا. هيا! إنها في قبلة النار. أطلقوا اللايز! أطلقوا! لقد أصيبت والحمـــد لله! آه! احذروا!

وعندها هزّت سيارتنا الطائرة هزة عنيفة، ونشـــب حريـــق بجانبها الأيمن، هلعت منه.

– أصبنا مـــن حســـن الحـــظ في الجناح الأيمن المتغـــير ... عمليـــات التغيير والتعويض بسرعة!

فخرج من وسط سيارتنا نصف جديد عوض الشق القـــديم المحترق الذي اندثر كأنه لم يكن.

– سيارة العدو الثانية تنبهت لضعفنا وتهاجم آلياتنا الحساسة من الجناح الأيسر! أغرقوها في الضباب الهيدروجيني ثم احرقوها فيه.

فكان ما قدر لها. وعادت سيارتنا إلى حالتها الأولى وهدأت حركة الملثمين وسمعت المذياع.

– خرجتم من المأزق بسلامة. هنيئا لكم،كونوا على يقظة! نحن في انتظاركم مع ضيفنا المبجل المختار بمدينة الذكرى.

فسألت رئيس الملثمين.

– ولم كنت أنا الضيف المختار؟

– لأنك ابن عمنا وقريب سيدنا.

– وما الغاية من ذلك !

– نريد أن نصوب بك إلى أعماق الذكرى لتشهد على دنيا الحقيقة ولتشهد بالحق.

– هل أنتم في حاجة إلى إنسان ضعيف ساذج جبان، قلق مثلي ليؤيد حقيقتكم ورؤيتكم؟ فهل أنتم على غاية من الضعف حتى تعولوا علي وتستأنسوا بي وبمقدرتي الهزيلة؟

– نحن ندعو الآلاف من أمثالك ليل نهار إلى مشروعنا، ونعود بهم من حيث أتوا ونزرعهم في دنيا الشر لاستصلاحها ... وستراهم عما قريب.

– وهل هم من أبناء عمومتكم ومن ذوي القربى كذلك؟

– تقريبا، وحسب درجات تربطنا بهم صلات رحم متنوعة.

– وما تعنون بدنيا الشر؟

– شر القرن العشرين والواحد والعشرين ... والثلاثين وما بعد ذلك.

– وما القرن الذي سيكون قرن الخير الذي ترتضونه؟

– الواحد والعشرون .... ومنه ستكون البداية.

– لكن أين الخلاف؟ وأين المشكلـــة؟

– في تصور الحقيقـــة، والســـلوك، والحقـــوق، والإنســـان والوسائل والنساء.

– كلنا في هذا الدجاج نريش كما يقول المثل الشعبي.

– مع الفارق الشديد الذي ستراه بعيني رأسك عندما تغادر هذه السيارة بعد بضع دقائق، وتدخل مدينة الذكرى، وتعيش فيها وتتآلف مع عوائدها وتقاليدها، وتقضى فيها مدة في التدريب والامتحان قبل أن تعود إلى الدنيا الزائلـــة.

– هل يمكن لي أن اعتذر عن دعوتكم اللطيفة الكريمة بعد ما تفضلتم باختطافي بكل رقة ودبلوماسيـــة؟

– لا يمكن أن نفرط فيك وفي استضافتك. فنحن نعول عليك كثيرا لأننا نراهن عليك.

– لأني أتميـــز بخصال رفيعـــة بالطبع؟

– أجل! أجـــل! اختيارنا مبرر. الآن وصلنا ولنتهيأ لدخول مدينة الذكـــرى.

شعرت أن سيارتنا الطائرة تستحيل إلى سيارة زاحفة، ورأيت النور الطبيعي يخرق نوافذها الحالكة، وإذا بساحة عظيمة، فيها مئـــات مـــن مثيلاتها جاثمة قرب أنواع متعددة من الطائرات والصواريخ التي كان يحيـــط بها حراس ملثمون مثل أصحابي فكان مطار عجيـــب فيـــه مـــن الأنـــوار والحواسيب والروبوات الناطقة والعاملة ما أدهشني وحيرني ، حتى خلـــت أصحابي قد ضحكوا علي وعلى عالمي المتخلف، عندما حدثوني في الطـــائرة عن مدينة الذكرى التي ظننتها تفيد الماضي والزمن الغابر. فما نظـــرت إلى ناحيـــة إلا ورأيت ما يفيد أننا في عالم المستقبل، عالم القرن الســـابع عشـــر الهجري بل الثامن عشر منه الموافق للقرن الرابع والعشرين الميلادي على ما أظن. شيء لا يصدق!

الغريب في الأمر هو أن كل ما كنت أسمع وأرى منذ خطفت
كان يبدو لي ضبابيا ، غير مستقيم استقامة كافيـــة ... لا يقبله عقلي تماما
. فأوعزت ذلك إلى التعب. إلا أني سمعت وأنا أمشـــي في المطـــار، أحـــد
الملثميـــن يهمس لصاحبـــي

– هل أعددنا العدة لاستفاقته بعد انقضاء مفعول الشـــراب
الذي تناوله في المركبة؟

– تماما. كالعادة. لا تبديل لذلك. فلا يفلت من مشروبنـــا
أحد وسيحصل المفعول المنتظر بعد بضع دقائق.

وفعلا أحسست أن سرابا أخذ يغشى بصـــري، وأن جميـــع
المشاهد أمامي كانت تتراقص وتقلص. دلكت عيـــني طمعـــا في توضيـــح
الرؤيـــة. وفجأة اندثر كل شيء. ووجدتني وأصحابي الملثمـــين في ســـاحة
واسعة شاسعة خضراء فيها أشجار يانعة، وتحيط بها قصور فخمـــة قديمـــة
عاليـــة، وكان الوقت فجرا ينبئ بطلوع الشمس. فبادرني رئيس الملثميـــن:

– أهلا بك بمدينة الذكـــرى الأم!

– لكن أين مدينة المستقبل؟ أين السيارة الطائرة؟

– كل ذلك كان من حاصل الخيال ما عدا السيارة.

– وكل ما رأيت وما سمعـــت؟

– من مفعول شراب العودة وتسجيلات الانتقال إلى مدينتنا.
شرابنا يؤثر في ذهن متناوله مدة ثلاث ساعات تكفينا لنقله إلى مدينتنا ...
وتؤدي تسجيلاتنا ما نرغب فيه من معارك وبلاغـــات ، تؤثـــر في ضيفنـــا
وتستهويه حتى نتعرف على هويـــته وأهوائه.

– وما يستهويني بالذات ويكون أهوائي؟

– هوسك بدنيا المستقبل وهروبـــك إلى الأمـــام، وتعلقـــك
بترهات التطور المفرط وإعجابك به إلى حد التهور، مهما كان لون التطـــور
وطعمه. فأنت عندنا من المناضلين من أجل تعويض ذاكرتنا بذاكرة غيرنـــا.
وأهل الجحود من هذا القبيل عددهم لا يستهان به.

– فما لكم وشأني؟ فأنا باعوضة ليس لها شأن يذكر.

– أنت صاحب لسان طويل، وفي يدك قلم فتاك، وفكـــرك جوال. وأمثالك خطر على مشروعنا الذي يهدف إلى بسط جنـــاح مدينـــة الذكرى على العالمين.

– لا نصيب من الصحة فيما تدعون ... فأنا ...

– نحن أعلم بشؤونك وبشؤون أمثالك. إننا نلتقطكم الواحد بعد الآخر، ونجمعكم عندنا هنا في انتظار مؤتمر التدريب والتوبـــة والحـــوار معكم قبل أن تعودوا إلى أوطانكم للتبشير بمدينة الذكرى. هيا! لقد حـــان وقت الدخول إلى مدينة الذكـــرى.

محمـــــود: كيف يمكن لشراب أن يحيل منظرا إلى منظر آخر ويحيل الإنسان من مخلوق أول إلى مخلوق ثان؟

حيــــــــاة: يبدو أن الصباح زعيم القرامطة كان يســـقي أصحابه شرابا يوهمهم بصورة الجنة.

عيـــــــــــــار: يبدو أن أصحابنـــا الملثمـــين في قصتك يا شارب النهر لم يكونوا بالضرورة من بني بلدتنا!

فلم يجب شارب النهر على الملاحظات والتعليقات وواصـــل يروي قصته مما أثلج صدر بودودة الساهر على الوقت واحترامه.

– "قال صاحبنا: توجهنا نحو سور عال. يكاد ينطح السماء، له باب حديدي مسمر، لا حدود لعرضه ولا لطوله. انفتح أمامنا كما ينفتح باب العرش. وإذا بنا في مدينة عجيبة كل مبانيها على شكـــل خيمـــة، وإن تنوعت وتغيرت من شارع إلى آخر. فكان شكل الخيمة باسطا سطوته على كل مكان، مما ذكرني بالمدن الآسيويـــة الكمبوديـــة والصينيـــة التي كانت تشبه الباغوذا *، كأنها بمحاكاة ذلك المثال تخلص المودة لنموذج أصلي أصيل لا يصح الخروج عنه حتى يظل دائما قديما لا يعترف بـــالزمن ولا بالتـــاريخ ونحوهما ... الثبات، الاستقرار ... و ... و ... و ...

وكان ذلك شأن المدينة التي دخلناها. فـأعجبت بها أيما إعجاب وتعلقت بها وبما تميزت به من مثال معماري واحد مقصود، كانت فروعه تتغير وتتبدل وتتلون وتتمفصل حسب أنواع مدهشة تطول وتقصر، وتمتد وتغوص تحت الأرض، وترتفع إلى عنان السماء دون أن تنفصل عن مثال الخيمة الأساسي. فكانت رؤية فذة فريدة لم أر لها سابقة في عمري. فكنت أجول ناظري وأهرول من مبنى إلى آخر ومن مغنى إلى غيره وأطلق من دون أن أشعر آهات الإعجاب والتعجب، وأتحسس بيدي الحيطان والأبواب. فلعله الوهم والتوهم!

لقد شعرت أني فزت بمدينة أحلامي، لأني كثيرا ما كنت أتمنى أن تكون مدن بلادي وقراها على نمط مميز: مثال أصل وفروع فاتنة مفتونة مجنونة، حتى تمتزج روح الهندسة بروح الجمال وروعة الحضارة. وذلك ما كان يعجبني في مدن آسيا مثل بيكين وفي مدن أمريكا ومبانيها من ناطحات السحاب. فالخيمة فكرة عجيبة فتنتني لأنها نابعة من عروقي في أصلها وترضي بتطورها طموحي المستقبلي. المهم في هذا التركيز على فكرة حضارية أم ؛ ولك أن تتصرف في الباقي كما تشاء. فلا يهم النموذج المختار سواء أكان قبة أم صومعة أم كنيسة أم صرحا أم قوسا أم هيكلا. أم ... أم ... أم ... يمكن للفكر أن ينبع منه وأن يتيه فيه.

وأحسست بالنشوة تستبد بي وبالأفكار تتزاحم نحوي وأخذت أناجي نفسي: لو اخترت لمدينتنا مثالا، فما عسى أن يكون؟ لا بد من استشارة مهندس معماري. لكن لا داعي إلى ذلك، لأن الاستشارة لم تحم مدينتنا من الفوضى المعمارية وأصبحت مدينتي لا رأس لها ولا ذنب ... فلو اخترنا لها البناء المقوس أو المقبب المتطور مثلما هو موجود في بعض الأحياء! ولو ... ولو ... ولو ... واشتد حماسي وأصبحت أخطب وأنا أمشي دون أن أشعر برفاقي الملثمين، ولا بالفوضى التي تسببت فيها لأني أدخلت ارتباكا كبيرا على حركة المرور.

استدركت حالي وأنبت نفسي على نزواتها المجنونة وسعيت إلى أن أكبح جماحي. إلا أني لم أفلح، لأني كنت أفاجأ باستمرار، كلما تقدمت، بعجب عجاب جديد. فلقد لاحظت مشدوها أن كل السيارات والدراجات والحافلات والجرارات والشاحنات والطائرات العمودية والنفاثة و ... و ... و ... كلها على شكل جمل حتى الأدوات المنزلية والمذياع والتلفزة ... كلها جمال تنظر إلي. ياللعجب! هل رأيتم جملا يطير ...! طائرة جمل!

لقد سبق لرسولنا محمد صلى الله عليه وسلم أن أسرى من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى على ظهر البراق، وكان على شكل فرس مجنح كما تصورته عقول الناس ... لكن أن يطير صاحبنا وأخونا الجمل!! فذلك من باب الجنون. وهنا تكمن عجائب هذه المدينة.

فياليت أصحابي ورفاقي من قريتي كانوا معي على عين المكان ليصدقوني وليعجبوا ويتعجبوا معي. لكن لم لم نعجب من جميع النماذج التي أبدعتها الحضارات الأخرى واكتفينا بالتهافت عليها بدون روية؟ ألم تكن السيارة مبنية على هيكل الإنسان بالضبط من دماغها المحرك إلى مخرجها الخلفي الذي يطلق الدخان؟ واستولى علي ضحك غريب، لأني رأيت الجمال تحتل كل مكان من هذه المدينة، وقد انقرضت تلك الدواب من قرانا وصحارانا. وكانت محركاتها تزمجر وأبواقها تنعق والناس راكبون في أعناقها وآذانها وعيونها وبطونها وذيولها و ... و ... و ... فلقد حوت الدنيا كلها، فكانت أبوابها ونوافذها تفتح وتغلق، وتسير بسرعة البرق ... رحم الله الجمل وأبقاه!! فلقد كان دائما أمينا في خدمة الإنسان ... والإنسان العربي بالخصوص ولقد تطورت اليوم مؤهلاته وتعددت بهذه المدينة. فأصبح سيارة البر والصحراء وسفينة البحر وطيارة الجو ... ولعلة سيكون صاروخ الحرب والفضاء ومكوك الرحلة إلى القمر والمريخ والشمس ... والله لا بد أن أسأل أصحابي من أهل المدينة عن شأن هذه البدعة البديعة الحسنة عندما نلتقي في

ساعة الاستراحة. ولا بد أن يكون سؤالي متأدّبا لأن قضيـــة الصواريـخ الجمليّة من الأسرار العسكريـة التي تستوجب الحذر.

المهم أني أصبحت معجبا بهذه المدينــة وبأهلـها وبوضـوح رؤيتهم وأصالتها، وإن كانوا ملثميــن متخفين. وتعلقت باســتفادتهم مـن منتوجهم الوطني، خلافا لليابانيين الذين حاكوا الأمريكيين وفقدوا في النهاية هويتهم. لكن طبعي خانني فسألت أصحابي، فلــم يلـق سـؤالي جوابـا، وبالأحرى لم أتمكن من أن أميزهم من غيرهم من سكان المدينة. فلقد كـان كل الناس المحيطين بي مثل أصحابي. فالمدينة كلها ملثمة معممة، "مُجَزّمَه" *، منضبطة متيقظـة منتظمة، نظيفة، عفيفة، جميلة، خفيفة كل شيء فيها ميسّر، خدماتها المعروضة تفوق خدماتها المطلوبة، إنها المدينة كما أحبها ... إنها قريبة من الجنة، فضلا عن الألثمة والعمائم والعباءات والسراويل الــتي كـانت متنوعة الأشكال والألوان، تنتسب كل واحدة منها إلى مودة فيها صنعة وفن وتفنن وأناقة لا تخلو أحيانا من التصنع والتكلف والإفراط، مثلما هو الشأن في كل مكان وفي كل الحضارات. وهذا جنون آخر أحبه، لأنـه احتفـظ بوحدة اللثام التي لم أفهم فحواها. وعساني أبحث عن تلك العلة لا سيما وأنا أفكر في دخولي إلى ملة هذه الأمة التي بدت مقصورة علـى الملثمـين مـن الرجال. فأين الأطفال؟ وما هي حال النساء؟ وعـاد إلي طبعـي الخـؤون الفوضوي.

بـــــودودة: نحن نطلب منك أن تتقيـد بالقصـة والسرد والحوار وتخلصنا من تأملاتك وعفوياتك. فـأنت البـاث ونحـن المتقبلون، فاحترم صيغ التواصل كمـا أوردهـا علمـاء النقـد والأدب والأسلوب المحدثون، وإن كنت لا أرى داعيا إلى اعتبارنا آلات تبث وأخرى تلتقط ... لكن هذا جائز في مدينتك الغريبـة هذه!

لم يجب شارب النهر مرة أخرى عن هذا التعليـق وواصـل قصته: "قال صاحبنا: لم أجد لأصحابي الملثمين أثرا لأنهم تركوني لحالي حـتى اكتشف مدينتهم واحتار أكثر فأكثر، واندهش واقتنع أو أن أتكدر وأثــور

وانفلق وإذاك يتدخلون لمحاسبتي محاسبة عسيرة ... الصبر مفتـــاح الفـــرج والتدبير مفازة الحائر أمام هذه المدينة التي توحدّت فيـــها مظـــاهر الحيـــاة كلها، كأنها نسخة من أصل وإن تنوعت مظاهره. فحتى الشجر كـــان كلـــه نخيلا لا غير: أشكاله، ألوانه ... فكنت ترى النخيـــل الأخضـــر والأحمـــر، والأصفر والأسود والأزرق، والبنفسجي. فهل سبق لكم أن رأيتـــم نخلـــة صفراء وأخرى حمراء يا جماعة؟ فلعلها مدهونة أو مصنوعـــة! الهولنديـــون طوروا التواليب إلى ألوان عدة بالعلم والتدبير، وذلك ما فعلـــه الملثمـــون بنخيلهم. فكانت أشجارهم نباتية فيها عروق وماء وثمار وتمـــر مـــن جميـــع الألوان، لذيذ المطعم يسير الهضم. وكان الناس من الملثميـــن يأكلونـــه بنهم كأن به عسلا. فلو كان بودودة أو غيره هنا في هذا المدينة، لأتوا على ذلك التمر والتهموه التهاما.

وازدادت دهشتي لما وصلت إلى ملعب واسع فخم عل شكل خيمة عملاقة منصوبة وبه آلاف الملثمين يصرخون ويهتفون لسباق لم أر فيه إلا الجمال، تصول وتجول في حلبة الملعب. وكانت المباريات أربع خصصت أولاها لعدو ثلاثة آلاف متر لا تجري فيها إلا الجمـــال البيـــض المزركشـــة بالألوان والأجراس والإعلام. أما المسابقة الثانية، فكانت للجمال الســـود التي ازدانت أنوفها وأعناقها وأرجلها. فكان كل جمل يرقص مع صاحبه على نغمة معيّنة يبدع فيها ويسعى إلى أن يتفوق على منافسيه. وذكرتـــني تلـــك المسابقة اللطيفة المستمدة من معين التراث الشعبي والبيئي بـــالرقص علـــى الجليد ببلاد الأعاجم. وتركزت المسابقة الثالثة على الجمال، وهـــي تلعـــب كرة القدم وسراويلها القصيرة الملونة تعجب الناظريـــن. شيء لا يصدق ! خسارة! لو كان الحكم جملا لاكتملت الصورة! وإن كانت النمرة والفيلـــة والأسد والخيل تأتي بالعجب في الأسراك كذلك. القضية قضية مهارة ونباهة في اعتماد رصيد البلد وكفاءاته. هنا تكمن الحضارة! ومن هنا تنشأ الحكمة!

ولقد كاد مخي ينفجر، لما جـــاءت المســـابقة الرابعـــة الـــتي خصصت للغناء ... نعم للموسيقى والغناء ... بادرة لم أر لها مثيلا في دنيانا

إذ رأيت أهل المدينة يرشحون أصواتا من الجمال للغناء ... نعم! نعم! والله أعلم بذلك! المهم أني سمعت صوتا جمليا متخصصا في موشحات زرياب وآخر في عبد الوهاب، وثالثا في أم كلثوم ورابعا يحسن أداء "تحت اليسمينة في الليل "للهادي الجويني ... وأعجبني كثيرا الجوق الجملي الذي أبدع في أداء الموشحات الأندلسية وقصيدة الحصري: " يا ليل الصب." آه يا أصحابي لو كنتم معي ...! واستمعتم إلى ذلك الجمل الأبيض رئيس ذلك الجوق وهو يردد القصيد الأندلسي لمتم طربا وشوقا. فالجمال قد كفت المدينة مؤونة المغنين من النساء والرجال والشبان والأصوات الوحشة والقصائد المبتذلة. فرحم الله الجمال وجمال صوتها وبديع قصائدها!

تعلقت بهذه المدينة التي صالحت بين تراثها وطموحاتها، فأحببتها وشعرت أن قلبي يميل إليها وحمدت الله على أن وجدت المدينة التي لا مكان فيها لخطاب الصدق وبدعه ومبتدعاته، بل وجدت فيها المبتدعات والجمال والخيارات الهادفة، والذوق الرفيع، والنموذج الأصيل الذي لا يظل جامدا صامدا. واقتنعت أن مصيري ومستقبلي في هذه المدينة التي أعجبني نظامها وتنظيمها وسلوك أهلها، وإن كانوا ملثمين، ورفاهة حياتهم، ومتانة رؤاهم ... جنة على وجه الأرض!

أحسست بالجوع ينهشني نهشا فأسرعت أبحث عن مطعم طامعا في أن يكون فيه الأكل مجانا، وأن أشرب فيه من المشروبات ما لذ وطاب. لكن المطاعم مفقودة ؛ فاحترت واضطربت وإذا برئيس أصحابي يطلع علي:

– أحسسنا أنك جائع. استبدت بك عادات قومك في الأكل والشرب التقليدية.

– ولم تقليدية؟ بل هي غريزة طبيعية في كل إنسان.

– لا ننكر ذلك. لكننا غيرناها في هذه المدينة وطورناها وروضناها.

– حتى شرب الماء!

– الماء حرام عندنا. لا يشرب ولا يذكر له اسم.

– الإنسان يفنى بدون هواء ولا ما ولا أكل.

– والدليل أننا موجودون في صحة جيدة دون ماء.

– وكيف؟

– نتناول وجبة واحدة تكفينا كامل اليـــوم.

– طيلة حياتكم هذا دينكم؟ إنها حيـــاة سهلـــة رتيبـــة!

– بل نأكل يوما ونصوم يوما والدنيا عندنا يوم بيـــوم.

– وكيف العمل عندكم؟

– نعمل في النهار يوم الإفطار ونعمل في الليل يوم الصيام.

– ذلك أمر مكروه. فالصيـــام يجـــب أن يكـــون مع الجهد وإلا انقضى اجره وجزاؤه ومقصده.

– الصيام مع العمل في النهار مدعـــاة عندنـــا إلى التـــهاون والتكاسل. فالصيام مضمون مع الراحة دون التفريط في العمل ليـــلا. لقـــد قلبنا اليوم العادة وذلك من حقنا وجهادنا ومن ثورتنا الثقافية.

– لكن الدنيا كلها تشرب الماء ولا تحرمه.

– في الدنيا من يحرم أشياء كثيرة ويلتزم بذلك.

– لكن حرية الإنسان تجيز أكثر مما تحرم. وأنا محتاج إلى شربة ماء زلال أقطع بها عطشا حارقا.

– الماء وكل ما يصنع منه أو يلونه حرام عندنا.

– طيب! هل لي حق في "بيف ستيك "؟ ليـــس لي نفـــس في أكل حبوبكم.

– الحبة أو تموت جوعا.

– ومما تتكون حبتكم المحبوبـــة.

– مـــن فؤاد الجمل ولحمه ومن الثمـــار والفواكـــه. فـــإن خرجت عن تقاليدنا ارتكبت إثما ويكون مصيرك مصير أولائك الناس.

وأشار بإصبعه إلى مبنى كله بلور. اقتربت منه فرأيت شبانا مكبلين يـــرددون نصا كتب على لوحة ضوئيـــة تدور حولهـــم:

نقســـم بأننا لن نثور على الحكمــــة القديمــــة.

نقسم بأننا نلتزم بالوحدة في القول والرأي والعمل.

نقسم بأننا نؤيد النموذج الأصلي: الخيمة واللثام والجمل.

ونقسم بأن نلبس الخوذة حتى العشرين نلبس فيها اللثام.

ونقسم بأننا لا نشرب الماء ويوما بيوم ندعو إلى الصيام.

ونقسم بأننا لن نبحث عن الحريم أينما كان ومهما كان الزمان.

صدمت، روّعت، جننت لأني وجدت نفسي وجها لوجه مع خطاب صدق فضيع. نظرت حولي بحثا عن مخرج لأفر من هذه المدينة وأعود إلى قريتي وخطاب صدقها الحلو، مهما كانت مشاكله. وشعرت أن إعجابي بهذه المدينة مهدد بالخطر لما رأيت أن أولائك الشباب المكبلين يئنون ويجرون سلاسلهم ويرددون جملا وعبارات تشهد بأنهم لم يلتزموا بتقاليد مدينتـــــهم. فنالهم عذاب شديد. استولى علي حزن فتاك وكاد قلبي يتفطر مما رأيت من ذل وقهر، وإهانة على سيماهم. فكانوا مثل الباغاءات يهذون بحرام المدينة وحلالها. فنسيت الأكل والماء والحبة. وسألت أحد الملثميـــن من رفاقـــي.

– ما يعنى بالخوذة على رؤوسهم؟

– الشباب عندنا يلبسون الخوذة لما يدخلون المدرسة. وتبقى على رؤوسهم ليل نهار حتى سن الثامنة عشرة أو حتى العشريـــن، قبـــل أن يلبسوا اللثام. وفي الخوذة مسجّلة تذكرهم بـــالصلوات الأربعيـــــن الـــتي يؤدونها يوميا وبالصيام يوما بيوم. وبالانفصال عن الحــــريم إلا في حـــالات الاتصال المباحة، وبالابتعاد عن المنافقيـــن دعاة الإباحيـــة والزندقـــة.

– ولم لا يلبس الرجال الخوذات؟

– لأنهـــم أدوا واجباتهم واجتازوا اختبار السنوات الثمانيـــة عشرة.

– لكن الصلوات الأربعين والصيام يوما بيوم والخوذات وخطاها ... هذا شيء عسير على أطفال وشبان في أعمارهم.

– التعليم في الصغر كالنقش على الحجر، حتى ترسخ في أذهانهم المبادئ ويشتد عودهم أمام الدواهي لأننا أصحاب حق مطلق.

– وهل اقترف هؤلاء الشبان ذنوبا أخرى؟

– تجاسر بعضهم على البحث عن أمه أو على اللقاء بشابة يخطب ودها دون الالتزام بقوانيننا، أو الاتصال بخطيبته قبل الميعاد المضروب، أو الحديث مع الزنادقة الذين يشككون في مبادئنا.

– أنا أظن أنكم أهل مدنية لا أصحاب خطاب صدق.

– نحن أهل مدينة الذكرى، نريد أن نعود بالناس إلى الحكمة القديمة التي وضعها زعيمنا الأعلى القديم لأن المعرفة قديمة ؛ وكل ما جاء بعدها مراوغات من صنع الفلاسفة والأرائيين والشعراء والقصاصين والسياسيين الخائبين ومن لف لفهم من أصحاب الدجل والنفاق.

– لكنكم أهل ذكاء بارعين في التقدم والاختراع والاستنباط الفطن تدل على ذلك حضارتكم وآثارها الفذة المحيطة بنا.

– تلك وسائل تبرر الغاية، وهي عوارض زائلة.

– وما هي غايتكم؟

– قلنا لك العودة إلى الحكمة القديمة الأزلية التي لا تقبل التبديل ولا التأويل.

– حكمتكم تبدو غير مستقيمة، ما دامت تحتاج إلى القهر والإهانة يسلطان على من لا يلتزم بها. وهي تدعوكم إلى المواجهة والتناحر. ولعلها كانت مدعاة إلى الحرب والتشرد.

– تلك تجارب تمر ولن تعود. ومنها ما لسنا مسؤولين عنه.

– وكيف أصدق ذلك وخطاب صدقكم مثل خطاب صدق غيركم.

– أن تؤمـــن بحقنا المطلق، وأنّ الحقيقة المطلقة لا توجـــد إلا عندنا دون سوانا. وإذاك سيدخل الإيمان قلبك وتنجو من الريبة والقلـــق. فمن لم يخضع لذلك يفنى وينقرض.

– هذه حكمة مستحيلة عليكم وعلى غيركم. ثلاثة أربـــاع الإنسانيـــة ليسوا عليها. وذلك دليل على أنهم لا يقرونها ولا يرتضونها.

– سيأتون إليها طال الزمان أو قصـــر.

– وكيـــــــف؟

– تلك أسرار سنبوح بها لك بعدما تنتهي زيارتك لجميع معالم مدينتنا وتقرر عن قناعة أن تصبح منا. هيا الوقت حان.

قدت إلى زيارة حي الأطفال والشباب الذي كانت مبانيـــــه وشوارعه ووسائل نقله على غرار مدينة الرجال الكهول. وقد شدتني تلـــك الخوذات الجميلة الملونة المتنوعة التي كانت علـــى رؤوس الشبـــاب مـــن السادسة إلى الثامنة عشرة، لا تفارق أصحابها ولا تســـكت آلاتهـــا إلا في ساعات التدريس. وتظل تذيع رسالتها وحكمها بالموسيقى والغناء، والدعاء والإرشاد والوعظ، حتى أصبحت جزءا لا يتجزأ من رؤوسهم وعقولهـــم . فهي مسخرة لتملي عليهم واجباتهم الحكيمة ، وقواعد لقـــاءاتهم بأمـــهاتهم وأهلهم وتحيطهم علما بتاريخ خروجهم من الصبا والمراهقة إلى عهد الكهولة إلى الزواج. فلقد كانت الدنيا تدخل وتخرج من ذلك الصنــــدوق. وهـــو صندوق الصدق المطلق والحق الحقاني. وتهيأ لي أنهم لا يحصلون على إجـــازة الرجولة الملثمة إلا إذا دخل الصندوق وآياته محل عقولهم الإنسانيـــــة، وإن كان في ذلك الصندوق من المهارات والمؤهلات العلميـــة العالية ما جعلـــني أتعجب من ردة الذكاء وانقلاب العلم على نفسه عندهم، واستقالة عقولهم. فكأني بحكمتهم المقررة الأزليـــة تنكر عليهم نور عقلـــهم كلمـــا تجاوزهـــا وخالفها. فيعود سعيهـــم إلى الوراء وتستحيل عليـــهم الريـــادة إلى أبـــد الآبدين، إلا في طفرات محدودة يتغلب فيها العلم على الحكمة القديمـــة.

دفعتني حالتهم إلى أن أسأل واستخبر وأستفيد. فاقتربت من شاب لأفحص عن كتب خوذته واطلع على محتواها. إلاّ أن مرافقـــا مـــن الملثميـــن نهرني.

– ممنوع! ممنوع! ستطلع على ذلك، إن شئت عندما تكـــون في حضـرة الزعيـــم الأعلى.

– متـــى سيـــكون ذلك؟

– أنت محظوظ لأنك حللت بمدينتنا في موســـم الاتصـــال والحساب والموعظة.

– ما يعني ذلـــــك؟

– الكثيـــــرا الكثيـــــر. ولحن نحب هذه الفـــترة لأننـــا ننتظرها بفارغ صبر. وسترى ما أروعها وما أثراها! هيا لقد حـــان موعـــد الاتصال الكريم. إننا متلهفون إليـــه. وكلنا لا يريد أن يفرط ولو ثانيـــــة منـــه.

– بمـــن يكـــون الاتصـــال؟

– بالحريـــم، بأمهاتنا وأخواتنـــا وبناتنـــا وزوجاتنـــا.

– لقد لاحظت فعلا أنهن كن غائبات عنا. ولم أتجاســـر على السؤال عنهـــن فأيـــن كن؟

– في حيهـــن. إننا نستقبلهن كل ستـــــة أشـــهر نشفـــي وحشتنا منهـــن ونتمتـــع بجوارهن ونقضي مآربنا منهن ثم يعود كل فريـــق إلى دنياه ومسؤوليـــاته.

– ما الداعـــي إلى ذلك؟ وكـــم يدوم لقاؤكـــم؟

– لأن المسؤوليـــات موزعة عندنا حسب الجنس. وتـــدوم مسؤولياتنا المشتركة ثلاثة أيـــام ننفصل بعدها حتى الموعد الموالي ... مـــع السلامـــة الحريـــم قادم. الحريم قادم! هربت من مجتمع الحريم فوقعـــت في مثيل آخر له. وفجأة خرجت من كل فج وصوب أجسام رشيقـــة ملفوفـــة في لحاف من كل الألوان الزاهيـــة، وراجت في الفضـــاء روائـــح العطـــر

والمسك وتمافتت النساء على المساحات والبطاح التي تميــزت غبطة وفرحا بجموعهن. وساد الفضاء المحيط سرور عارم كانت تعـــبر عنـــه ابتســـامات الشباب والرجال، وتسربت موسيقى خافتة لطيفة كأنها نجوى.

وخيل إلى أن السعادة كانت تتجول ذلك اليـــوم في المدينـــة وتهلل وتغني فكدت أنسى ما حيّر نفسي منها وما كدرها من آراء أصحابها وسلوكهم الخفي.

لم تدم فرحتي لأني صدمت مرة أخرى صدمة ما بعدها صدمة لما اقتربت من الساحة لاسترق النظر، وأنا إنسان ضعيف غريب، إلى تلـــك السيدات الزائرات. فيا للعجب! لقد كانت وجوههن مخفيـــة وراء مرايـــا مستديرة تحجبها عن الناظرين من أزواجهم وغيرهم. شدهت وكدت أجن، وتيقنت أن هذه المفاجآت ستأتي لا ريب في ذلك على قلبي وعقلي، فاقتربت من ملثم كان وحيدا مثلي. فقلت له

– نحن وحيدان. ليس لنا قريبة ولا حبيبة. فما تعـــني هـــذه المرايا على وجوه النساء.

– حجابهن وسترتهن لعورتهن.

– حتى الوجه ... ولم المرايا دون غيرها؟

– لأنها تضمن العفة وتغني عن الفتنة. النظر أشد فتنـــة مـــن اللمس والجس.

– ألا تظن أن في هذا تعســـفا ســـيقضي علـــى حكمتكـــم القديمـــة؟

– بل تحمينا من التهور والتسيب والانحطاط.

– كيف يمكن لتلك النسوة أن يتنقلن وعلى وجوههن تلك المرايا؟

– المرآة خفيفة عازلة من الخارج، شفافة من الداخل تـــرى صاحبتها مقابلها من دون أن يراها.

– ألا تخشون عليهن الافتتان بمن يرين؟ فتستبد النساء بمتعة النظر على الأقل دون الرجال. وذلك ما يفضلهن عليكم ... بالمتعـــة.

– ذلك مستحيـــل عليهـــن!

– لـــم أفهـــــم!

– مقياس الفتنة والشهوة واللذة يمنعهن من ذلـــــك. وهـــو موجود في زاويـــة المرآة، وبه عداد من الليزر يقيس عواطف المـــــرأة نحـــو مقابلها. وهو مربوط بحاسوب مركزي يراقب كل خروج عن الحكمـــة.

– لله دركم! لقد برزتم في العفة حـــتى اســتبدت بعلمكـــم وباختراعاتكم ألم يحصل أن ضعفت إحداهن أو أحـــــد منكـــم، فظـــهرت عواطفها هي أو احتال هو على النظام؟

– حدثت حالات نسعى إلى تقليصها. فالإحصائيات الحاليـــة تفيد أنها لا تتجاوز 5ر000 في المائة.

– في هذه الحالة كيف يتزوج المرء عندكـــم؟

– بالاتفاق مع الشيوخ القائميـــن على سجلات الأحــــوال الشخصيـــة والمؤهليـــن لمنع الطلاق إطلاقا، وعلى تزوج كل من بلغ ســـن الزواج.

– الزواج، ألا يستوجب عاطفة الحب أوّلا؟ وهو ينشأ مـــــن معرفة شريك الحياة وتوافق المزاجين، وينمو بالدلال والغـــــرام والدعـــب، والهمس واللمس والشعر

– إن تجربتنا دليل على بطلان ذلك. لا توجد عندنا طــــالق ولا عانس ولا عزب.

– ومالك وحيدا؟

– ماتت زوجتي وأنا في انتظار زوجة من الشيـــوخ.

– زوجـــة أو زوجـــات؟

– الأمر مربـــوط بالعرض والطلب. يمكن أن تتزوج بعشـــر أو عشرين إن سمحت الظروف بذلك.

– فإن لم يوافق العرض الطلب؟

– نستوردهن من الخارج وندمجهن في مجتمعنا. العملة الصعبة لا تعوقنا

– هل تقبل الدخيـــلات العيـــش في نظـــامكم وصرامتـــه وانضباطه.

– وذلك سر بقائه.

– ليس عندكم حالات شاذة.

– موجودة مع الأسف في حي الزنادقة

– أمازال حي آخر لم أزره؟

– نعـــم وكذلك حي الزعيم الأعلى. لا بـــد أن تستـــوفي زيارتك وتشرع في التفكير في دخولك في صفوف أمتنا. قبل أن تعـــود إلى أهلك الأوليـــن حتى تبشر بخطاب صدقنا، ويصبـــح حظنـــا كبـــيرا مـــن مجتمعكـــم الذي خرج في رأينا عن الطريق المستقيـــم.

– كيف ذلك؟

– في جعابنا فنون وشجون من الصرامة والشدة والانضباط، تستهوي ما في نفس الإنسان من خضوع للسلطة والاتكال عليها والخـــوف من المسؤوليـــة والاعتقاد في الناصر المنقذ. فيكفينا ذلك لنقود المجتمعات إلى الحقيقة المطلقة التي تعتمد عليها رؤيتنا.

– وكيف تفسر ما طرأ على مجتمعكم من اضطراب متواصل، ومن فشل متتابع، ومن انعزال في هذه الأصقاع التي لم تسلم من الزنادقـــة؟ فمتى تنتصر الحقيقة المطلقة على الإنسانيـــة التي أغلبها ليس من حزبكـــم؟ فهل ستظلون تشيدون الحقيقة المطلقة بالأحلام والأوهام؟

– ستعلم علم اليقين، عندما تشهد الزنادقة أو الأيمة وتحظى بالاستماع إلى الزعيـــم الأعلى.

قادني صاحبي بل مراقبي إلى سور عال له أبـــواب ضخمـــة، كتب على كل واحد منها صنف زنادقتها أو علمائها. وفي السور منظارات

تيسر استطلاع أمورهم دون الاقتراب منهم ومن عدواهم. استعملت المنظار الأول فرأيت رجالا ونساء وأطفالا وشيوخا في غرف وثيرة، لباسهم أبيض، تشدهم سلاسل حمر، وكانت وجوههم مشرقة يانعة. سألت صاحبي:

– أظن أن هؤلاء ممن يقادون إلى الجنة بالسلاسل؟

– لا تغتر بما ترى. إنك لم تدرك الهول الذي يعيشون فيـــه. تعرف عليهم أولا.

– من أين أتيتم بهم؟ وكيــف؟

اخترناهم من مختلف عصورنا ومن مختلف الأجناس واستجلبنا الأساطين من ضروحهم حتى تكون العبرة كبيرة.

– وما الداعي إلى ذلك؟

– حتى يسترجعوا مواصفات وسلوك رجل مدينة الذكـــرى، مدينتنا القديمة التي كنا نعيش فيها حيـــاة البســـاطة والنقـــاوة والطـــهارة. فالمدينـــة تكون قديمـــة أولا تكون.

– مدينتكم هذه نقيض لها.. وهل تعتبر مدينة الطهارة المطلقة ممكنة أم هي مجرد وهم تتأثمون بها تعويضا عن عجزكم وخوفكم من الدنيـــا وتطوراتها؟

– مدينتنا هذه وسيلة ومرحلة نماري بهـــا خصومنـــا، حـــتى نستولي على الدنيا ونبلغ مرادنا، ثم سنفجرها لنعـــود إلى مدينتنـــا القديمـــة بخيامها ونخيلها وصحرائها.

– وستعزلون عن الدنيا. وذلك أمر مستحيل كما تعلم لأن المجتمعات القديمة لن تعود إلى أبد الآبديـــن.

– انظر إلى ما عسى أن يصيبك إن اتعظت بمـــن تراهـــم في المنظار.

نظرت من جديد في منظار أصحاب الشعر. فرأيت شعـــراء كثيرين مشهوريـــن من العالم كله وفي مقدمتهم شعراء عرب من القدامـــى

والمحدثين. فتذكرت صورا من الزوابع والتوابع لابن شهيد، ورسالة الغفران للمعري والكوميديا الإلهيـــة لدانتي. فسألت

– لمن الغرف الفارغة الباقيـــة؟

– للمجانين اللاحقين من الشعراء مثل ق. ش.ع ؛ و م. ق. ن وش. س. ر ؛ و أ. ش. ت؛ و ر.ل.ف ؛ وج.م.د؛ وم.ص.هـــ. الخ.

– أو تعتبر قول الشعر مجونا؟ وما رأيك في الغنـــاء والفـــرح والمرح؟

– كاد بعضهم أن يبلغ الفسق!

– ما رأيك في الشعراء الذين تابوا بعد أن مدحـــوا الملـــوك والأمراء وعبدة الأوثان، وأدخلوا في العربيـــة وشعرها كثيرا مـــن كـــلام العجم.

– أنا قلت لك أن الشعر هراء ومجون لأن جله كاذب.

– وأعذب الشعر أكذبه فضلا عن أن العرب لن تترك الشعر إلا إذا مات الحنين في الإبل.

– الإبل التاريخيـــة انقرضت، ومات معها الحنين.

– وكتاب الأغاني لأبي الفرج الإصفهاني، ومفضليات الضبي، وحماسة أبي تمام، ونفح الطيب للمقري، والذخيرة في محاسن أهـــل الجزيـــرة لابن بسام؟ فما عسى أن يبقى لنا من تراثنا إن أنكرنا شعرنا؟

– كتب تراثنا تحتاج إلى تنظيف وصقل. فإن كـــان تلوثـــها معضلا حرقناها. اقترب من المنظار الرابع لأن برنـــامج زيـــارتك مكثـــف والوقت قليل.

كان منظارنا الرابع مخصصا للمفكرين من جميع الأصقاع ومن كل الأمم والنحل. فركزت على العرب والمسلمين منهم. فظهر لي نجدة بن عامر وأبو عثمان الجاحظ، وبقربهما عبد الله بن سبأ، وأبو حنيفة الفقيـــه الكبير، وعائشة بنت طلحة، ومحمد عبده وطه حسين، والطـــاهر الحـــداد. وشبان كثيرون. فبادرني صاحبي بالكلام.

– سلني فأنا مجيبك عما ترى. إن نجدة بن عامر مثلا يحصـــر العقيدة في معرفة الله ورسوله، ويعذر الناس في غير ذلك إلى أن تقوم عليهم الحجة. فهو يرى أن من اجتهد واستحل الحرام أو حرم الحـــلال معـــذور. ويرى أن الزنا وشرب الخمر أهون من الكذب.

– وما ذنبه في هذا؟

– خطر علينا وعلى شباب اليوم الذي يميل إلى أفكاره.

– وما يفعل عبد الله بن سبأ عندكم؟

– أمثاله كثيرون عندنا من القدماء والمحدثين، لأنـــه يقـــول بالرجعة. فلقد قال " العجب ممن يصدق أن عيسى يرجع ويكذب أن محمدا يرجع ". وقال لما قتل علي "لو أتيتمونا بدماغه ألف مرة ما صدقنا موته ولا يموت حتى ... يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا ".

– هذه حقيقة قد تجاوزت حقيقتكم المطلقة. ونافس خطاب صدقه خطابكم. فمن أنتم في الحقيقة؟

– نحن أهل حكمة نستقرئها من كل الأمم والنحل قديمـــها وحديثها. ولقد أتينا بك إلى قسمنا العربي لقربه منك ذهنا وحضارة

– يبدو لي أنكم كل شيء ولاشيء. فانتم كالثعبان يتلـــوى ويتملص حسب الرياح ويتآلف مع كل شيء ويعاكس كل شيء

– أرجوك يا سيدا لا تخرج عن اللياقة والأدب فلو لم تكـــن ضيف زعيمنا لــــ ...

– العفو! العفو! أنا آسف على ما حصل. لكن ما الداعـــي لوجود الجاحظ هنا؟

– ماكر خبيث، ناقد لاذع يدس سموم معلميه من المعتزلة في الملح والضحك، بعد أن بلبل زعيمهم عمرو بن عبيد العقول وشكـــك في كل شيء باسم العقل طعن في أبي هريرة وخون عمرو بن العاص، ومعاويـــة بن سفيان وادعى أن ابن عباس قد استولى على الفيء بعد أن ولاه علي بن أبي طالب على البصرة.

– لكن عمر منع ابن عباس من الولاية خوفا من ذلك. فلقد قال له "كدت استعملك لكني أخشى أن تستحل الفيء علـــى التــأويل ". وذلك ما فعل.

– أنت وأمثالك من أصحاب المشاكسة تأخذون من ضعف بعض البشر حجة لهدم أسس الحكمة وحقيقتها الأزلية.

– لكن الحكمة تقاس بأعمال البشر ويقاس البشر، بمقدرتهم على استيعابها وعلى ذلك يجازون. فما الدّاعي الى وجود أبي حنيفة هنا؟

– للاستشارة فقط وللتأويل والتخريج، لأنه فتح فيه مسلكا واسعا للناس يخشى منه الضلال اليوم.

– أني أعجب من ذلك!

– لقد جوز العقد بين البيعين وان كـــان الحديـــث يقـــول "البيعان بالخيار ما لم يفترقا".

– لقد أقر المبدأ واتخذ منه موقفا تطبيقيا لمّا تساءل "أرأيت إن كانا في سفينة؟ أرأيت إن كانا في سجن؟ أرأيت إن كانا في سفر؟ "ولذلـــك أفتى "إذا وجب البيع فلا خيار ".

– أنت لسانك طويل وعلمك غريب يخشى منـــك علينـــا. ولذلك أتينا بك هنا لنمرنك على منهجنا السائر الصحيح القويم.

– أنا مستعد للوصول، إليه بعد أن كنــت طرحـــت كـــل أسئلتي.

– أنت ضيفنا ولك الحق في السؤال والتساؤل مدّة عشـــرة أيام،حتى نضع لك خطة تهديك إلى الصواب.

– كأني بكم شبه الحنابلة المتشددة الذين قـــال فيـــهم أبـــو الفداء: " قد عظم أمر الحنابلة على الناس وصاروا يكبســـون دور القـــواد والعامة. فإن وجدوا نبيذا أراقوه، وإن وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلـــة الغناء، واعترضوا في البيع والشراء وفي مشي الرجال مع الصبيان."

– لله درهم لقد كانوا على حق في كثير من الأحـــوال، وإن كنّا لسنا منهم.

– وما يفعل الشيخان الجليلان ابن تيمية ومحمد عبده؟

– هما عندنا مكرمان لفترة قصيرة لنطرح عليهما ســـؤالين.

فمن الأول نريد أن يوضح لنا رؤيته: "إن الله ينصر الدولة العادلة ولو كانت كافرة ... ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة. " أما الثاني فإننا نريــد أن نعلم منه كيف جوز الزواج بواحدة.

– الأمر يتعلق إذا بمجرد سؤالين!

– زعيمنا الأعلى في حاجـــة إلى ذلـــك ليســـتوفي مبـــادئ ومقاييس مدينة الذكرى في عصورنا الحديثة.

– ما يفعل إن أبى أحدهما أن يجيـــب وأن يخـــالف مقـــاييس مدينتكم وأخلاقكم

– تؤخذ الإجراءات اللازمة في هذا الشأن مع كل مفكر لا يؤيد رأي زعيمنا؟

– أن يفعل معه ما فعل مثلا المتوكل بيعقوب ابن الســـكيت وذلك "أنه أمره أن يشتم رجلا من قريش وأن ينال منه فلم يفعـــل. فـــأمر القرشي أن ينال منه فنال منه، فأجابه يعقوب. فلما أن أجابه قال له المتوكل: أمرتك أن تفعل فلم تفعل. فلما أن شتمك فعلت. فأمر به فضرب فحمـــل من عنده صريعا مقتولا. ووجه المتوكل من الغد إلى ابن يعقوب عشرة آلاف درهم ديته " فهل سيقاس على هذا الخليفة أو يؤخذ برأي ابن تيمية؟

– زعيمنا الأعلى سيفيدك بالجواب عندما تحظى بالاســـتماع إليه في آخر جولتك. ألم تشبع من السؤال والتساؤل؟

– تعني أن حصتي منهما كادت تنفد؟ أسئلتي كثيرة

– لم يبق لك إلا سؤالان؟

– ما تفعل تلك المرأة الفاتنة عندكم، وليس علـــى وجهـــها مرآة، أعني عائشة بنت طلحة.

– ندرس أمرها لأنها تمثل النساء اللواتي استعملن جاههن للدعوة إلى العصيان.

– إن نساء العصر كثيرا ما تحتججن بها لتجاوز حقوقهن؟

– وما فعلت عائشة؟ وما هو ذنبها؟

– أنت ماكر توهم أنك تجهل عنها كل شيء. ألم تقرأ ما رواه عنها صاحب الأغاني قال "إن الحارث بن خالد المخزومي ولاه عبد الملك بن مروان مكة. وكان الحارث يهوى عائشة بنت طلحة. فأرسلت إليه: أخّر الصلاة حتى أفرغ من طوافي. فأمر المؤذنين، فأخروا الصلاة حتى فرغت من طوافها. وأنكر أهل الموسم ذلك من فعله وأعظموه فعزله."

– ولم يعاقبهما أمير المؤمنين عقابا شديدا! ما أجمل العفو عندما يغفر للحب!

– هذه مواضيع تتجاوز عقلك. الإباحية تبدو ميزة من مميزاتك

– وما العيب أن يكون للجمال مكانة عند الناس. الله جميل يحب الجمال ... إن الدنيا كلها جمال من خلقه، قد استهوى أبا هريرة الذي قال لما رآها "سبحان الله لكأنما خرجت من الجنة! "

– رواياتك كلها تحتاج إلى نظر وسنجيبك عنها في الإبان وبالتفصيل

– سؤالي الأخير: ما سر وجود طه حسين المصري عندكم، والطاهر الحداد التونسي، وخالد العظم اللبناني. وكاتب ياسين الجزائري؟

– لنا معهم و أمثالهم من الأمم الأخرى حساب، لأنهم ملأوا دنياهم بضجيجهم ورواياتهم، وقصصهم ومسرحهم وشعرهم وآرائهم المستوردة، وتأويلاتهم الغريبة وتنكروا للحكمة القديمة وشككوا في مصيرنا، ونادوا بالحرية والعدل والمساواة وتقويض العصمة، وتعويض الإمامة وحكم

أهل الحل والعقد. إنهم دعاة دنيا عجيبة غريبة عنّا، عقليتـــها مبنيـــة علـــى الفوضى والتشرذم، والإباحية والفسق والعصيان .

– لكنهم كانوا مخلصين في دعوتهم من أجل مناعة أمتهم التي أرادوها متسامحة مفتوحة مواكبة للتاريخ

– تبّا للتاريخ وخرافاته ... نحن نقول بالدهر!

– القضية قضية مصطلح. فما هو تـــاريخ عنـــدي ، دهـــر عندكم. إن مدينة الذكرى التي تدعون إليها لن تخرج من التاريخ ولا مـــن الدهر.

ولو طار جبريل بقية عمره   من الدهر ماسطاع الخروج من الدهر.

والدهر مجموع التواريخ السابقة والحاضرة والقادمة.

وما كدت انتهي من هذه الكلمات، حتى أقبل علي عشـــرة من الملثمين ونشلوني بعنف من الأرض وطاروا بي إلى عنان السماء، واستلّوا خناجر من جنبهم صوبوها نحوي. فأدركت أني أتيت كبيرة لا تغتفر، وأيقنت أن ساعتي قد هبت. فسلمت أمري لله مستغفرا ذنوبي، وتلوت الشـــهادتين حتى أموت مسلما، وأغمضت عيني منتظرا مصيري من أســـئلتي وتـــأولاتي الحمقاء. فهل الذنب ذنبي؟ أو أن الأمر يعود إلى مجرد سوء تفاهم؟ أحسست بجسمي يتنزل كأن مظلة تحميه من جاذبية الأرض، ووقعت بهدوء في حديقة غناء كأنها جنة عدن فيها من الغلمان والحور العين ما لم يخطر لي على بال في حياتي. فاستقبلوني مهللين:

– مرحبا بالضيف الكريم في مدينة الإمام العظيم

– لكن أين الملثمون؟ وأين المدينة وخيامها؟

– انتهت مهمتهم مؤقتا ريثما يستقبلك الإمام

– متى وكيف، ولماذا؟

قرب مني شابان وشابتان لم أر في الحسن مثيلا لهم وقـــالوا بصوت واحد

– الإمام واحد أوحد، لا يساويه أحد، معصوم تأتيه الإمامة بالوصية لا يراه أحد , يسمع صوته، وتدرك آياته، وتنفذ أوامـــره. ينطـــق بالحق المطلق ... يدعوك وغيرك إلى تبليغ رسالته من دون تردد ولا تفكـــير ولا تدبير، ولا سؤال ولا تخمين، ولا استشارة ولا تعليـــل، ولا تفســير ولا تعريف ولا قياس ولا رأي و ... و ... و ...

فصرخت في وجوههم

– ولا إنسان، ولا حياة، ولا تطور ولا تقدم، ولا حضارة ولا ثقافة ولا حقوق لأنه كتب علينا أن نظل رهينة خطاب الصـــدق المســطور يتصرف فينا وفي الإمامة، والخلافة، والزعامة حتى لا تقوم لنا قائمة و ... و ... و ...

فما استطعت أن أكمل وأوأتي ... وأنا من محبي الوأوأة حتى شعرت بزلزال تحت قدمي، وسمعت صرخة عاليـــة طويلة تقول:

– لقد أتانا بآيات الشؤم ... انسحبوا من حوله، عودوا إلى مراكزكم ادخلوا الأرض. أخفوا مدينة الإمام ياغلمان وياجواري. اتركـــوا الساحة للملثمين. مدينتنا في خطر. الإمام يدعوكم إلى تطبيق الأوامر. سنهتم بهذا الملعون بعد أن تمر العاصفة ونقضي على الهجوم.

وجدت نفسي في ساحة عادية والملثمـــون يمـــلأون أرضـــها وسماءها وصيحات أبواق الخطر تفلق الآذان. ورأيت ملثمين صفا صفا، وفي أيديهم أسلحة مختلفة الأنواع والأشكال، ولاحظت أن أجســـامهم كـــانت ترتعش. وكانوا ينظرون إلى الأفق كأنهم ينتظرون خطبا جللا. وكان صراخ الأبواق المتزايد ينذر بذلك. وما هي إلا بضع دقائق حتى شرعت الرشاشات والمدافع تدوي وتدوّي والتهبت المدينة وسماؤها نارا. وسمعت قائد الملثميـــن ينادي.

– إنهن يقتربن متخفيات ... أكثروا من اللهب حتى يخرجـــن من الضباب الكيميائي الذي يحميهن. لا تـــتركوهن يـــترلن إلى الأرض وإلا ألحقن بنا الدمار.

فمن كان يعني؟ سؤال طرحته وأنا متستّر بنخلة عظيمة سخرها الله لحمايتي. وغاب عني كل شيء لأن النار واللهب كادا أن يأتيا على الأخضر واليابس ... خسارة!! المدينة جميلة وحلوة وطريفة! حولت نظري إلى الشمال فرأيت سحابا كثيفا يتحرك ممتدا من السماء إلى الأرض يتقدم كالجدار، لا يرده اللهب ولا النار. فبقدر ما كان يقترب مني كانت صفوف الملثمين تتقهقر حتى أدركها ولفها كأنه ابتلعها، وإن كنت من حين لآخر أرى أجساما نورانية بيضاء تسقط منه كلما خرقته النار وأثرت فيه.

وبلغني ذلك السحاب بدوري وغشاني. فأصبحت أسبح فيه وأحسست أن الحياة تدب فيه بحركية دافعة وسمعت صوتا نسائيا.

– نعلم مركز القيادة أننا استولينا على المدينة، وعلى جميع مراكز المقاومة. فما هي الأوامر الجديدة؟

ورد صوت نسائي آخر.

– تحرير الأطفال والنساء وتخليصهم من الخوذة والمرايا، وعودة النساء إلى أزواجهن وأقارهن وأطفالهن، بعد تجريد الرجال من اللثام والسعي إلى القبض على زعيمهم وإمامهم المزعوم. ولتعد المدينة إلى سابق عهدها وتطورها وإلى التاريخ. ملاحظة أخيرة: عجلوا بسراح المفكرين والأدباء، والفلاسفة والفقهاء والعلماء ليعودوا إلى مثواهم أو إلى الحياة مطمئنين.. وليقبل علينا ذلك الضيف الموجود عند الملثمين. إن لنا به حاجة ماسة.

وانقشع الضباب ورأيت عشرات بل مئات من النساء في ملابس ضاغطة بيضاء، يحميهن غلاف غازي يتمطط حسب حركتهن ونشاطهن وتقدمت كبيرهن مبتسمة.

– مرحبا بك يا سيدي ... أنت مدعو إلى مرافقتنا إلى مدينة المريخ. كلنا في أنظارك.

– مدينة المريخ! يا لطيف! يا حفيظ وما عساني أفعل فيها؟ أنا أريد أن أعود إلى بلدي وقريتي مهما كانت أهوالها وأغوالها ... لقد أنهكني

السفر والمفاجآت والغربة، والحكم والنظريات والنزاعات، والحسنات والسيئات. أنا أريد أن أعود إلى ... وإلى ... وإلى ... بحاري وذكراي ومريخي فيها همومي الواقعية ومسرتي ودنياي وإخوتي

– الأوامر لا تعصى يا سيدي ... هيا معنا.

وبسرعة ألبست كسوة بيضاء مثلهن، ورشتني إحداهن بغاز أحاط بي فأصبحت خفيفا كالريشة، وطار بي سحاب إلى مدينة المريخ، وإن ظلت في نفسي حسرة على مدينة الذكرى التي كنت أتوق إلى المكوث بها مدة أطول، لأني كنت متيقنا أن إمامها كان يفيدني بحقائق كثيرة عن الحكمة المطلقة ، وعن استبداده بعقول الناس وقلوبهم. لقد أفسدت علي هذه النسوة مقابلة تاريخية دهرية، كان من الممكن أن أغنم منها الكثير. فلعلي أجد لها أثرا في مدينة المريخ ".

وهنا سكت شارب النهر عن الكلام، ودعا حياة إلى أن تدلو بدلوها في قصص الليل ورواياته. فاستعدت وقامت، وقالت من دون أن تنتظر ملاحظة بودودة في شأن احترام الوقت والحرص على الإمتاع والمؤانسة ... فاللبيب بالإشارة يفهم!!.

مدينـــة المريـــخ

خلق الإنســان فــي أنبـــوب

قالت حياة قال صاحبنا: "إن الغاز المحيط بي كان يدفعني بقوة إلى الأمام كأنه يجنحني، وشعرت بأني أصبحت طائرا خفيف الوزن. فكنت أتصرف في الفضاء أحسن بكثير من سعيي فوق الأرض. إلا أني كنت مسيّرا إلى اتجاه معين، كأن مغناطيسا كان يجذبني بشدة إلى مركز لا أستطيع الإفلات منه. حركاتي لم تكن مطلقة، وإن كنت وجدت متعة قصوى في حالتي الجديدة لأني أقلعت من الأرض، أو اقتلعت منها وأصبحت إنسانا طائرا مثل النسوة اللواتي كن يحطن بي من كل مكان. وتذكرت عباس بن الفرناس ... فلو كان معنا لرأى رؤيته تتحقق. فلقد وجدت الطائرة والصواريخ، ونشأ الإنسان الطائر والمرأة الطائرة وأتى أصحاب مدينة الذكرى بالعجب العجاب ... الخيال العربي يمكن أن يؤول إلى حقيقة ملموسة، لو تركه خطاب الصدق يتجنح ويطير.. لو أعفاه من النظر في إن كان التصوير الشمسي حلالا أو حراما ... وغير ذلك من الترهات ... و ... و ... و ...

كنت أنظر إلى الأرض والبشر من عليين، دون أن يصيبني خوف من السقوط. فكنت أتصرف في حالي كما أشاء: أصعد إلى عنان السماء وأشق السحب والرعود حتى أكاد أبلغ العرش، وأجوب السماوات وأنزل حتى أحف بالجبال والأشجار والأنهار والبحار وناطحات السحاب من دون أن أحيد عن المركز الجذاب. فلقد أصبحت مثل البراق بل البراق نفسه، بل إنسانا طائرا عربيا أقوى وأحسن وأجمل من فنتوماكس، وسبرمان وباتمان ... الخ. فلقد أصبحت عرباكس وعربان. وأحسست أني ربطت صلة الرحم بعلاء الدين صاحب السراج المنير، وببساط الريح البغدادي الطائر. وتيقنت أن الفرصة فلتت من أيدينا ... وإلا كنا أول الطيارين في تاريخ الإنسانية. لكن لم الحسرة والتحسر؟ فالتاريخ أمامنا بل الدهر كله كما يقول أصحابنا من مدينة الذكرى ... لا بد من طول النفس، ومن واسع الصبر وتفتح الذهن!!

استبدت بي النشوة حتى نسيت مصيري، لأني أحسست أني تخلصت من الشك والتردد والقلق والحيرة ... و ... و ... و ... وشعرت بطمأنينة جارفة تملأ جوارحي وفؤادي، وتدعم جسمي وعضلاتي بقوة مادية تسربت إلى روحي وعقلي. فخيل إلي أني بلغت منزلة الإنسان المثلى. وكدت أنسى الماضي، وتساءلت عما آلت إليه نفسي. فهل أصابني الغاز بعطره الجديد؟ وهل هو الغرور الذي نشأ من تحليقي في الفضاء فوق البلاد والعباد، ومآسيهم وسعيهم إلى المال والخصام والدمار ، وفتنهم المضحكة وآرائهم الداعية إلى الحقائق المطلقة التي لم يخلقوا لها ، بل تصوروها أزلية دائمة وهل خرجت من مناطق الإنسانية ودخلت عالما آخر أصبحت لي فيه منزلة جديدة عساني أدركها عما قريب؟

المشكلة في كل هذا هو أني لاحظت أن كياني الفضائي يختلف عن كياني الأرضي. فكأن خلاصي من الجاذبية الأرضية قد خلصني من وجودي القديم ... مع السلامة! بلا عودة ولا رجعة، ولا داعي إلى الشباب لأحدثه بما فعل المشيب! انغمست في هذه الأفكار ؛ لكن سرعان ما جذبت جذبا كأن هوة عميقة تبتلعني ... فلعلها الهوة السوداء لأني سقت إليها سوقا ثم تباطأت حركتي بغتة، ووجدتني أقترب من مركبة فضائية قائمة لامعة كأنها النجم، مساحتها تعادل مساحة قريتي ... فلقد جئت من الثرى إلى الثريا، وانعدم المثل السائر. ولقد بدا لي أن عالمنا الجديد وما فيه من غرائب وعجائب، يستوجب منا إن نعيد النظر في أمثالنا السائرة وحكمنا القائمة و ... و ... و ...

وعند ذاك أحاطت بي النساء الطائرات اللواتي كن بالمرصاد مني ومن مسيرتي طوال سفرنا الفضائي، واستوين صفوفا صفوفا كنت الذكر الوحيد فيها. فتهيأ لي أني قد حققت أحلام شبابي لأني كنت أود أن أطير، وإن كان برجي برج السمك العوام السابح الذي لا يطير إلا قليلا. فلقد كنت أسبح في الفضاء وفي الدنيا كلها ، بدون حواجز ولا حدود ولا حلال ولا حرام، يأتيني كل ما أحب وما اشتهي من كل صوب. وبعبارة أخرى

كنت أشعر أني على أبواب الجنة التي وعد الله بها المؤمنين الصادقين الصابرين القانتين من أمثالي ممن حرموا من كل شيء، ولا سيما من أمي التي توفيت وتركتني في العاشرة من عمري ... مأساة إنسانية لا أدركها إلا أنا، لولا تلك الألوف المؤلفة من الجواري الحسان اللواتي تدفقن نحوي من كل مكان. فكان جمال الواحدة منهن ينسيني جمال سابقتها، وأنا البعل الوحيد بينهن ... افرح يا أستاذنا يا ابن بني يعرب الميامين ... وطوف نظرك كما تشاء، وخذ من تشاء من دون حجاب ولا رقيب. إنهن كلهن ملك يمينك يرجون رضاك ببسماتهن ورشاقتهن وأنوثتهن ... فياله من حظ! ويا لها من سعادة! فمن أنت بربك؟ ومن أين أتاك هذا الحظ؟ وإن سألتم الله فاسألوه البخت! لقد تجاوزت أباك وأخاك، وهارون الرشيد، والمأمون والأمين وأصبحت سيد الآلاف من النساء، وصاحب حريم، حريم كثير لا يمكن أن يجمع لغة ولا يحصى عددا.

المهم أن هذا الحريم حلال. ولا يمكن لدعاة الزوجة الواحدة أن يؤاخذوني على حقي الطبيعي هذا ، بدعوى أني حلّلت لنفسي ما كنت آخذت أبي وأخي عليه. فأنا هنا لست عربيا يحلل لنفسه ما يحرم على غيره. ولست خارجا عن الشريعة لأن ظروفي الآن فريدة من نوعها. فلقد خرجت من الأرض ومن مناطق البشرية العامة وأنا على أبواب الجنة إن صدق رأيي، يخول لي فيها ما أشاء: آلاف الجواري، والفواكه والسيارات واللؤلؤ والمرجان، والرقة والرقص والنعيم والغناء والخمور بأنواعها، أعني بها خمور الجنة والماء الزلال المحرم في مدينة الذكرى السابقة الذكر، دون الحاجة إلى العمل والأولاد، والأمراض المعضلة، عافانا الله وعافاكم منها مثل السرطان والسيدا. فشرعت، وأنا في طريقي إلى المركبة الفضائية في تنظيم حياتي الجديدة وما وراءها من شهوات وملذات، لأن الموت في هذه الحال الجديدة قد انتهى أمره وقرطس ومات إلى أبد الآبدين. فهل أصبحت من أهل الخلود؟ أرجو ألا أكون مخطئا آثما؟ استغفر الله من الغرور والخطأ والهذيان! كان حدسي يوحي إلي أني بالغ السعادة الكبرى التي لم يبلغها بشر عادي

قبلي ... ولا عربي مشرقي ولا مغربي ... فيا ليت بني بلدتي رأوني في هـــذا المقام الذي لن يدركه أحد منهم طيلة الدهر، وإن كان يتمناه ليل نهار بـــين هذه الحسناوات العزبات على ما أظن المجننات، لأني أعتقد أن أمنيـــة كـــل إنسان أن يفوز بآلاف النساء لوحده بعيدا عن العيون، لا يحيط به حلال ولا حرام، ولا تزعج صفوة ملذاته وشهواته قضايا العمل، والجهد والجهاد والعفة والحلال مثل أولائك المجانين من اليابانيين والألمان وغيرهم، ممن يتفـــانون في العمل والإتقان والإبداع والجمال ثم ينتحرون في آخر المطاف. مجانين والله!

المهم الشّيخة! الشيخـــة لا يعرفونها! والكلمة ليست من عربيـــة تونس بل عربيـــة مطردة استعملها أهل الظرف والطرب من أجدادنا العرب ألم يغـــن القريض في مجلس جميلـــة؟

فـــــوا ندمـــي علـــــى الشبـــــاب

ندمـــــت وبـــان الـــيوم منـــي بغيـــر ذم

وإذا إخوتي حولي وأنا شائـــــــخ

وإذ لا أجيـــب العاذلات من الصّهـــم

أرادت عرارا بالهوان ومن يرد

عرارا بالهوان فقد ظلم

تعلقت بمن كن حولي من النساء ومدينتهن الجديدة. وجالت كل هذه الأفكار والأوهام بذهني وأنا منقاد نحو المركبة الفضائيـــة الراسية. فكلما اقتربت منها بهرتني عظمتها وأبهتها وآلاتها التي برقت ألوانها في السماء الزرقاء، ولم يكن فيها أثر للسحاب ولا للرياح ولا للعواصـــــف والغبـــار. فكانت الشمس المشرقة والنور الدائم والهدوء السرمدي. أدهشتني تلـــــك المركبة وحيّرني بابها، لأني عجزت عن إدراك طوله وعرضـــــه وسماكتـــه ... مستحيل!! لأنه لا يخضع لمقاييس الدنيا المعروفة. فكأنه يتمطط كلما نظرت إليه. أما أرض المركبة فلقد بدت لي من المطاط الصلب الكاسي لشـــــوارع مدينتها، وقد تعذّر علي أن أحيط بمساكنها وعماراتها وأشكالها، لأنها كانت مثل السراب.

– ما رأيك في مدينتنا؟ هل أعجبتك؟

وفجأة استيقظت من نشوتي وهيامي، وعاد إلي الشك والقلق لأني وجدت نفسي أمشي على قدمي بدون غاز يحيط بي. فـأجبت النسـاء الخمس من مرافقاتي.

– نعم جميلة بديعة يستحيل الإحاطـة بهـا!

فقالـت لي أولاهـن.

– لأنك مازلت تنظر إليها بمقاييس الأرض. وسـتحيط بهـا وبغيرها من الأشياء عندما تألف مقاييسنا. انظر إلى أرضك. ما أبعدنا عنها! وإن كنا نستطيـع أن نبلغها في حين

– الأرض! أيـن الأرض؟

فقالت لـي ثانيـة.

– وأمامك القمر والنجوم والشمس، والكواكب الأخـرى. كل الكون أمامك. ولقد أصبحت على مسافات تدركها مركبتنا في رمشـة عيـن.

– أريـد أن أعـود إلى الأرض وإلى البشـر، وإلى حلالنـا وحرامنا. فشكرا على ضيافتكن ... وسأذيع فـي الدنيـا كلهـا ... عفـوا فـي الأرض كلهـا مالكـن مـن مهارة ومعرفة وكفـاءة، أرجو أن نستفيد منها.

فقالت ثالثـة

– يعز علينا أن ترضى بهذه الرحلة القصيرة. فلقد أعددنا لك برنامجا خاصا علما منا أنك تبحث عن المدينة الفضلى ... فلعلك سـتختار مدينتنا مثالا لبني عشيرتك.

– لم يكن لي برنامج ولا اختيار بل تفضلتن باستجلابي راضيا مرضيا بالطبع من مدينة الملثمين إلى مدينة الحريـم.

فردت علي رئيستهن بحدة.

– لا تستعمل من فضلك هذه الكلمة المنبوذة المتهرئة. أنـــت بين أهل المريخ وكفى!

– يا حفيظ! يا لطيف! المريخ! أنا وصلت إلى المريخ وقطعت مليارات الكيلومرات، ومازلت كهلا حيا أرزق. إن عمري كله لا يكفيـــني لأقطع ربع مسافة الذهاب إلى المريخ ... فكيف ستكون العودة؟

– هدئ روعك. نحن مازلنا في الفضاء الأرضي. ورحلتنا إلى المريخ لم تقرر. لكن مركبتنا هذه جزء مكتمل من مجتمعنا المريخي. ندعوك إلى معرفة أرضنا ومدينتنا لعلك تؤمن بنموذج حياتنا.

فحدثت نفسي خائفا.

– وكتب علي مرة أخرى أن استمع إلى خطـــاب صـــدق جديد! وخطاب صدق نسائي!!

– ما قلت؟ أي خدمة يا حضرة الإنســـان.

– الإنســـان! الإنســـان! لم لا يا سيدي، يا رجل ؟ وأنـــا لا أحتاج لشيء يا حضرات الإناث.

– من فضلك! بل حضرات المريخات والواحدة منا مريخـــة.

– مالكن تستأن من دعوتكن بالإناث؟

– لأن مجتمعك يفصل بين الذكـــر والأنثـــى في الحقـــوق والواجبات، وحتى في النحو والصرف. مجتمعكم مبني من أعلاه إلى أســـفله على التمييز، والإقصاء والتعظيم والتحقير. هنا ليس لذكورتك شأن.

فاستغربت ونظرت إلى جسدي كله لأقتنع أني مازلت ذكرا. استمعت إلى صوت آمر يدعوا لمريخات.

– ليهتم فريقنا الثقافي بضيفنا الكريم ويعرفه بمدينتنا الطـــائرة وخصائصها ومراحل سفرنا إلى المريخ.

فنطقت المهندسة المعماريـــة

– مدينتنا لا تستقر على شكل هندسي معيـــن. فهي تتغـــير آليـــا بحسب ما يحيط بها من البيئات، وما يطـــرأ عليـــها مـــن العوامـــل

الطبيعـــة. فيمكن أن تكون مقببـــة في مناطق الحرارة، وتصبح مقرمدة في المناطق الثلجيـــة، وتتفتح شراعات في مناطق الرياح الهوجاء.

– وكيف يكون ذلك؟ وما هي سرعتها؟

– آلاتنا روبوتيـــة تقوم بجميع العمليـــات المبرمجة لكل حالة وفي الحين

– وما هي أقسام المدينة، لأني أراها متداخلة تغلـــب عليـــها ناطحات السحاب؟

– بل لكل قسم منها نمط في شكل حروف الألفباء. فالقسم الأول الذي في شكل الألف الناطح للسحاب يشمل إداراتنـــا ووزاراتنـــا. والقسم الذي يحاذيه غربا وفي شكل التاء التي تكاد تكون فاء، فهو مخصص للثقافة والفنون. أما ذلك الحي الجيمي ففيه الجامعات والكليـــات ومعـــاهد التأليف والبحوث الرائدة. في الأحياء الصوامع الصاعدة إلى عنان الفضـــاء، مراكزنا الدفاعيـــة. وتليها مراكز حرف الصاد، وهي مخصصة للعنايـــــة بصحتنا ورعايـــة أجيالنا والمحافظـــة على جنسنا المريخي الذي هـــو جنـــس نسائي بحت أنت الرجل الوحيد فيـــه.

– غريب! كيف لا يوجد بينكن رجال؟

– لا البتـــة! وما الداعي إلى وجودهـــم؟

– ألا تحتجن إلى أطفال من بنات وصبيـــان؟

– وهل يستوجب ذلك وجود الرجال بالضرورة.

– عجبا وكيف يولد أولادكن وبناتكن؟

– نجيبك عن البنات. أما الصبيان فلا حاجة لنا بهم؟

– هل نطف رجالكن من النوع الذي لا ينجب إلا البنات؟ مالي لا أرى أثرا لبعولكن؟ فأنا لا أتصور جميلات عفيفات مثلكـــن بـــدون بعولهن؟ فهل انقلبت الآيـــة عندكن فكلّفتّهم بشؤون منازلكن؟ أو أنهم في إجازة دائمـــة يعيشون من عرق جبينكن؟

– لا وجود للرجال في دنيانا بتاتا. ونحن نكره مخاطبتنا بنون النسوة، وإن كنا لا نرى مانعا من أن تستعملها مؤقتا حتى تتخلى عنها رويدا رويدا في نهاية زيارتك لمدينتنا. فأنت الرجل الوحيد عندنا، أتينا بك إلى هنا لتبلغ رسالتنا إلى مجتمعك النامي عند عودتك له رسولا عنّا.

– وما هو خطاب الصدق الذي ستزودنني به؟

– ستدركه عما قريب. إننا سندخل المدينة المركبة لتراها من الداخل وهي جزء من مريخنا الكبير.

استقبلتني موسيقى ابتدأت خافتة خفيفة، لطيفة منعشة ثم تعالت وانتشرت في الفضاء تغمر محيطنا وتهدهده، ثم تنفجر في كل مكان وتحيط طياتها بالمدينة التي ظهرت عماراتها ومبانيها تتمارى في بدائعها وبدعها، تحيط بها البساتين والأجنة بطيورها وزهورها. فلم تر عيني أحسن منها من قبل. فتاه نظري واحتار عقلي. وعاد انشراح صدري الصبياني الذي فقدته منذ زمان. فلقد أحببت كل شيء وسررت بكل شيء، وتمنيت أن أحيط بكل شيء وأن أغني وأرقص وأقفز ... وبعبارة أخرى أصابتني نشوة لأني أحب الجمال ومن يتفنن فيه: جمال المدينة وحسن هذه المريخات البديعات. وكدت أصرخ تعبيرا عن نشوتي إلا أن إحدى المضيفات نبّهتني.

– المشي على الأقدام لا ينفعك لأن المسافات بين الأحياء طويلة، وإن كانت تبدو لك قريبة. فلا بد أن تركب سيارة طائرة.

– أنا مستعد لأن أمشي الليل والنهار لأدرك كل كبيرة وصغيرة من هذه المدينة العجيبة.

وجاءت سيارة طائرة ركبتها مع خمس مضيفات. فكانت تجوب بنا المدينة عبر ممرات فوقية وسفلية، وتتوقف عند أنوار بنفسجية ووردية، وترسو على متر من الأرض من دون أن يكون لها دخان ولا ضجيج. أما مرافقاتي فلقد استوين حولي من دون أن تصدر عنهن نظرة أو رغبة نسوية نحو حضرتي الرجالية. فكأنهن من حجر وكأنهن أصنام والله! وباغتتني محاورتي الأولى.

– هل ترغب في معرفة شيء معين؟ كل شيء ميسور عندنا. لا ممنوعات ولا محظورات. فالإنسان عندنا حر طليق.

– هل يمكن لي أن أنعم بما أشاء؟

– لك ذلك. آمر

– أريد بل أشتهي ... لكـــني أحـــب ... لا ... لا ... أود، أعني ... أرغب في.

فأجبنني كلهن بصوت واحد آلي:

– أفصح عن رغباتك. فنحن في خدمتك.

– أريد ... أحب ... أرغب في ... سيارة طائرة!

– ها هي تطير بالقرب منك. هل تريد الانفراد بها؟

– املأها ذهبا وجواهر لاشتري ... ماذا؟

فأجابتني إحداهن.

– أتعرف ما يعني المال عندنا؟ يكفي أن يكون ما ترغب فيه ضرورة من ضرورات جسدك أو روحك ليتوفر لك آليا؟

– وهل يحق لـــي أن أطلب ما تطيب له نفســـي ويمتـــــع جســـدي؟ هـــل هـــذا صحيـــح ووعد صريح؟

– جرب وسترى!

– ألا أخشى على نفسي سوءا أو ضررا

– أنت إنسان غريب الأطوار لأنك عشت عمرك كلـــــه في عالم، يسوده الخوف والتشكك والحرمان والمحرمات.

– صحيح مجتمعنا في أرضنـــا لا يعيـــش إلا علـــى الزجـــر والعقاب، والعذاب والتعذيب والغضب والجزاء والتوبـــة والقنوط و ... و ... و ... القائمـــة طويلـــة.

– ماتـــت عندنا كل هذه المفاهيـــم.

– الحمد لله على أني وجدت المدينة التي سأمد فيها رجلـــي، وأطلق فيها العنان لفكري وعقلي ورصيدي الدفين، وأقـــبر فيـــها حـــلالي

وحرامي القديمين وأصبح ملاكا لا ذنوب له ولا خطايا إلى أبد الآبديـــن ... ولا بطاقة تعريف، ولا جواز سفر إلى أرض العرب والمسلميـــن والكـــافرين والدهرييـــن.

– لقد أدركت شريعة أمة المريخ يا أستاذنا الكريم! وفهمت فحواها.

فصحت صيحة شقت الفضاء وزعزعته.

– أريد امرأة، أريد أنثى، وثانيـــة وثالثـــــة ورابعــــة ... ومئات.. و ... و ... و ... أريد أن أتزوجكن كلكن ما دمتن عزبـــات ... سعادتكن في بعل ... أنا بعلكن الأعظم أنا بعل تاريخي ... بعل البعــــول في كل مكان وفي كل زمان ... قوام عليكن يا نساء ويا جواري ويا حسان. لا وجود لكن بدون رجال ... و ... و ... و ...

وما كدت انتهي من خطابي حتى أحسست بزلزال يهز كياني ويشق فؤادي إلى نصفيـــن. ورأيت المدينـــة تنقلب في لمح البصر إلى آلاف الأشكال وإلى أرقام حاسوبيـــة مجنونة. ورأيت بناياتها وســـياراتها الطـــائرة ونساءها تمر أمامي كالبرق، ثم آلت إلى خط أفقي متتابع ليس لـــــه لـــون. وأصابتني دوامة دار لها جسمي دوران المغزل وعصفت بي في الفضاء ريـــح كادت تمحقني ووجدتني مشدودا إلى ساريـــة عاليـــة في ملعـــب مـــترامي الأطراف، وجسمي طويل طويل وعريض عريض ومنفوخ، تحيط بي مـــدارج تموج نساء، وتهددني من كل صوب مدافع وراءها نســـاء صنديـــدات ... جميلات والله كالبدور. فأيقنت رغم وضعي الجديد من أن المرأة يمكــــن أن تكون مثل كل إنسان ماكرة وفاتنة، لكن من المستحيل أن تصبح عسكريـــة فتاكة. وناداني صوت من قيادة المريخات.

– لقد ارتكبت الإثم الأكبر والذنب الأعظـــم، وإن كنّـــا لم نسئ إليك

– هل قتلت نفسا، أو شربت خمرا، أو كفرت بالله وبرسوله واليوم الآخر؟ أو ... أو ... أو ...؟

– أردت أن تحلل الزواج في مجتمعنا ... وتوغلـــت في الإثم والفسق لما دعوت إلى أن تتزوج عشيرتنا كلها وأن تصبح بعلا مبعّلا علينا.

– يكفي ألا تقبلن عرضي ويكون كل منا في حل من أمـــره ... وعفا الله عما سلف

– كدت أن تعيد إلى النفوس تقاليد وعادات بائدة خصصنا لها سنين للقضاء عليها ولبناء مجتمع مكتمل تخلّص من ضرورة وجود الرجال ركيزة لكل مجتمع.

– إلى أن يـــأتي ما يخالف ذلك

– وذلك ما حصل عندنا نحن المريخات

– وأين الإشكاليـــة عندئذ؟

– يجب أن تحاكم على تهورك وأن تقوم تقويما صارما، وتجتث غياهب نفسك وما تسرب إليها من تقاليد الرجال وعقليـــة أصحاب الحريم من كل الأمم والنحل والملل، وذلك ما ستبلغه إليك الهيئة العليا التي كلفت بالنظر في شأنك ... الهيئة الموقرة! الهيئـــة وصلت!

وانتصبت الهيئة المحترمة الجميلة الساطعة. فياليتهن أتين للغناء والرقص والطرب ... وكدت أدعوهن مرة أخرى إلى أن يتزوجنني!!

– نحن نعلم ما تضمر نفسك في هذه الدقيقة بالذات. فأنت لم تقلع إلى هذه الدقيقة عن غيـــك.

وأضافت قاضيـــة منهـــن

– لأن نفسك الرجاليـــة قد تنكرت لفطرتها الأولى البريئـــة وأصابها الدنس والتلوث، واتخذت من بدعة الزواج مسلكا تتفنن فيه حسب أهوائها، وشهواتها وعواطفها.

– فلو كان هذا الزواج بواحدة فأكثر فطرة طبيعيـــــة لمـــا اختلف فيه الناس ولما كان كالماء والهواء لا يختلف فيهما اثنان

إلا أن قاضيـــة رابعـــة لاحظت

– هجرنا عالم الأرض وابتعدنا عن الرجال وعالم الحريم لنشيّد مجتمعا لا يحتاج لرجال. والدليل على صحة رؤيتنا قيام مجتمعنا وتوفيقنـــا في حياتنا وأعمالنا وآمالنا.

– لكن ما قصدكن من وجودي رجلا عندكن؟ اتركنني أعود إلى أرضي لأعيـــش مع أهلي وعشيرتي ... وتصبحن على خير!

فخاطبتني الرئيســـة :

– لقد خلصناك من مخالب الملثمين وخطـــاب صدقـــهم ... كادوا يقضون عليك، اعتقادا منهم أنك من دعاة الحريم المعتدل ... وكنـــا نهاجمهم على غفلة لنكسر شوكتهم حتى لا يدركونا.

– ولم تحتفظن بي عندكن؟

– طمعا في طبعك السليم وفي تأييدك لمشروعنا لأننا كنا نعتبر أنّ قاسما مشتركا يجمع بيننا. فلقد كنت تؤيد أخاك لقتل أبيك الذي كان من أصحاب الحريم الهمج المفرطيـــن.

– لن يكون ذلك على الشكل الذي ارتأيتن ... لا حرائة ولا ورائة بيننا في عالم المريخ. والله يوفق بيننا. فإن كان الزواج بواحدة أو أكثر محل نظر، فإني لا أرى من المعقول أن يصبح الزواج بواحدة حرامـــا علـــى الأرض وعلى المريخ وحتى في الهواء. فكيف سيكون مصـــير الإنســـان في الدنيا؟ فهل نحن سائرون إلى الفناء؟

فصاحت أصغر القاضيات سنّا وأشدهن حماسا

– نحن لا نهزل: القضيـــة أخطر مما تتصور يا حضرة الذكـــر العتيق البدائي، المتخلف، الأمي، الوحشي، الحقود، المستبد، الأناني، المغرور، المتهور، الفاسق الذي لا تنتهي عيوبـــه و ... و ... و ...

فصعقت لما سمعت تلك الأوصاف الحسنى تتدفق من ذلـــك الفم الجميل الذي لم يكن من وظيفته أن يتلفظ بها. ولم أصدق أن خطـــاب الصدق سيظل يطاردني حتى في هذه الربوع الساحرة. ولقد أفادني تجوالي في مختلف المدن أن الإنسان عاجز عن أن يعيش بـــدون أفيـــون يعميـــه

ويسخره تسخير الحيــوان. وبدا لي أن الإنسانيـــة قد قتلت وشرّدت باسم الخير بقدر ما عذّبت ومزّقت باسم الشر. فأين الفرق؟ ولم استمر في تفلسفي وأنا في طولي وعرضي الجديدين العملاقين، إذ صرخت في وجهي الرئيســة

– قررت الهيئة بعد الاطلاع على سلوكك وتقاليدك وعقلك ومخك وأحشائك عقابك بما يلي:

أوّلا: ضربك بمدافع الطهارة حتى نستخرج منـــك دنســك ولحسك اللذين هما في عرضك وطولك ، رجاء عودتك إلى برّك الأول.

ثـــانيـــا: إدراجك في دورة تدريبيـــة إعلاميـــة، لتدرك آداب مجتمعنا وسلوكه ونوعيـــة حياته ومبادئه الإنسانية وجهاده من أجـــل البقاء والخلود.

ثــالثـــا: البقاء عندنا حتى تجرى عليك التجـــارب الــتي تمكننا من ضبط طرق أساسيـــة نجابه بها نفسيـــة الرجال ومكرهـــا.

فأيقنت أني أصبحت حيـــوان مختبرات تجرى عليه التجارب. فلم قدر لي ذلك؟

– ليس لك حق في الدفاع ولا في الاستئناف ولا الرفـــض، لأنك اقترفت ذنبا لا توبة فيه. المدافع! لتطلق عليه المدافع حتى يتطهر!!

وانهالت علي القنابل وأنا مصلوب مثل السيد المسيح عليـــه السلام. فكانت تصيبني في كل مكان من جسمي، باستثناء عيني التي كانت تشخص لي حالي وما أصابها من تشتت وشلل. فكانت مياه سوداء تسيل مني سيل المطر، وكانت تخرج مني أجسام غريبة، وطيـــور وحشـــائش وأوراق وكلام، وخنافس وفئران. وخرج بعدها الحزن والكآبة والكذب، والبـــهتان والنميمة والمراوغة والدنس، والزهو والغرور و ... و ... و ... كأنها دست في جسمي عن قصد من قبل. فأصابني منها ألم شديد، كنت أســـتريح منـــه كلما خرج نصيب منها. وشعرت بالراحة تعودني لما أفرغ جسمي من تلـــك الأشياء. المهم أني كنت أحوي نصيبا كبيرا من النجاسة التي تخلصت منـــها جملة وتفصيلا وعدت إلى حجمي الإنساني الطبيعي بسرعة مدهشـــة.

النجاسة تخرج والطهارة تعود؟ إن هذه المنهجية المريخية الطبية التمطيطية المدفعية المطهرة رائعة، ليت محاكمنا تدرسها وتطبقها على الكبير والصغير ببلادنا!! ولا شك في أن أهلي وعشيرتي سيسخرون مني إن اقترحتها عليهم، لأن الطهارة أصبحت سلعة غريبة عندنا، يضحك من الداعي إليها ويعتبر ساذجا ركيكا. فلهم ما يرتضون! لأن تجربتي المعيشة أفادتني أن المدافع قد طهرتني من الأدران، ومن هوس فكري، وهواجسي النفسية وآلامي وأوجاعي الروماتيزية. فاندثر كل شيء، وأصبح جسمي يانعا صلبا، وشعرت بذهني صافيا ذكيا لامعا، وبذاكراتي مفتوحة فيها من المعلومات ما يفوق معلومات آلاف الحواسيب. وتحولت إلى استعداد وطاقة وانطلاق فحمدت الله على هذه الرحلة وعلى تلك المدافع ومبادئ هذه الأمة المريخية وأعلنت

– أنا مستعد يا مريخات لأكون من جنودكن طول عمري؟

وتحمست حتى قلت مني قول جميل:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة

بوادي القرى إني إذا لسعيد

لكل حديث بينهن بشاشة

وكل قتيل عندهن شهيد

ووجدت نفسي في مدينة المريخ لا أرى إلا النساء. فلم أشعر ولو مرة واحدة أني غريب بينهن ... عجيب أمري وأمر هؤلاء النساء اللواتي تعودن بي ... وغريبة هذه المدينة التي استهوتني شوارعها المتغيرة والمتحولة باستمرار. فقل أن رأيت مشهدا أو عمارة أو شارعا، أو حديقة أو مسرحا أو ملعبا أو ... أو ... أو ... إلا وهو في طريقه إلى التحول إلى شيء آخر لأداء وظائف عديدة ومتنوعة، والنساء في كل ذلك ملازمات لوظائفهن ملتزمات بها في نظام ورشاقة، ودلال لم أر له مثيلا ... كنّ أبرع من الألمانيات واليابانيات، والأمريكيات ومن رجالهن كمان و ... و ... و ... تماما. "برافو" على هؤلاء النساء المريخات العربيات الصميمات،يدل على

ذلك كلامهن بعربية قرشية سيبويهية أجرومية فصيحة، و"برافو" على هذا الجمال العربي الأشقر الشعر، الأزرق العينين الأبيض البشرة! لا بد أنه كان في البداية أسمر وأثرت فيه بيئة المريخ وزرقة السماء.. يا ليتنا صدرنا نصيبا من هؤلاء المريخات إلى أرضنا العربية ورجالها!!

وهنا بادرتني مرافقة من مرافقاتي

– أنت على علم من القرار الثالث الذي أصدرته في شأنك الهيئة القضائية العليا، والذي يقضي بإجراء تجارب عليك. فلا بد أن نزودك بمعلومات هامة وأن تزور مؤسسات رائدة قبل الاختبار والتجربة.

– يا لطيف! ما هذه البدعة؟

– لا تهتم. العملية بسيطة ونتائجها التطبيقية ستكون مدهشة إن كتب لها النجاح.

– وهل سأظل حيّا؟

– طبعا. لا عليك لأننا لن نفرط فيك. ستظل حيا مدة طويلة. وستصبح معلما مهما من تاريخنا.

– هل لكن تاريخ؟ متى ابتدأ؟ أعلمنني بذلك قبل أن تطبقن علي تجربتكن.

وفي سرعة البصر وجدنا أنفسنا في قاعة فسيحة بها خرائط وآليات متصلة بالدنيا هاتفيا وتلكسيا وفكسيا، وبالضوء والصورة، والصواريخ و ... و ... و ... فلا توجد نقطة في الدنيا أو في الكون إلا وتدرك في لحظة! فبادرتني رئيسة المضيفات.

– بإيجاز نحن من العالم العربي الممتد من المحيط إلى الخليج، ونحن حفيدات نساء عربيات أولاهن بنت حذاء، والثانية أميرة، والثالثة بنت فقيه كن شغوفات بالفلك والنجوم والكون والكيمياء. وكانت تربط بينهن مودة يعسر على الدهر وتقلباته أن يأتي عليها. وحدث أن بليت كل واحدة منهن، وفي نفس الفترة تقريبا بحبيب قد ملك على كل واحدة منهن قلبها وعقلها، وكاد أن يقصم عرى المودة القائمة بينهن لأن من شروطه

الغربية أن تمتنع عن العمل المشترك ... بدون سبب ظاهر. ولقـد أخفـت كـل واحـدة منهن شرط حبيبها على صاحبتيها الأخريين، خوفا من القطيعة والفصام مودهن ... واشتد بهن الخوف حتى حدث أن باحت كـل واحدة بسرها، وقررن أن يجتمعن ثلاثتهن بأحبائهن الثلاثة مـع التزامـهن بالمودة وبالأمل في أن يلتئم وفاق الرجال بوفاق الحسان، ويتحقق الوصـال ويتوثق الاتصال.

فصحت

– يا سلام!. وجاء اليوم الموعود وانتصر الغـرام، وطـاروا كلهم إلى المريخ ؛ وبعد مدة مات الرجال وبقيت النساء!

– لا يا سيدي، بل جاء من المحبين الثلاثة المنتظرين إلا حبيب واحد

– وما حدث للمجنونين الآخرين؟ وما لهما زهدا في عـالمتين عربيتين وغانيتين ساحرتين؟

– لأن الحبيب المذكور استهواهن الواحدة بعـد الأخـرى، دون علمهن فأحبته كل واحدة منهن حب الجنون، وعسر عليها أن تتخلص من حبه. فكانت الصدمة.

فعلقت:

– وتبين لهن أن حالتهن لم تكن شاذة في بلادهـن فقـررن هجرها إلى المريخ.

– ذلك ما حصل بالضبط

– وما فعلن بذلك المحب من أصحاب مجتمع الحـريم؟ فـهل عاقبنه ورجمنه أو أخذنه معهن إلى المريخ لتتزوجنه ثلاثتهن، هربا من تعـدد الزوجات بالأرض.

– تخلين عنه جملة وتفصيلا، ومسحن ذكراه وصورتـه مـن ذاكرتهن إلى الأبد.

- وكيف وصلتن إلى المريخ وأصبحتن تتجولـــن في الفضـــاء الواسع بدون قيد ولا شرط.

- استعملنا علمهن وذكاءهن وخبرتهن، وطرنا كمـــا طـــرن وأصبحت الدنيا أمامهن وأمامنا بلا حدود.

- كيف طرن قبل أن يخترع الإنسان العصـــري المحركـــات والطائرات وحتى الطائرة لا تكفي. فكيف يطرن، والصواريـــخ المســـخرة كانت مجهولة؟

- وجودنا هنا دليل على أن المســـتحيل مســـتحيل. فلقـــد انطلقن من مبادئ وتجارب معروفة في عصرهن وقبله.

- عجبا! أكانت توجد في ذلك العصـــر مبـــادئ تســـتحق الاعتبار؟

- بل رموز ورؤى ومبادئ: معراج عيسى عليه الســـلام، وإسراء محمد عليه الصلاة والسلام على ظهر البراق ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وابن الفرناس الأندلسي ومحاولاته، وحـــتى الجوهـــري الذي حاول أن يطير من سطحه بعد أن أتم معجم الصحاح. فالطيران مفهوم نابع من ثقافتنا وشعرنا وعقلنا وهواجسنا. ألا يكفي ذلك ليوحـــي إليـــهن بالوصول إلى المريخ؟ ألم ينطلق مخترعو السيارة والطائرة، والصـــاروخ مـــن رموز وتجارب؟

- لكن في ذلك معجزات ليست من حظ البشر.

- المعجزات ليست للتعجيز على حد فـــهمنا بـــل للعـــبرة والتخيل والعطاء ها نحن البشر في الفضاء. من كان يصدق أن الإنسان قادر على أن يطير ولو مترا واحدا؟

- لكن الخلافات والروايات حول المعراج والإسراء وابـــن فرناس كثيرة ...

- أترك مهاترات المتفاقهين والمتفلسفين الذين شككوا في كل شيء، ومازالوا يشككون في بلوغ الإنسان سطح القمر والعيش في الفضاء.

فحتى الطائرة يركبونها ولا يصدقون بها. المهم أن ثقافة الإنسان قد أقرت من العصور الغابرة، أن الفضاء وما وراءه عالم مفتوح في وجه الإنسان الذي كان ومازال يعيش فيه. فكلنا في الفضاء! الأرض في الفضاء!

عجبت لبراعة رئيسة المضيفات ولباقتها، وعلمها الذي أفادني أن جداتهن الثلاث قدا ستعملن علمهن واخترعن مراكب الفضاء وزودنها بالوقود الأزلي، وفتحن لحفيداتهن أرجاء السماوات، وتركن لهن أسرارا لن يبلغها الإنسان الذكر مهما سعى. فقالت لي إحداهن.

– هيا سنبدأ بزيارة متحف النساء الذي لا يوجد مثيل له في الكون

– ما عساني أجد فيه من فائدة؟ أخطاب صدق جديد؟

– لأنه المتحف الوحيد الذي يجعلك تلمس بالممارسة والمثال منزلة المرأة في عالم الرجال، وما عانته من قوانين جائرة لا يتصورها العقل

– وهل الزيارة ضرورية؟ أنا أريد أن أعرف كيف تناسلتن بدون رجال: فما هو سر بقائكن؟

– لسنا في حاجة إلى الرجال للبقاء والتناسل. وجودنا مرة أخرى دليل على ذلك.

– لكن لا يمكن أن تنجبن بدون رجال.

– تعني أن النطفة والأمشاج أصل الوجود، وأنها مستحيلة من دون الرجل. اعلم يا سيدي أننا اكتشفنا الإنسان الأنبوبي منذ زمان، كما أننا صنّعنا كيميائيا النطفة التي ينشأ منها واستعضنا عن النطفة الطبيعية ... ونظامنا التناسلي على أحسن ما يرام.

– عجبا!لن أصدق ذلك لأنه من باب الكفر ؛ ثم أين الحب والعاطفة؟

فلا بد لهما من رجال. فهل استغنيتن عن الحب؟ وهل فبركتنّه وصنّعتنّه؟

– وما الغرض منهما إن لم يكونا ضروريـــين؟

– لا أستطيع أن أتصور كونا أو مجتمعا يخرج عن سنة الله في خلقه. فمهما كانت حسناته وسيئاته، لا بد من حب وتواصل بين أنثى وذكر تجمعهما مودة ورحمة وشهوة ولذة.

– نحن نحب بعضنا، ونتعامل بود ورفق، وتربطنـــا حقــوق وواجبات إنسانيــة راقيــة.

– يبدو لي أنه يستحيل عليكن أن تعشن بدون لذة وشهوة.

– ذلك هو بيت القصيد. تخلصنا مـــن الحـــب والعاطفـــة لنتخلص من الشهوة واللذة اللتين كانتا وبالا علينا ومدعاة إلى استبعادنا من حلبة البشرية بشتى الوسائل والحيل والقوانيـــن و ... و ... و ...

– بدون حب ولا لذة لا يوجد شعر ولا موسيقى، ولا فـــن ولا جمال ولا محنة ولا بدعة ؛ ولما كان الإنسان إنسانا يحي ويمـــوت، وهـــو يبحث عن نفسه دون أن يدرك حدود اليقين.

فأحاطت بي مرافقاتي كلهن غاضبات كأني نلت من عرضهن، وقلن بصوت واحد:

– هذا هذر من هذرك المعروف وسفسطة. نحن نخاطبك باسم التجربة والممارسة، وأنت تجادلنا بلغة التقاليد والطقوس والتمنطـــق ... إن مجتمعنا يدعوك إلى أن ترى بعيني رأسك أنه مثال قائم يشهد بـــأن مجتمـــع الرجال ليس الأوحد. فلم لا تتصور أن لنـــا شـــهوات ولـــذات، وفنـــون وجماليات، لا داعي إلى أن تكون على نمط ما هو موجود عندكم منها؟

– ومن سيرشدني إلى ذلك؟ هل لكم إمامة. هـــل يعقـــل أن توجد إمامة معصومة؟

أجابتني الرئيســـة

– وهذا أيضا من خور القياس الشكلي في مجتمع الرجـــال. ليس عندنا إمامة، وكلنا إمامات متساويات في الحقوق والواجبات التي شيد عليها نظامنا العتيد كما ترى.

– هذا صحيح. لكني أخشى عليكن ثقتكن المطلقة والمفرطة بأنفسكن ولو دامت آلاف القرون. إني أخشى عليكن من خطاب الصدق ووعوده البراقة، حتى كاد أن يخيل إليكن أنكن خالدات.

أجابتني رئيسة المضيفات مذعـــورة

– امتناعنا عن الشهوة واللذة كما تتصورهما لا يجردنا مـــن إنسانيتنا، ومن أجلى مظاهرها وأعني به الأجل المحتوم الذي لا مفر منه ومن اليـــوم الآخر.

– وأين تمتن وتدفن في هذا الفضاء؟

– تطلق أجسامنا عند موتها في صناديق في الفضاء فتتبخـــر وتضمحل كما تضمحل في التراب

– حتى في الموت سبيلكن فريدة!

– لقد اقتربنا من متحف النساء ... ستدخله مـــع زميلاتنـــا المتخصصات في قضاياه وشؤونه ... مع السلامة ودمت بخيـــر!

أحاطت بي المتحفيات في زيهن الأصفر والأخضـــر، وكـــن مستعدات لمصاحبتي في زيارتي المتحفيـــة المسائيـــة. لكني شعرت وأنا أقترب من المتحف، أن توترا غريبا كان يسيطر على محيطي. وسمعت فجـــأة طلقـــة نارية عقبها صفير يشبه صفير سيارات الإغاثة ثم خيم سكون ... ورأيـــت بعدها سيارات فضائيـــة مقبلة علينا في سرعة مدهشة، فاختطفتني إحداهـــا وانطلقت نحو الفضاء، وإذا أنا بنسوة ملثمات يقلن لي:

– لقد كذبن عليك ولفقن الحقائق ... فنحن لســـنا كلنـــا راضيات عن نموذج حياتنا الذي تتحكم فيه الحبوب الكيمياويـــة، والبنات الأنبوبيـــة، وتسيرنا القوانين الربوتيـــة الآليـــة التي قضت على كل حيـــاة إنسانية تربط المرأة بالرجل. فهل يصح أن تحكمنا قوانين تنتقم في نهاية الأمر لجداتنا المحترمات، ولما جرى لهن في غابر الزمان؟

– أو لم يغرّر بهن ذلك الرجل الواحدة بعد الأخرى؟ ومثالـــه غالب في مجتمعنا.

- الروايات الشائعة كثيرة. لكن خطاب الصدق عندنا ينكرها.

- أيوجد عندكن خطاب صدق رسمي له إشاعاته ورواياته ومطلقاته؟

- نعم! ويوجد الناطقات به الرسميات، والمنظرات له، فضلا عن مناصراته الحقيقيات، والمنافقات والانتهازيات كما هو الشأن عند الرجال ... أخمدت ثوراتنا مرات كثيرة. لقد اغتنمنا وجودك لنطلب بقوانين إنسانية عادية، وإلا أصبحنا أمة روبوات وحواسيب، وأنابيب مروضة مزورة.

- ألا تخشين فتك الرجال بكن. القضية هائجة مائجة في الأرض!!

- نحن نريد أن نخرج من عزلة مجتمع النساء، كما أننا لا نرضى بعزلة مجتمع الرجال. نريد أن نبني علاقاتنا على الحوار مع الرجال.

وبالطبع هوجمت سيارتنا الفضائية وقبض على القرصانات، ووجدتني أسبح في الفضاء والأيدي تتلقفني، وسمعت

- لقد استرجعناك في نهاية الأمر. كدت تكون ضحية تصرفات حزب الشهوانيات نصيرات مجتمع الحريم ... الأغلبية الساحقة عندنا سليمة، والأقلية الضالة لا تهم. هيا المتحف في انتظارنا!

- هل من فائدة من زيارة المتحف بعد ما حصل؟

- الفائدة مضعفة بعد الإثم الذي اقترفته الشهوانيات

- يعني أنهن سيعاقبن على إثمهن. وما سيكون مصيرهن؟

- لكل فعل جزاؤه. المهم أنهن سينفين إلى جزيرة الصم البكم، فتهجرهن كل الكواكب وتمتن هناك من دون أن يكلمهن أو يسمعهن أحد.

- إنه منفى فضائي للصامتين والصامتات. وبمعنى آخر يحشرن إلى مركز النفايات البشرية والمنبوذين

– لقد وصلنا إلى باب المتحف. فلندخل.

المتحف باب مقوس لا يدرك له علو ولا سماكة، يتألق جواهر وألوانا. اسطواناته من نور وفيه شموس ثابتة تنبعث منها موسيقى تتنوع حسب كل شمس. ولاحظت أن كل شمس تحمل اسم حضارة من الحضارات الكبرى، ويعرض في أروقتها صور وتصورات عن منزلة المرأة في قوانينها وتقاليدها. فرأيت شمس الوثنيين، وشمس اليهود، وشمس المسيحيين، وشمس البوذيين وشمس العرب والمسلمين، وشمس الفراعنة وشمس اليونانيين، وشمس الماجوس، وشمس الماركسيين و ... و ... و ... وتكاثرت علي الشموس حتى عجزت عن حصرها، وهيأ لي أنها جمّعت في هذا المتحف الذي لا نهاية له، ليقدم لنا صورة شاملة كاملة عن منزلة المرأة في الكون منذ أن خلق آدم إلى يومنا هذا. العجب في هذا المتحف، هو أنه لم يسقط ولو فترة واحدة مما طرأ على المرأة من أحداث ومآسي وأفراح وأطراح، كأنك تعيشها وتراها. ولقد خجلت لأول مرة من انتسابي إلى زمرة الرجال أصحاب الجنس العتيد، وما سلطوه من عنف وعذاب على شريكاتهم في السراء والضراء. وطلبت متوسلا أن أعفى من تلك المشاهد المؤلمة. فنقلت إلى شق آخر من المتحف، لاحظت فيه أن العقائد والحضارات تكاد تكون متساوية في معاملة جداتنا وأمهاتنا، وزوجاتنا وبناتنا وأخواتنا وعماتنا و ... و ... و ... وعلمت أنهن كن صاحبات حظوة في أول الزمان. فالقمر كان يعبد في الأساطير الأولى إلهة مقدسة، لأنه كان منبع الخصوبة والحياة، كما علمت أن النساء في قبائل هنود البامبا كن تحكمن بالإعدام على الزوج الذي يخون زوجته. ووجدت قبائل لم تميز بين الأم والأب، والأخ والأخت مما يشهد بأن التمييز الجنسي حسب مضيفاتي كان مجهولا، وبأن المرأة كانت مساوية للرجل. وقد تبدل الوضع حسب المكان والزمان. فالنساء في نظر البوذيين خبيثات مغيارات، حسودات حمقاوات، وعند الهندوسيين طبقت على الأرملة تقاليد "ساتي" التي تدعوها إلى أن تحرق حية مع زوجها الميت. والغريب في الأمر أن هذه التقاليد منعت بقانون بريطاني سنة 1829. ولقد أقر الهندوس

واليهود والعرب والمسلمون تعدد الزوجات، وإن كانت القضيـــة خلافيـــة بين المسلمين تستوجب شروطا كثيرة صارمة لا يقدر عليها إنسان من البشر. وقد هجرها اليهود منذ زمان، وإن كان لا يحق عندهم للمرأة أن تشهد. أما المسيحيون فإنهم حملوها خطيئة آدم الأولى ولذلك حكـــم عليـــها إلى أبـــد الآبدين بأن تحمل وتضع وتنجب، وهي تتألم وتتوجع. فالنساء لم تسلمن من اللعنة في أغلب الحضارات التي دونت "جرائمهن" في النصوص والوثـــائق. ويبدو أن جزاءهن في نظر المريخات قد تجاوز ما نال الشيطان مـــن لعنـــة في جميع الملل والنحل المعروفة. فبادرت إحدى المضيفات

– هذا بالطبع ما كان حسب رأيكن جزاء أمي وأختي وبنتي اللواتي عليهن أن يلتحقن بأمتكن لاستعادة حقوقهن؟

– بل للتخلص من الشهوة واللذة. وبعدهما يهون كل شيء. فلا بد أن يتعزلن عن الرجال.

– فكيف ينجب الرجال بدون نساء. الدنيا في خطر، لأنهـــا ستنقسم إلى شطريـــن محكوم عليهما بالإعدام مسبّقا.

– حتى يعود الرجال إلى الصواب. أما نحن فتجربتنـــا قـــد كونت مجتمعا نسائيا متكاملا، ينشا من نفسه ومنها يتولد ويتكاثر ويتطور.

– لكن تجربتكن غير معقولة ومستحيلة في المستقبل القريـــب والبعيد، لأنها ستبلغ خط إشباعها وتنفلق.

– وما رأيك حينئذ في أحوال مجتمعنا القائم أمامك؟

– لست على يقين من أنه مجتمع رائد، لأن منكـــن مـــن لا يرتضينه مثالا لهن.

– أنت سويت بين زمرة الشهوانيات وسلوك مجموع أمتنـــا. إن هيأتنا العليا قد أصابت عندمـــا قـــررت إدراجـــك في دورة تجريبيـــة تدريبيـــة جديـــدة.

– يا حفيظ! هل وصلكن خبر هذه التجربة المنتظـــرة؟ ومـــا عسى أن تكون؟

– طريفة جدا ننتظر نتائجها بشغف. إنها تهدف إلى تبديل الرجل إلى امرأة والعكس بالعكس، مع إمكانية البقاء في منزلة منهما لمدة معينة.

– هذا كفر ومسخ لقوانين الطبيعة والفطرة ! هذه بدعة لم يسبق لها مثيل !

– الطب الحديث أتى بالعجب. فلقد حول رجالا إلى نساء والعكس بالعكس وطرح مسألة الإنسان الأنبوبي، ونظر مع الفقهاء والأطباء في قضية سحب أجهزة الإنعاش وإقرار الموت الدماغي. ونظرنا نحن في فصل حمل المرأة عن نطفة الرجل ... لقد خلقنا لنتقدم !

– ليت الطب وطبكن بالخصوص خلصنا من السرطان وآلامه، ومن السيدا وفجائعها ! ! وهل بعدها سيحي الأموات ويقتل الموت؟

– لقد أحياها عيسى عليه السلام من قبل ... أليس كذلك ! أما السيدا وانهيار المناعة الإنسانية، فهي دليل على أن الشهوة واللذة والجماع سببها الأول وقد تخلصنا منها. وهي كذلك دليل على أن الفطرة قابلة للتحول في نطاق معين يمكن أن تقوم مقامه فطرة أخرى، يمكن أن يستعيد بها التوازن نصابه

– عش تر والله؟ وما الغاية من تجربتكن الموقرة؟

– غاياتنا عديدة، منها المساواة بين المرأة والرجل في جميع الأحوال حتى تنقرض ما بينهما من الامتيازات الجنسية والخلقية العامة، والتفاضل والتفضيل في الإرث والإمامة والتبني، والطلاق والحرام والحلال والشهوة واللذة ... نريد إنسانا جديدا في حالة بين الحالتين ، ونعني به الإنسان المرأة الرجل.

– ذو الوجهين والخدود والصدرين، والنهدين والخشونة والجمال، والأنوثة والنعومة والرجولة.

– ذلك بالضبط ما نبتغيه مع فارق طفيف

– هذا إنسان مستحيل ... هذا وحش غريب. إنه نموذج مخيف خارج من خطاب صدق مزعج.

– إنه نموذج جديد يكفي التعود عليه، مثلما تعودنا على نماذج عديدة ... القضية قضية تقاليد: فنحن نستغرب من الحيوانات التي تمشي على أربع، ولا شك في أنها تستغرب من وقوفنا على اثنين تقسمان ظهورنا ؛ وهي حالة غير طبيعية تسببت في أمراض الظهر التي أصبحت معضلة العصر. ألم تلاحظ أن الحيوانات الماشية على أربع لا تعرف هذا المرض وأنواعه؟

– كل شيء محتمل عندكن. حتى اللامعقول والكفر والمجون و ... و ... و ... فلو خليتن سبيلي ! لكن دينكن ولي ديني وعفا الله عما سلف !

– لا يكون ذلك قبل أن تجري عليك تجربتنا. لقد قربنا من المخبر الذي ستنزل به ضيفا علينا لبضعة أيام.

شعرت عند ذاك أنهن سحرنني بكلامهن المعسول وبخطاب صدقهن المقلوب ؛ وغاب عني الخطر الذي كان يحدق بي. فكيف سيكون مصيري؟ لا أكاد أصدق أني سأصبح امرأة تحمل ويطرأ عليها المخاض، وتخضع للعدة وتتحمل آلام الولادة، وتركن للنفاس وتكون شهوة ولذة. وهل سأكون امرأة جميلة أم قبيحة، سمراء أم شقراء، طويلة أم قصيرة لا! لا ! هذا أمر غير وارد والحمد لله ! لكن ما أحمقني ... إن أكبر وأخطر شيء في هذه القضية أني سأكون حيوان تجربة، وستجرى علي، حسبما يبدو، عملية جراحية إيجابية وسلبية ... لن أقبل ذلك إطلاقا ! أنا لست مخنثا ولم أطالب بذلك. سأرفض وسأحتج وسأناضل، وسأقاوم إلى آخر رمق وسوف ... وسوف أستجير بالأمم المتحدة وبأمينها العام ومجلس الأمن المحترم، والجمعية العامة، حماة حقوق الإنسان، وجامعتنا العربية الموقرة وسوف أطلب منهم تسخير قوات دولية من أقطار أوربية وأمريكية ويابانية و ... رائدة محايدة نزيهة عفيفة و ... و ... و ...

مثل القوات الموجودة في البوسنة والهرسك لتنشر العدل والإنصاف، والعقل والتوازن والطلاق على المريخات المجنونات، إن لم تتراجعن عن تجربتهن وعن خطاب صدقهن المهلوس.

فلن أتنازل عن كرامتي ورجولتي، وقداستي وخصوصيتي التي كرمني بها الله تعالى كما كرم المرأة بخصوصيتها. هذا حرام ممنوع، مكـــروه، محظور مرفوض، شاذ، دنيء، رذيل، محقور، خسيس، مجنون، معتــوه و ... و ... و ... معجمنا معجم تشومسكيّ توليـــدي تحويلـــي لا نهايـــة للعناتـــه ومواصفاتها ... قدرة استيعابه رهيبة !

– مالك تصرخ ياحضرة الضيف وتنفعل وتناجي نفسك؟ هل أنت بخير؟ هل من خدمة تريح خاطرك؟ لقد قربنا من المخبر ... هيا تقدم ما لك تتردد؟ التجربة ستعود على البشريـــة كلها بالخير ... هيا هيا ! يبدو يا أخوات أن حالة غريبة تحيط بنا من كل مكان. الحذر !

أما أنا فلقد واصلت لعدة دقائق التفكير في نفسي، وأنا سائر نحو المخبر الملعون. فكرت في نفسي ومصيرها الجديد، لأني سأكون في حالة لن أحمد عليها ولن أحسد، لا سيما وأنا لا أعلم كيف سأتحول من وضعيتي الرجاليـــة الأولى إلى وضعيتي النسائية الثانيـــة والعكس بـــالعكس. وهـــل سأعود كما كنت، أم ستطرأ علي بعض التغيرات؟ هل أعود شابا أم كهلا في عمري الذي حولت فيه امرأة؟ الإشكاليـــة تكمن في الفترة التي سأظل فيها في منزلة بين المنزلتيـــن؟ وهل ستضاف إلي أعمار أم يطرح منها من دون أن تؤخذ بعين الاعتبار الترقيـــة في الوظيفـــة العموميـــة والتقاعد؟ استغفر الله! ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. لقد كدت أقبل الأمـــــر المقضـــي وخطاب الصدق المريخي ! فلا بد أن احتج وأن أصرخ.

– أريد أن أعود إلى الأرض وإلى قريتي !

– ستعود إليهما بدون شك لأن مصلحتنا تستوجب ذلك

– وتعدن معـــي

– هـــذا أمر فيه نظر

– هل يعني ذلك أنكن انفصلتن عن الأرض انفصالا نهائيـــا؟ هل قطعتن كل أمل في العودة. فكل إنسان له أمل مـــأمول، وإلا انقطعـــت مقاصده وانقرضت رؤاه.

– دستورنا يربط عودتنا بعودة العادل الأعظم

– أنتن أذن من أهل ...

– بل من المؤمنات بأن العادل الأعظم الإنســـاني المنتخـــب انتخابا شعبيا قانونيا، حرّا ديمقراطيا، واضحا سالما لا تزوير فيه ولا تلفيق و ... و ... و ... سيعتمد علينا وعلى الرجال، وســـــندرك كلنـــا بالوفـــاق والخلاف، والتآلف والالتزام ما فقدته أمتا الرجـــال والنســـاء في العصـــور الماضيـــة.

– هذا تصور جديد للعادل الأعظم. هذا برنامـــج ثقافـــي ثـــوري عجيـــب وأجل بعيد بعيد لعله ...

– ولعله قريب على لمحة بصر.

وبدا لي أن هذه النسوة الحالمات بالعادل الأعظم في نموذجـــه الجديد، يشابهن في شدة أحلامهن رجال مدينة الذكرى وإمامهم الأعظـــم، فلهن خطاب صدق مطلق أشهد أنه مخيف. وفجأة سمعت إحدى مضيفـــاتي تصرخ.

– احذر يا رجل ! التحق بنا بسرعة ! الخطر داهم !

استغربت من النداء لأني لم أشعر بشـــيء يتغـــير في الحـــال، وسخرت من صاحبتي.

– التحق بنا وبالمركبة، وإلا وقعت في قبضتهم. هيا! أسرع!

فازداد اضطرابي وتشككي لأني لم أر شيئا يستحق العنايـــة. فقلت

– لم هذا الخوف والجو هادئ جميل، ونفسي الآن راغبـــة في زيارة مخبركن الموعود.

- إنهم أصحاب الخفاء. وهم في طريقهم إلينـــا، نلدركـــهم بالموجات الكهربائية ونشغلهم بالليزر إلا أنهم يفلتون من حواجزنا، ويفتكون بمعداتنا ويختطفون المريخات ويعذبونهن عذابا أليما.

- من هم؟ وما هي أشكالهم؟ وما هي أخلاقهم؟

- لا نعرف عنهم شيئا دقيقا إلى الآن. إنهم أخطر ما هاجمنـــا من أعدائنا.

ولاحظت أن مرافقاتي كن يرتعشن خوفا، وسمعت صرخـــة مدويـــة اختفت بعدها واحدة منهن، وأحسست بجسمي يلف في ثوب ناعم كأنه من حرير ويقيد يدي ورجلي. ولم يبق لي من الجوارح إلا النظر والسمع والنفس. وغابت عني المريخات وعالمهن، ودخلت في ضباب كثيف كـــأني في حلم استمع فيه إلى أصوات غريبة تشبه أصوات الجواميس ؛ ثم استولى علي نعاس ثقيل. واستيقظت ثانيـــة.

- لا بد أن نتخلص منهم ... وأن يستكمل زيارته للمتحف وأن يرى جواري قياصرة الروم وسلاطين الترك والتتر، وخلفاء بني أمية وبني العباس والفاطميين. فلقد كن آلاف مؤلفة من الأجسام المســـخرة للرجـــل الواحد، تنفجر الحروب باسمائهن وتنتهي على حسابهن، لأنهن كن الغنيمـــة المفضلة في الحرب. الإنسان حارب ومازال يحارب من أجل الجنس الغنيمة لا غير ... لا غير. هذا الرجل يهمنا ليعرف ....: فصحت

- خذوني يا أهل الخفاء ! أخرجوني من مجتمـــع المريخـــات.

أعينوني على الفرار حتى أظل ذكرا ذكورا، ورجلا فحلا من بني العرب أهل الحسب والنسب يعتز بقول صاحب بـــن دينار المازني:

فنحن بنو الفحل الذي سال بوله   بكل بلاد لا يبول بها فحل

وعاد إلي ضغط ذلك الثوب الناعم. فـــاحتواني واســـتبد بي النوم، وغابت عني الدنيا مدة لم أدرك طولها. ثم وجدت نفسي على ســـطح الأرض في واحة غناء لم أر لجمالها مثيلا ... كانت تبدو عامرة بكل شـــيء باستثناء النساء والرجال. فحمدت الله على وجودي وحيدا، وعلى راحـــة

بالي من البدع والمحن. همت في بساتين الواحة أبحث عن حي يرزق لم أجد له أثرا يذكر.

فناديت وصرخت، وغضبت وهددت كل شيء حــولي دون جدوى. ثم أخذت أضحك من نفسي ومن حظي، ومن غرابـــة إنســانيتي المتحولة التي آلت من أعلى عليين إلى أسفل السافليــن، بالرغم مــن إرادتي وخلافا لمشيئتي المسكينة التي سعت العمر كله إلى صيغة توفق بــين مــنزلتي الرجال والنساء في بلادنا وفي مدينة الذكرى ومدينة المريخ.

لقد كان خطاب الصدق يطاردني في كل مكان ؛ فأقنعني بأن الصواب المطلق يؤول إلى صواب مستحيل، وبأن الحقيقة خرافة والبحــث عنها سراب ... وعلى كل حال فإن هذه الأشياء المتشابكــة المتداخلــة لا تفيدني الآن، ولا تخلصني من حقيقة الألم وصوابه، لأنه أصاب رجلي الحافيتين وجع لوّع جوارحي وعكر علي المشي والوقوف. وهنا تيقنت أن الحقيقـــة بنت الضرورة. الحقيقة عندي الآن تكمن في الحصول على حــذاء يحمــي رجلي ... ولو كان من نوع الحذاء الذي كــان والــدي يلزمني به كـــل سنتين، لا قبلهما ولا بعدهما، ولو أكلت الحجارة لحمي وأظفــاري. وكــان حذاءا "غربيا" بمعنى جزائريا من جلد البقر المدبوغ دبغا خفيفا حتى يحتفــظ بسماكته وغلظته فيصبح صلبا كالحجر، يذبح الرجل ويضغط على الشرايين ويمعس الأصابع حتى تنتفخ وتزرق، نعله من طابقين من جلد خفيف ومــــن الورق السميك الكرتوني، يشده خمسون مسمارا من نوع "البغلي" المقصود منه حماية النعل من الحصى والمحافظة على سلامة الحذاء لمدة سنتين كاملتين، مهما كان الطقس شتاء أو صيفا إلى أن يأتي أجل شراء حذاء آخر ممـــاثل، شريطة أن يتجاوز حجمه رجلي بسنتمترين زائدين على أقل تقدير، تحسبا بما عسى أن يطرأ على رجلي من نمو وتطور وتقدم، ورفقــا بطاقــة والــدي الشرائية وبمشاريعه وآماله في الزواج والتزوج. فيكفي أن يدوم سنتين، وإن عطب رجلي، وعوج أصابعي، ونخر أظافري، وتسبب لي في عاهات عــدة، وذلك ما حصل لي لا سيما في حالتي هذه لأن والدي كان يقتصد في شراء

أحذيتنا وغيرها من الأشياء حتى يوفر ما أمكن من المـــال لشـــراء زوجـــة جديدة. فالحريم وراء كل شيء، في كل زمان وفي كل مكان، وفي زمـــان أبي وزمان المريخات وأصحاب مدينة الذكرى، وأصحاب الخفاء الذين عادوا إلي ذات مساء، وأنا أتمنى حذاء أبي على مرارته، وخلصوني من تلك الوحشـــة وأخفوني في زمان ومكان لا يعرفهما أحد".

وجلست حياة وهي تؤذن بأن قصتها قد انتـــهت. فكـــانت شاحبة الوجه حزينة النظر، مسبولة اليدين كأنها تبكي لحال المريخات وجحود صاحبنا لحقوقهن وتعاونه مع أعدائهن، وانبطاحه للأقوياء وأهل الغطرسة.

ونهض بودودة بتؤدة كأنه إمام يتأهب لإلقاء خطبة جليلـــة. فبادره عبـــار

– الإيجاز والمتعة يا صاحب الدودة ! لقـــد انقضـــى مـــن الـــليل نصفـــه ومـــازلت أنتظر دوري ... هيا يا بـــودودة. هات قصتك!

فقال بـــودودة ....

مدينـــة الصادقيــن

وإليك الواوات و ... و ... و ... فأدرج فيها ما شئت على هواك

قال صاحبنا: لقد تركوا لي رسالة يقولون فيها: نحن أصحاب الخفاء لسنا من أصحاب الإرهاب والترهيب. نحن قوة نافذة لا تغلبها قوة إنسانية، بنا تدرك الخفايا والأسرار، وبنا يعرف سر الوجود، ومعنا يبلغ الإنسان الحقيقة التي طالما بحث عنها ما يزيد على عشرين قرنا، عندما خرج من ظلام الدهر ودخل ضوء الزمن التاريخي، واستبدت به المحنة حتى فطر عليها واستعاض عنها بالبدعة الحسنة، لعله يتخلص من محنه وينتصر عليها يوما، بفضل ما عسانا نوفر له من معلومات عن المعرفة الصحيحة، وعن حدود الكون الذي لا نهاية لها، وعن الفوز بالطمأنينة الدائمة التي لا تعرف للقلق طعما ولا لونا، وعن الخلود الذي لا موت بعده و ... و ... و ... و ... وإليك الواوات متتابعة فادرج فيها ما شئت على هواك من الرؤى والآمال، والأماني إلى أبد الآبدين.

واستدرجتني الواوات وهمت فيها دون أن أعي ما أقول وما أطلب وأتمنى حتى كادت تخنق أنفاسي وتخرجني من جلدي، لأن غروري وطمعي كادا أن يستوليا على الدنيا والآخرة ويستبدا بكل شيء. فاستدركت الأمر من حسن حظي، وأبعدت الرسالة وتنفست ملء رئتي حتى لا أفارق الحياة، لأني كنت متعلقا بالواوات وحياتها الأزلية. سبحان الله! ما أكثر الوعود في دنيانا! وما عسى أن يكون حظي من الآخرة؟ استغفر الله، لأن وعد الله حق لا ريب فيه. فمن عمل صالحا فلنسفه ومن أساء فعليها.

لا بد أن تكون هذه الرسالة خطابا من خطابات الصدق التي تلاحقني في كل زمان ومكان، كأني خلقت لأستحملها. ولقد تعودت عليها. فهي ورائي في الخفاء والعلانية، كأنها جزء مني ومن منزلتي. إنها شبه لعنة أو خطيئة تفسد علي أمري، كلما اقتربت من الطمأنينة وخطاب نفسي الكمين وهواجسه. وعدت إلى رسالتي فلاحظت أن جزأها الأول قد امّحى، ولم يبق منه إلا ذيلها الذي كان يدعوني إلى أن أعمل في السرية المطلقة، وأن اعتمد التقية في سلوكي اليومي، سيما عندما أدخل المدينة

الجديدة، وابتلي بمحنها لأن سبل الصدق فيها متنوعة تدعو لها ملل ونحل كثيرة وتفرضها على البشر، كلما اشتد الخناق على الإنسان، وأصبحت لقمة العيش مرة، وتلوثت الطبيعة وماتت الورود، وتعفن النسيم وتلون الظلم، وانتشرت سوق الرداءة فأتت على الأصول، وكثرت الشائعات وحديث الليل المدهون بالزبدة ... وأضافت الرسالة: أنت في آخر المطاف. فابحث عنها. فنحن الحقيقة الجديدة، حقيقة القرن الواحد والعشرين وما بعده..

وما انتهيت من قراءة النص حتى اختفى كأنه لم يكن. ووجدت نفسي أمام مدينة شاسعة، دلتني إليها لافتة مضيئة كتب عليها "مدينة الصادقين". فما عساني أفعل في هذه المدينة، وما وراءها من المغامرات والرحلات والمعارك، والمصادمات والاختيارات والتأويلات والتخريجات، والأوهام والأحلام والنزاعات، والطهارة والنجاسة والحق والباطل، ونحن مازلنا في قريتنا في حاجة إلى الماء الصالح للشرب وإلى الخبز يسد رمقنا؟ فهل كتب علي أن أقضي العمر وراء الأعاجيب المبدجلة؟ ولقد صدق العرب لما سموا الكذب أبا العجب. فهل أنا محتاج إلى صدق أصحاب الخفاء؟ ولم يتستر هؤلاء الناس الذين يدعون أنهم قوة جديدة لم يسبق لها مثيل؟ إن أصحاب الحق لا يخشون النور.

– كذب المهلوسون من أمثالك وإن صدقوا. ستجدنا في انتظارك في آخر المطاف وسترى أننا أصحاب الصدق الصادقين

سمعت هذا الكلام يحيط بي من كل صوب. وفاجأتني مركبة فضائية فيها أربعة معسكرون مخوّذون ملونون: أزرق وأبيض وأخضر وأصفر ونادوني بصوت واحد وأمر واحد.

– أنت ضيف فرقتنا.

واحترت من أمري لما أعادوا نفس الأمر، وهم يتنافسون على الوصول إلي. ولقد سعى كل واحد منهم إلى أن يجذبني إليه حتى اختل توازن مركبتهم ، فسمعت صوتا مناديا

– هنا أصحاب الخفـــاء ... تجنبـوا العـودة إلى فوضـى الصادقيـن القديمـة. اعتمدوا الحوار والمباراة!!

فانضبط أصحابي في الحين واعتمدوا الحواسـيب للتبـاري، وغاية ذلك أن يتفوق فيه من يصيب في ذكر اسمـي ومولـدي وخصـالي الحميدة. ففاز بالرتبة الأولى الفريق الأزرق، لأن حاسوبه أجاب بأني أدعـي "تياه الصادق الهبّولي" من مواليد 1940، بعمادة المحاد، معتمدية تلتة مـن ولاية القرصين، ومن قبيلة دعلان العربيـة البربريـة الذيـن ينحـدرون أساسا من الكاهنة، وقد اشتهروا بسرقة البقر ليـلا، وبغنـاء نسـائهم في الأعراس والأفراح، خصلتي الكبرى الشك المفرط في كل شـيء حتى في نفسي وفي وجودي. وظيفتي مهندس في اأافكار المصيبة. أعيش بطالة دائمـة لولا بعض الأعمال الطارئة. أصابت رأسي شذرة مدفعيـة، إثـر هجـوم طوابير رومل على الجنود البريطانيين في الحرب العالميـة الثانية بمرتفعـات جبل الشعبوني، وهضبات منطقة الراش على مقربة من قرية تلتة. أمري يهم الفريق الأزرق لأنه يأمل أن يعود بي إلى الصدق الصحيح لا سيما وأن جدتي الأولى منهم ... المسألة مسألة عصبيـة قبليـة تؤيد في الصميـم رؤيـة المرحوم سيدنا ابن خلدون طيب الله ثراه.

وفاز بالمرتبة الثانيـة الفريق الأبيض الذي سمـاني "فرطـوط الصادق المهبولي" من مواليد 1938، أفلت من الخدمة العسكريـة في جيش فرنسا، وظيفتي غالية وعزيـزة: زير نساء عصري، وخصلتي الكبرى إتيـان الإثم حتى أفوز بالعفو. قضيتي تهم هذه الجماعـة، لأن الإثم عندهـا سـبيل المغفرة، وأنا في أمس الحاجة إليها حسب رأيهم. أما الجماعة الخضراء فإنهـا سمتني "ثعلب الصادق المهبولاني" من قبيلة بني غبراء التي تـأكل الأحنـاش والجرابيع في سنوات القحط والجوع، صدقها في بطونها، تحب الملل والنحل والفتن تنكرها جملة وتفصيلا وفجأة باسم الوحدة والأخوة والتضامن و ... و ... و ... وظيفتي اختصاصي في المحن والبدع. مسـألتي شائكـة لأني أفشيـت ذلك فيهم حتى ظنوا أن الشيطان قد استحوذ عليهم.

بقيـــت الجماعة الصفراء التي سمتني "المرتقع صدقي هبلان".

ولدت ولي من الأيدي أربع، ومن الأرجل ثلاث، وعيني واحدة. فأنا وحش بل صاحب الدابة، وفي حاجة حسب تلك الجماعـــة، إلى أن أتأنســـن وأن أدخل في زمرة البشر. الغريب أنّ كل ما قيل في كان يمـــر أمـــامي علـــى حاسوب كل فرقة. فرأيت نفسي، حسبما وصفها لي كـــل فريـــق. وازداد استغرابي من ذلك، عندما لاحظت أن كل جماعة ترفض رفضا باتا أن تـــراني كما تراني جماعة أخرى. المهم عند كل جماعة الاستمالة في تصورهـــا ،كمـــا عبرت عنه مهما كان القاسم المشترك بين تصوراتها. فلقد شعرت أنها تعتبرني كلها إنسانا صادقا – وهذا شيء مفيد – له صفتان غريبتان، مما ييسر عليهم بأن أحلل تحليلا فرويديا، وموضوعيّا واجتماعيـــا. ولله في خلقـــه شـــؤون! فأنا على قدر خطاب الصدق وقراءاته وترهاته، ومذهبياته، وأبعاده وغموضه كما يقولون ... و ... و ... و ... إني فرس رهان لا بد من الفوز بصـــوتي في هذه المدينة التي تجند فيها الصادقون لأداء واجبـــهم الأكـــبر، وأملـــهم الأوحد، وهدفهم الأسمى في هذه الدنيا، وهو أن يستبد صدقـــهم بصـــدق غيرهم بالإقناع والبرهان والعقل، والبيان والفصاحة أولا، ثم بالسب والشتم والاتهام والحيلة والمكر، والضرب والجلد، والتعذيب والفتك والسم والخنجر والرمح، والرصاصة، والصاروخ والقذيفة وبالقنبلة الذريـــة الهيدروجينيـــة والليزريـــة والخفيـــة و ... و ... و ... الأساس أن ينتصر صدق واحـــد أوحد في هذه المدينـــة.

لكن المعركة لم تحدث والأسلحة الفتاكة لم تســـتعمل! فمـــا السبب؟ لأن أصحاب الخفاء منعوها، ودعوا كل الجماعات الصادقة إلى بناء مدينة الصادقيـــن على الاجتهاد في الصدق. وذلك مـــا أقنعـــني بقوتهـــم وبرسالتهم. فلقد كان شعار الاجتهاد مكتوبا في كل مكـــان حـــتى ظننتـــه خطاب صدق جديد هزأت منه قليلا. وإذا بعلامة ضوئيـــة تظهر أمامي:

– لا تسخر من هذا المبدإ. إنه شعار الإنسـان بعـــد قـــرن 2000. تعامل مع الجماعات الأربع حسب الأولويـــة وسترى العجب!!

حلقت بنا المركبة وأشرفت على مدينة الصادقيـــن التي بدت مقسمة إلى أحياء، تعددت أشكالها واختلف معمارها على قدر اختلاف ملل أهلها من الصادقيـــن وكانت تفصل بين أحيائها حواجز صارمة يسهر عليها غلاظ شداد، وترفرف على كل جهة منها لافتات تدعو إلى احترام أصالتها، وتهدد بالويل والثبور كل من يقترب منها. وكانت تحلق في أجوائها مركبات من كل الأنواع والأنماط. فبدا لي أن البشريـــة كلها قد حطت رحالها بهذه المدينة دون غيرها. واستغربت من تلك اللهفة عليها، وفي الأرض من المدن ما يستحق العناية بها والرحمة بمشاكل عبادها. وإذا بعلامة مضيئة تبرز أمامي:

– انظر إلى قلب المدينة وإلى تلك العين الفوارة البديعة الـــتي ينبع منها ماء زلال يدعي الناس أنه ماء الحياة، من شربـــه عـــاش الدهـــر وارتضته الإنسانية إماما حكيما، صائبا، رحيما، عدلا و ... و ... و ...

– ومن فاز بها من هذه الجماعات؟

– تدعي كل ملة أنها خلقت لتفوز بتلك العين. ولقد خاضت هذه الملل حروبا مدمرة للاستبداد بها.

– ما موقف أصحاب الخفاء من القضيـــة وحقيقة أمرهـــا؟ أصحـــيح أن مـــاء الخلـــود ينبع منها؟

فأجابتني علامة مضيئة ثالثـــة:

– اسأل أهل الذكر منهم، واستمع إلى روايـــاتهم ورؤاهـــم ومشاريعهم ومشاكلهم لعلك تجد الجواب.

وعندها شعرت بمركبتي تتحول إلى الجنوب، ورأيت جماعـــة الفريق الأزرق يستولون على قيادتها، ويحتلون مراكزهـــم أمـــام مطـــاريف الكترونيـــة شرعوا في تشغيلها. ودعاني قائدهم إلى النظر إلى شاشة المركبـــة لاستفيد من معلومات عن حيّ الصادقين الزرق قبـــل أن نـــزوره. وقـــالت الشاشة:

– نحن أول ملة إنسانيـــة خلصت الإنسان مـــن الأوهـــام. فالإنسانيـــة كلها مدينـــة لنا بذلك. عددنا قليل وأعمالنا جليلة وعظيمـــة،

لأن الصادقيـــن قلة. ومنا العباقرة الأفذاذ في كل العلوم. فنحن وراء كـــل الاختراعات والاكتشافات، والمغامرات والثورات العادلة. فكولمبو مكتشف أمريكا منا ؛ تواطأت علينا الإنسانيـــة غيرة وحسدا. فلولا صدقنا المستميت لانقرضنا.

– ولم كل ذلك؟

– لأننا أمة راقيـــة منزلتنا عاليـــة.

– لم أرتضي لكم قدركم هذا العذاب،إن كنتم من المحظوظين المقربيـــن؟

– لأن قوة سلطاننا الفكري وطموحنا إلى أعلـــى المراكـــز، ومبادراتنا الحضاريـــة مدعاة إلى تألب أغلبيـــة البشر علينا، ولأننا تبوأنـــا مقاليد الأمور بالأمـــس البعيـــد ببابل والقدس ومنفيس، وأثينا ورومـــا، وبالأمس القريب ببغداد وقرطبة وتونس والقاهرة، واليوم بباريس ولنـــدن وواشنطن وغدا بالمريخ والزهراء و ... و ... و ... فالعين لنـــا ولا بـــد أن تعود إلينا. سننزل الآن إلى حينا من مدينة الصادقيـــن.

جبت مع جماعتي الزرقاء شوارع المدينة التي كانت مزدانـــة بالأعلام والشعارات المناديـــة بخطاب صدق الملة. وكان مركزا على المطالبة بالمزيد من الأرض حتى يقترب أهل الحي أكثر من العـــين الفـــوارة، بكـــل الوسائل ولا سيما بالتظاهرات والأبواق، والدبابات والطائرات، والصواريخ والمؤامرات في الكواليس: صخب دائم وعجب بالقوة. فعلى حساب مـــن؟ على حساب الجزء القديم من هذا الحي الأزرق، لأنه خيـــل إلي أن زيـــارتي منقوصة يحيط بها سر غريب. فبادرت جماعة الزرق بسؤال جانبي

– كيف كان نصيبكم من الجهاد في سبيل الصـــدق الـــذي يطالب به أصحاب الخفاء جميع الصادقيـــن.

فكان الجواب السكوت. فأعدت الكرة ثانيـــة وثالثـــة، حتى ظهرت علامة مضيئة من عند أصحاب الخفاء.

– ستجد الجواب مكتوبا على لوح محفوظ بين المدينة الحديثة والمدينة القديمة ... وهو جواب نسبي لأن الخلاف قائم بين أجزاء هذه الجماعة.

وقصدت المركبة في الحين تلك اللوحة الرخامية الخضراء المدسوسة في بهو صرح، رائع تحميه فرقة مسلحة. ولقد كتب عليها. "هذا اللوح يشهد بجهادنا في سبيل المحافظة على تراثنا وتواصله وبجهودنا في الاجتهاد في الصدق. فلقد قررنا ما يلي:

– أن نتفاعل مع كل حضارة، وأن نتعامل معها كأننا منها ؛ فنسمي بأسماء أهلها ونتعود بعوائدهم، وأن نكون دائما في صف أهل العزة والقوة ضمانا لوجودنا وقضايانا، وأن نعلق على هذا الأساس أحكاما كثيرة من خطاب صدقنا باعتبارها مرفوعة إلى أجل مسمى ومنها: الرق، والزواج بأكثر من واحدة والسن بالسن، ورفض ولاية النساء وإرث الذكور على حساب الإناث ... الخ.

فقلت في نفسي: عجبا! ... هذه ثورة!

فأجابتني الشاشة

– بل مؤالفة مع الزمن لا تمس الجوهر.

وعدت إلى قراءة اللوح ومبتدعاته ومحدثاته التي قالت:

– إننا نعتمد العلم والمعرفة والتقدم، والتسامح بيننا، والأدب والنبوغ والبدعة لنتفوق على جميع الأمم، ولنتخذ قدوة وأسوة حسنة يعتد بها الناس ونخدم بها مصالحنا وقضايانا.

فقلت في نفسي:

– هل سيقتنع أهل الخفاء بهذا الرأي؟

فبرزت في الحين علامة ضوئية سريعة تقول:

– في ذلك نظر.

وإذاك لاحظت أن اللوح أخذ يرتعش يكاد ينتصل من الحائط، وبرزت على جوانبه كتابات سوداء تقول

– لسنا كلنا على اتفاق.. هذا خطاب صدق فئة معينة. الحي القديم من المدينة يكذّب هذه الخرافة!

فارتمى الحراس على اللوح بآلات ضوئيـــة، وأصلـــوه نـــارا للقضاء على أبواق خارجة منه كانت تقول.

– هذه الأفكار كذب كاذب ... ادخل المدينة القديمة الـــتي عاثوا فيها فسادا ... اللوح مراوغة وأقوال معسولة تفندها أعمالهم المتعسفة.

فصرخت ثائرا محتجا.

– أريد أن أرى المدينة القديمة وإلا رجعت من حيث أتيت!!

فمنعني الحراس واشتد الصدام بيننا، وسعيت إلى الإفــــلات منهم. فلاحقوني وقبضوا علي وعنّفوني. فاستنجدت بأصحاب الخفاء. فـــلا جواب. لكني أحسست بهاتف يقـــول:

– تمهل وعد إلى قراءة اللوح قليلا، حتى تســـتعيد ثقتـــهم واقترب من باب المدينة القديمة حتى نساعدك على دخولها. ففعلت وقـــرأت الفصل الخامس الذي يقول:

– المدينة القديمة والمدينة الحديثة والعـــين الفـــوارة ومدينـــة الصادقيـــن، كلها لنا دون غيرنا، لأنها كانت لنا في عهد آبائنا الغابريـــن.

– وما يقول من كان قبلكم من الأقوام الذين سبقوكم إليها؟

واقتربت شيئا فشيئا من باب المدينة القديمـــــة، وتظـــاهرت بالاهتمام ببنود اللوحة الخضراء. فكنت انظر إليها دون أن أراها، وأوهمت أني مشغول بها حتى خفت الحراسة حولي. فتسللت بين الزوار والسياح حتى بلغت الباب فتجاوزته وسمعت صيحة.

– لقد انكشف السر وبدأت المحنـــة!!

أما أنا فارتعت مما رأيت وصرخت

– وستكون البدعـــة!!

ورأيت جنودا من نمط جماعتي الزرقاء بدبابـــــاقم وآليـــاقم يهاجمون المدينة القديمة، دون أن أرى أثرا لسكانها في أول الأمر. فظننت أن

الجنون قد أصاب الزرق المهاجمين. وتواصل الرمي والقصف على جـــدران المدينة القديمة التي أخذت تتحرك وتتقدم، وتخرج منها لوحات كتبت عليها شعارات تفند ما جاء في اللوح المحفوظ. وظهرت بغتة مئات من الأطفـــال الملثميـــن، كانت رؤوسهم أضعاف أجسامهم، تحميها خوذات لامعة ارتاع منها الجنود المهاجمون واستغربوا من أمرها. وكان الأطفال يحملـــون طبـــولا الكترونيـــة وعصيا لازريـــة. واحتموا بالجدران المتحركة، وضربوا علـــى طبولهم فانطلق منها دوي لم أعلم إذاك، إن كان فرقعة مئات من القنـــابل أو انفجار قنبلة ذريـــة. فكدت أجن لو لم يسعفني طفل بخوذة وضعتها علـــى رأسي. فعزلت عن كل ضجيج، لكنه خيل إلى أن زلزالا قد حلّ بالمدينة ومن بها. وتقدم الأطفال من كل صوب وحاصروا الجنود الذين أصابهم الهلـــع، ففرطوا في آلياتهم ولاذوا بالفرار. فانطلقت صيحة الأطفال.

– انتصرت البراءة على خطاب الغطرسة والغرور، وفـــازت بدعتنا. وسنستعيد المدينة الجديدة، والعين الفوارة ومدينة الصادقيـــن كلها.

وعاد الجنود الزرق ثانيـــة وأرسلوا ضـــوءا أخضـــر علـــى الأطفال. فصاح قائدهم:

– الضوء الكاسح! الانسحاب! سنعود إليهم بحيلة أخـــرى وبدعة جديدة!

وغاب الأطفال عن الأنظار وساد الضوء الأخضر الذي أخذ يبحث عن الأطفال ويلتهم الجدران والأشجار. فاحتميت بحـــائط هشمـــه الضوء الأخضر ، وصرخت في وجه أصحاب الخفاء:

– هل هؤلاء الأطفال منكم؟ ألم تروا أن جهاد هؤلاء الزرق في الصدق كاذب ... باطـــل

فأجابتني علامة مضيئـــة

– هدئ روعك. هذا هو عين العجب! مظلوم الأمس يجرب الظلم اليوم على الأطفال.

– لتتحرك مدينة الصادقيـــن بمللها ونحلها لصد الظالميـــن!

فقالت لي العلامة

– تعلم! تعلم من المحنة. إن ما وصل إليه أهل هذا الحي من اجتهاد في الصدق أمر حقيقي، يمكن أن تقيسه بجهاد غيرهم من أهل هـــذه المدينـــة الصادقيـــن.

– الصدق شيء والاجتهاد فيه شيء آخر. فـــهو في المطلـــق نموذج، وفي الحياة تناقض وفي التاريخ إيجابيات وسلبيـــات

وما كدت انتهي من تعليقي المتفلسف حتى صعق بي صـــوت الجماعة الزرقاء

– صدقنا صادق، كامل مكتمل لا يقبل الرأي المخـــالف ولا الشك. فنحن الحق المحق. ونحن الكلمة و ... و ... و ... وأنـــت مـــارق، فاسق، متهور، خليع، زنديق، نذل، حطيط، خاسر، تائه تستحق التعذيـــب والتنكيل والخنق، والشنق والقطع والسحق، والمحق والطعـــن و ... و ... و ... والذوبان في الضوء الأخضر لتتلاشى إلى حريرات تنسينا وجودك.

– يا لطيف! هذا نصيبي أنا فحسب! فما عسى أن يكـــون نصيب جماعات الأطفال والشعوب؟

وصوب الجند نحوي الضوء الأخضر الشهير، إلا أن ضـــوءا أحمر وهّاجا اعترضه واستولى عليه. فانطلقا يتصارعان، وتعـــالى حفيفاهمـــا وصريراهما ولهياهما ، كأنهما ديترووران فتاكان يتناحران. فـــهالني المنظـــر. وبادرتني مركبة من أصحاب الخفاء فارغة كتب على شاشتها:

– خلصناك بضوئنا الأحمر وإلا فتكوا بك. عـــد إلى نقطـــة الانطلاق. وهيئ نفسك للقيام بزيارة حي جماعة البيض حتى تطلـــع علـــى جهادهم في الصدق.

وتساءلت عن فحوى زيارتي لهذه المدينة وغيرها من المدن وما وراء ذلك من ترحال وتعب ونصب وملل وكلل، وخيبة أمل في الإنســـان، والدنيا والخفاء والفضاء، والصـــدق وحروبـــه الدائمـــة و ... و ... و ...

فظهرت أمامي علامة مضيئـــة.

– وعد الحرّ دين ... لقد اتفقنا علـــى أن نقيـــس اجتـــهاد الصادقين بصدقهم، وبما يلاقونه من محن، وبما يعالجونه بها من فطنة وبدعة.

– مستعدا وإن كان الجسم قد هرأ والعقل قد كلّ. الإنسان واحد، والصدق مختلف عجب عجب! العقل قد مات واستقال!

وجاءت علامة

– يجب أن يكون صبرك أوسع من أملك.

ونزلت بي المركبة في القاعدة الكبرى، وقصدت قاعة عمليات الجماعة البيضاء وحواسيبها وآلاتها الإلكترونيـــة. فقال رئيسهم

– نرحب بك ونعلمك أننا ملة كثيرة في كل بقـــاع الأرض، عددنا يتجاوز المليار والنصف وهو في ازدياد مستمر مما يدل علـــى صحـــة صدقنا وتعلق الإنسان به. فنحن على نصيب كبير من الصدق، إن لم يكـــن الصدق كله. فسألت:

– وهل الكثرة دليل على الصواب؟ إن صدق العجائز هـــو السائد في الدنيا وبه تحكم الرقاب مع الأسف الشديد!

فأفادتني الشاشـــة

– الأميـــة تكاد تكون عندنا مفقودة، وحقـــوق الإنســـان كاملة في حيّنا مضمونة، وقوانيننا تتقيد بآمال الأغلبيــــــة دون أن تســـتبد بآمال الأقليـــة التي يمكن لها أن تصبح أغلبيـــة. وذلك ما حصل في غـــالب الأحيـــان.

– يبدو أنكم همّشتم الفطرة وقبرتم كل سلطة عظمى.

– أمتنا من أعظم أمم الصدق في الدنيا. وهو يرتكـــز علـــى المحبة وجزاء العنف بالإحسان والمودة. لا فرق عندنا بين الرجل والمـــرأة في الحقوق والواجبات والوظائف. فنحن اليوم سواسيـــة كأســـنان المشـــط. فالارث بالتعادل والمتبنّى ابن من تبنّاه، ويد السارق لا تقطع، والإعـــدام في طريق الاندثار. لا نصوم بل نصلي، ونعبد العمل المتقن المفيد ليكون الإنسان سعيدا سعيدا و ... و ... و ...

فتنهدت متشككا

– هذه جنـــة! استغفر الله! هذا خطاب صدق رائع

ورأيت همسي يكتب على الشاشة. فاحتججت

– هذه جوسسة مفزعة. لقد تطور صدقكم حتى أصبحتـــم تستكشفون أسرار النفس. فأين المفر ياحضرة الأستاذ الجاحظ عندما تقـول "المعاني ... مستورة خفية وبعيدة وحشيـــة ومحجوبة مكتومة، وموجـودة في معنى معدومة، لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه ولا حاجة أخيه وخليطه ولا معنى شريكه والمعاون له على أموره." كلامك ترهات يا جـــاحظ! الخطـر مداهم حتى قبرك!

فأجابني صوت جهوري

– هذا من حسنات العلم والمعرفة. السر مضمون بقوانــين تعاقب من يخرق حرمة النفوس. فلا خـــوف عليـك ولا علـى الجـاحظ العظيـــم.

– لكن ما لكم تهدرون حرمة نفسي؟

– لإحاطتك علما بما وصل إليه اجتهادنا في الصدق الـــذي ركزناه علـــى العلم والتقدم.

– حجة واهية لأنكم اخترعتم سلاحا ذا حديـــن يحميكـــم ويسخر لكم أسرار غيركم حتى تستبدوا بها.

– أنت لا تقر حقا ولا صوابا، لأنك مـــن ذهنيـــة أهـــل الفوضى. فشكك هدام ومنطقك في التقدم متحجر سفسطائي.

فصرخـــــت:

– هل نسيتم أنكم أهل آراء حرة غريبة ذرت بكـــم ريـــاح الفتن، وهاجمتم الملل المخالفة واستوليتم على دنيا النـــاس، وبنيتـــم عليـــها رفاهتكم وتقدمكم وحضارتكم.

فقاطعتني ثلاثة أصوات موحدة.

– هذا خطاب عداء مفضوح، خارج من أعماق نفسك الأمارة بالسوء التي يعسر على حاسوبنا استكشاف أسرارها. فكأنك من أهل مدينة الحريم وخطابها العدائي. فقاطعت:

– من خطاب صدقكم تناحر فصائلكم، وإن ادعيتم وحدة صدقكم. وقلتم بفصل الصدق الأصدق عن السلطان وخرجتم ببدعة الإنسان معيار كل شيء ومقياسه، يتصرف في دنياه وعقله وجسمه حسب مصالحه ورغباته وأهدافه. فأين جهادكم؟

فحاصرني أربعة ملثمون ودعوني إلى امتطاء مركبة لزيارة حيهم من مدينة الصادقين، ولأقف أمام النصب الأبيض الذي سجلت عليه مآثر اجتهادهم. فامتعضت من عسكرهم وأوامرهم التي ذكرتني بأوامر الجندرمة الفرنسية وسلوكها في قريتي تلتة. وخاطبني أصحاب الخفاء

– هيا يا أستاذ تعرف وتعجب من العجب! وعساك ترى صورة أخرى منه، لأن باب العجب الإنساني مفتوح ... نعدك أنك سترى المحنة وستتابعك البدعة.

فعاد إلى حماسي وركبت مركبة غريبة لا يسمع لها حس، قيل لي إنها تتحرك بالذرة وتقطع آلاف الكيلومترات في الثانية. فهي أسرع من لمح البصر وسرعة الضوء. جن من الجنون! حفظنا الله وإياكم من هذه البدع التي أصبحت من تقاليدنا اليومية المحبّبة إلى نفوسنا، والتي فرضتها علينا الحاجة وقوانين الاستهلاك. فاشترينا السيارة، وركبنا الطيارة في انتظار الصاروخ إلى القمر و ... و ... و ... وتعلقنا بآلاتهم وملابسهم وأنماطهم التي استولت على الدنيا كلها ... وهي كلها بعيدة في نظر أهل الذكر عندنا، عن الأصالة والحياء، عفوا عن أحياء بلدتنا تلتة ومنازلها المتداخلة المتواضعة، وزنقها المحفّرة المدمرة، وسكانها الحفاة العراة كأن الله خلقهم ليكونوا من أصحاب العذاب ... فهي كما قال فيها بودودة مات باختصار: بلدة كعور وارم للأعور فلا نسبة ولا مناسبة بينها وحي البيض!!

فلقد رأيت حيا يلمع بياضا ونظافة وأناقة، يتمنى المرء أن يتخذ من شوارعه بيتا يسكنه، وفضاء يرتع فيه لينعم فيه بالخير ويتخلص من الحرمان والتلوث ... توفرت فيه كل الخيرات من مأكولات ومشروبات، وملبوسات، وتيسرت فيه للإنسان كل الرغبات والشهوات، وانطلقت فيه الحريات والمحظورات التي أصبحت فيه قضايا تستدعي التفكير لإدراك عللها ومقاصد الإنسان منها. ولأول مرة شعرت أن السعادة متوفرة في هذه الحياة الدنيا. فكأني بأهل الحي يعملون كأنهم يعيشون أبدا. الجنة كانت بين أيديهم في انتظار جنة الآخرة. الجنة عندهم جنتان ... كسب عظيم. ولقد بدا لي أنهم شرعوا في إعداد العدة للفوز بالجنة القادمة، فسخّروا حاسوباتهم ودراساتهم للاعتناء بها ليضمنوا مقاعدهم بها، لأنهم يحسبون لكل شيء حسابه، ولأنهم يرون أن من يحسب للخير لا يجد إلا الخير ... عملية عقلية بسيطة. فمن يدري! وعرجت بنا المركبة على العين الفوارة فقال لي قائدها:

– هيأنا للإنسان كل شيء حتى يستحق هذه العين بالحكمة والرأي والعلم، والحساب والتدبير لأنها جزء من تراثنا ورؤانا المستقبلية. ها هو نصبنا الأبيض الأشم الذي يشهد بجهادنا في سبيل الصدق.

وظهر لي النصب ورأسه في الفضاء، كأنه يتحاور مع السماوات ويناغي السحب والغيوم. وكان يدور على نفسه، يريك كل جانب منه عجبا وبدعا متجددة. فلقد عرض على وجهه الأول أروع الأنغام من موسيقى الدنيا كلها. فسمعت ألحانها آتية من جميع الأصقاع، من أول التاريخ إلى لحظة وجودي قرب النصب. وأمتعني وجهه الثاني بأجمل لوحات الرسم التي تعتبر من روائع الإنسان في دنياه. وبادرني وجهه الثالث بجهاد الإنسان العلمي، وما جاد به العقل البشري من اختراعات وإبداعات، مرت أمامي فدوّخت فكري، شاهدة بأن الله خلق الإنسان ليبدع ... خلق الإنسان علمه البيان.. وأعجبني وجهه الرابع الذي لم يغب عنه أن الإنسان كلول ملول، فهيأ له من فكاهات الدنيا ومضحكاتها وبهلوانياتها ما يعبر عن

عقليات البشر وحقائقهم، وسذاجتهم وعنجهيتهم، وذكائهم و ... و ... و ... فضحكت حتّى غصصت وتلويت، واستلقيت على ظهري مثل بعض أمراء المؤمنين، ورجلاي في الفضاء، من دون أن أكون ... وطربت وبكيت وتخلصت من عقدي، ورقصت وهرولت، وغنيت، ونسيت الهموم والغموم والرداءة والمحسوبية، واللصوص والكلاب، وأذنت وحمدت الله وشكرته على نعمه ؛ وكدت أطير وأخرج من جلدي من أجل الإنسان العجيب العظيم الحقير و ... و ... و ... حتى سمعت صوتا يقول:

– أخذ منك الطرب مأخذه، حتى فلتت منك وجوه عديدة من النصب غريبة ... والآن سيأتيك الوجه الأعظم وفيه اجتهادنا في الصدق. وهو سر سعادتنا التي ننعم بها اليوم وإلى أبد الآبدين.

– كان لا بد لي أن أستفيد من فكاهاتكم، حتى أروح عن النفس. لقد كاد الضحك أن يموت في البلاد ... عبس قمطرير، وغضب زمهرير، وخوف بالقناطير وعالم مهول، عربيد شريرا!!

ووقف النصف على وجهه المائة والألف. فكان مرآة لامعة مقسمة إلى مربعات تفصلها خطوط جميلة ملونة. وظل صامتا. فتعجبت من أمره. وفجأة برزت على المربعات شعارات تقول:

– نحن الملة الإنسانية التي رسخت قدم الإنسان في العلم الذي حرره من الخوف والكهانة، والشعوذة، والظلامية والأنانية و ... و ... و ... فهمهمت

– وهذا هو عين خطاب الصدق المغرور الذي ينفي غيره.

لكني واصلت قراءة الشعارات:"

– فصلنا الصدق عن السلطان بعد معارك دامية، حتى لا يدنسه ما يطرأ على السلطان من مفاجآت التاريخ وملابساته. والصدق الصحيح لا يحتاج إلى سلطان يفرضه بالقوة مهما كانت حجته. فهو اختيار وقناعة ورأي. فلا مفر من الرأي وحقه في الوجود ... حقوق الإنسان من مفاخرنا وجهادنا الأكبر، وعليها شيدنا مجتمعاتنا ... لأن نكرانها دليل على

عجز من يرفضها ... في القرون ما بعد. الألفيـــن نحن ننتظر نشأة الإنسان صاحب الدنيا والكون، السليم عقلا وجسما، الجميل، الصادق، الـــودود، العطوف، الرحيم، الحر، المتضامن، المنـــاصر للحـــق، العـــادل، الأنيـــس، الطروب، الضحوك، الفنان، الشاعر، المغامر، المؤمـــــن بـــالعقل وبدعـــه، العالـــم، الحكيـــم، المجدد العاشق، المتيم، الناشد الشادي و ... و ... و ... الطالب للعرش لينالها .

أعترف أن هذه المواصفات الحسنات تبهذل. فلقد كـــــادت تفجر قلبي لولا عطب أصاب المقسم الموالي من النصف. فرأيـــت الارتبـــاك يستولي على رفاقي الذين انطلقوا نحوه، وقد أخذ يـــدور بســـرعة مهولـــة احولت لها عيناي، ولخبطت ذهني وكدت أطرح أرضا. وسرعان ما خـــرج من النصف بوق عظيـــم ينادي:

– هذا خطاب الصدق العنصري المميز الذي يرى أن الصدق من حق الغالب المتفوق، والذي استولى على المعمورة وعلى خيراتها، وعليها شيد شعاراته وسعاداته ... هذا خطاب حلال عَلَيَّ حرام عليكم.

فقلت.

– ما شاء الله! حتى أهل العلم في تفاضل يعمهون ...

وهممت بالرجوع إلى قاعدة أصحاب الخفـــاء ؛ وإذا ببـــوق الجماعة البيضاء يصرخ في وجهي:

– لا تسلم بترهات الأقوام البدائيـــة الوحشيـــة الملونة التي لا تعرف طعما للحضارة وحق الإنسان. إنهم حفاة عراة من أهل البطالـــة، والكسل والتهاون والتواكل، والخرافات والأساطير، والشعوذة والـــرداءة الذهنيـــة والفقر الفكري، والتقهقر العلمي، ومن دعاة الفوضى والإرهاب والعنـــف، لا يقـــرون إلا بالدكتاتوريـــات والعســـكريات، والقبليـــات والمحسوبيات، والزعيـــم الواحد الأوحد. لن تقوم لهم قائمة إلا إذا أخذنـــا بأيديهم، وسيرنا شؤونهم عن قرب، ورعينا نموهم وتطورهم. نحن وراءهم في

كل مكان.. فابق في مكانك حتى يعود النصب إلى دورته الطبيعيـــة وسترى العجب.

ونظرت إلى النصب فإذا به جامد حزين لا يتحرك، وخرجت منه مرة أخرى لوحات سوداء وصفراء وحمراء كتب عليها:

– أين الهنود الحمر! أين سود أمريكا! هل تتذكر ســـطيف ودير ياسين، وهيروشيما وتربلنكا وداشاو، والبوسنة والفيتنام و ... و ... و ...

واشتدّت أصوات الأبواق، وقابلتها الجماعة البيضاء بالمدافع والرشاشات والقنابل، حتى اختفى عن عينـــي النصب الجميل الأبيض كأنه لم يكن. فاشتد صداع رأسي والتبـــس علي الأمر فصرخت:

– صدق أولا تصدق! العالم في دوامة والمحنة مستمرة..

فأجابني أصحاب الخفاء بعلامة مضيئـــة:

– لقد رأيت المحنة والبدعة. ولعلك ستفيد منهما. عـــــد إلى القاعدة قبل أن يصيبك فريق البيض بسوء.

وحملتني مركبة فارغة كتب على شاشتها: الرحلة القادمة إلى الجماعة الخضراء. لماذا؟ لأني مللت المحن والبدع. وكدت اقتنع أن رســـالة الاجتهاد في الصدق على جلالها، تؤول في نهاية الأمر إلى رسالة تفاضل ثم إلى ميثاق يستبد به السب والشتم وبعبارة أخرى المبادئ البدائيـــة! استرخيت للنوم وسلمت أمري إلى قادر قدير، لأنـــه كتـــب علـــي أن أزور مدينـــة الصادقيـــن بإحيائها كلها، وإلا استحالت عودتي إلى قريتي ســـالما. فكـــأني حاج مغربي يقطع المسافات على رجليـــه. ومن واجبات حجه أن يزور مكة المكرمة، وبعدهـــا المدينـــة المنـــورة وبعدهما القدس الشريـــف، وأخـــيرا القيروان الكريمة وإلا كان حجه منقوصا. تلك هي آداب الرحلة وأصولها.

استقبلني جماعة الخضر في قبة زجاجيـــة عائمـــة، يمكن لها أن تختفي في الماء بسرعة فائقـــة. بادرني رئيسهـــــا:

– المعلومات سنرسلها إليك عبر أصوات وصور مترجمة في لغتك الأصلية التلتية، حتى لا يطلع عليها خصومنا من الأحياء الأخرى. وبعدها سندعوك إلى زيارة حينا والاستفادة من اجتهادنا في الصدق.

ارتبكت قليلا لما رأيت رموزهم الرياضية، لأني لم أكن بارعا في الرياضيات أيام الدراسة ؛ فلم أفهم منها شيئا لما رأيتها تتسارع نحوي على شاشات هذه الجماعة الخضراء. إلا أنهم ألبسوني سماعتين أراحتا بالي، لأنهما قلبتا ما كنت أراه إلى كلام وتواصل. فقالت الرموز وترجمت السماعتان.

– نحن من حيث العدد نتجاوز المليار. ومنا من يرى أننا بلغنا المليارين أملنا أن نشمل البشرية كلها عما قريب ... نأمل أن نبلغ كل أنحاء الكون، ومدينة الصادقين وعينها الفوارة وحتى مدينة المريخ، لأن أمر النّساء يشغل دائما بالنا: قضينا على الجاهلية وصدقنا كل صدق صادق.

فبادرت

– هل لي أن أسأل سؤال الشياطين؟ وهي في صدقكم وصدق غيركم موجودة تستهوي الإنسان والقلوب؟

فأجبت بأن ذلك ممكن

– إن جماعة الزرق وجماعة البيض يدعون أنهم الأخيار، وأنهم على حق مثلكم في الصدق الصادق.

– كان ذلك في العهود الغابرة. ولقد نسخ ذلك الصدق وقام صدقنا.

فرددت

– إلا أن أمرهم ما زال قائما في زمانكم، وحتى في دياركم، وحقهم أشد من قبل لا يقيسون الحق بعددهم إلا نادرا.

فلطمتني ترجمة مرتعشة كان لها رجة بسمعي:

– ذلك كذب وبهتان. كأننا بك من ملتهم. فهل جئنا بك هنا لتكون نقمة علينا؟

صرخـــت:

– ولست عبدا من عبيدكم يقنع بالتهديد والترهيب.

فأجابني أصحاب الخفاء.

– المعذرة عما حدث. إنه مجرد حماس لن يتكرر.

فحمدت هذا الموقف الحكيـــم، وطلبت مزيدا من المعلومات عن هذه الجماعة، فانهالت علي الرموز وتزاحمت ترجماتها.

– نحن أول من دعا إلى الصدق الأصدق، وكرمنا كل إنسان صادق، ونادينا بتضامننا مع الصادقين الأوليـــن والقائميـــن والقادميـــــــن، وحملنا تراث الإنسانيـــة من مصريـــة وأشوريـــة وفارسيـــــة ويونانيـــــة وهنديـــة وصينيـــة ولاتينيـــة، وحفظنا علم العالميـــن وصدقهم من مغبات الدهر وغلبة النسيان، وغطرسة الجهل والظلام. وكنا أول عصبـــة للأمـــم والأجناس وسوينا بينها في الصدق، وشحذنا عزم المعرفة ومغامراتهـــــــا، وجعلنـــاها ثـــروة مشتـــركة بيـــن الخلـــق أجمعيـــــن ... وعنا أخـــذت الدنيا الجديدة زينتها وروعتها و ... و ... و ....

غمرتني تلك الخصال حتى كادت تسد سماعتي المترجمة، لكن لسان الحِجاج عاد إلي ثانيـــة.

– إني أخشى أن تكون رؤاكم أقرب إلى خطاب الصدق منه إلى خطاب التاريخ المعيش الذي يشهد بأنكم في الغـــالب تعيشـــون علـــى فرقـــة، وأن كنتم تتمنون دائما العشرة ومغرياتها.

فجاءني رمز يسعى كالقنبلة من دون أن يترجم، ففهمته

– محاسننا أكثر من عيوبنا ... وفي ذلك حجة على ما نقول

– لكنكم تفرّقتم أيدي سبأ ويئس الناس من تفاؤلكم

– نحن ما زلنا نبحث عن وحدة اللحمة لتحمينا من أنفسنا، ومن الإرهاب والعذاب ولتستقيم على حقوق الإنسان.

فصدرت عني ضحكة صاعقة غير إراديـــة احتار لها كل من كان حاضرا وقلت:

– حقوق الإنسان عندكم! يا للعجب! اذكروا لي في الماضي والحاضر نصا واحدا أو مؤسسة واحدة أو دستورا مدنيا واحدا، أو دولـــة واحدة، أو نضالا واحدا أو أميرا واحدا، أو مفكرا واحدا أو شاعرا واحدا، أو موسيقارا واحدا تصور حقوق الإنسان في رمتـــها وعمقـــها وتطبيقـــها، وجاهد من أجلها وسعى إلى تطبيقها ولو مرة واحدة على مجتمعكم.

فهاجتني الرموز والأصوات كالبحر الهائج، واهـــتز فريـــق الخضر واستبدّ به الارتباك والاضطراب، ولكنه أجابني في النهايـــة بهدوء

– أحكامك المطلقة دليل على أنها خاطئة مطلقا. نصوصنـــا ومآثرنا في طلب الحق العدل تشهد بخلاف ما قلت.

– كثير من نصوصكم تشهد بالفجائع والاستبداد الفـــردي، والتعذيب والتنكيل، والتمثيل بالخصم وهدر دمـــه، واســـتئثار الســـلطان بالأرواح والأموال كما يشاء.

– مرت بنا تجارب تاريخيـــة نقرها ونأسف لها. فمـــا لـــك تؤاخذنا بها ولا تقيسها بتجارب غيرنا؟

– فهل تبرر السيئة بالسيئة؟ وهل يعالج الوباء بغض الطرف عنه، لأنه منتشر عند غيرنا باعتبار أن المصيبة إذا عمت خفّت؟

فأجابني جماعة الخضر بهدوء مرة أخرى

– أتتهمنا بالتواكل وتحملنا هموم الإنسانيـــة كلها؟

فبدا لي أني بالغت في الحكم، لأن المركبة أخذت ترتعش وتهتز مجنونة ثم غاصت بنا في أعماق المياه. فاختنقت أنفاسي وتغشـــى بصـــري، وظننت أن المنية قد حضرت. وانهالت علي الرموز والشعارات، تنعتني بشتى الأوصاف اللطيفـــة التي لا يجوز ذكرها هنا. فأفحمتني بفصاحتها وبلاغتـــها حتى أصابني الهيار، وشككت في وجودي وقلت

– هذا مجرد كلام بكلام. فما عسى أن يكون نصيبي لو كان أفعالا. أنا أريد أن أخرج من هنا ومن هذا الحي! النجدة! النجدة!

وظهرت أمامي علامة أصحاب الخفاء.

– هدئ من روعك ... ألم تتعود المحن والبدع والعجائب والعنف والجدل؟

فلم اقتنع بهذا الرأي وطلبت أن أفلت منهم. فسمعت رئيس الخضر يقول لي:

– لا بأس عليك وعلينا ... في الخلاف رحمة مهما كانت الزوابع. نحن على استعداد لمعرفة محنتنا ومعالجتها، لأننا نريد العين الفوارة والريادة تعود

– ما أحلى الحكمة في أفواه كبار النفوس

وهمس أصحاب الخفاء.

– هذه فرصة لتسألهم عن اجتهادهم في الصدق.

ترددت قليلا ثم قلت:

– المعذرة عما سلف مني من تعسف. إني أريد أن أزور حيّكم وأن أتمتع برؤاكم واجتهادكم في الصدق.

فجاءتني الرموز والعلامات صاخبة تزغرد، وتنشد وترحب. وحطت بنا المركبة في بستان جنة فيه الحور العين والفواكه، وأنهار اللبن والعسل والكوكاكولا والفانتا و ... و ... و ... والطيور، والحيوانات المفترسة والأليفة، والقصور التي ذكرتني بقصور هارون الرشيد، وألف ليلة وليلة، ومانتي كارلو، ومربالا وباريس، وواشنطن، مما جعلني أعتقد أن أصحابي أتوا بي إلى حفلة باشاوات ليخدروني ويشيخوني، فيكرمون بطني وجيبي حتى تستحي عيني ويموت قلبي. وذلك عين الخطأ لأنهم أدخلوني قصرا بديعا فيه شاشة من ذهب، وإذا بالرموز تقول:

– ألف ألف ألف ألف ... مرحبا بك، ونعلمك أن ما ستقرأ هو الصدق الأصدق عن اجتهادنا في الصدق. لقد قررنا أن نرفع رايات العلم والتقدم لغزو الفضاء وبلوغ العرش، والتخلص من كل تلوث فكري وحضاري ولغوي، وإحياء خطاب الخضر الموحد الناصع البري،

العادل الذي يفضل العمل على التواكل، والمساواة في الحق والثروة، والاستراحة في النهار عند الصيام، والكد ليلا تعويضا عن بطالة اليوم و ...

وكنت انتظر المزيد من هذه المعلومات الجريئة ... لكن النور تقلص وظهر أشخاص ملثمون بأيديهم قناديل كهربائية. فاستولوا علي وعلى رفاقي، واقتادونا إلى منطقة من الحي، فيها مستنقع، يسيل منه ما ء عفن، وتتبخر منه روائح نانتة. وبلغنا ساحة مظلمة نادانا منها مناد قال

– نحن عالمهم الملعون، المغبون، المخفي وراء ذهبهم وأجنتهم. يحرمون علينا باسم الصدق ما يحللون لأنفسهم في الخلوات والقصور، ويعلنون بأن من تحزب خان وبأن الرق أمر حلال، وحقوق الإنسان خرافة مستوردة، والزواج بأربع ضرورة، والسن بالسن خير علاج لتهور الإنسان. فلقد عزلونا ببروج غابرة، خنادقها نتنة لا يدركها فارس ولا طائر ولا شاعر، ولا فيلسوف رحيم ولا فقيه حنون. نحن معهم في حرب ونعيش معهم حيرة لها رأسان: رأسهم الذي يبحث عن الخلاص بالاستئناس بالأمس الدابر، ورأسنا الذي يبحث عن الغد الصعب والعين الفوارة. الحرب آتية بعد حين. هيا ادخل معنا!

فظننت أن هؤلاء الناس من أصحاب الخفاء. فخشيت أمرهم واندفاعهم، لأني في الحقيقة كنت أحب مثل السواد الأعظم نصرة الفقراء من دون أن أصبح فقيرا. فلقد اكتويت بالفقر، وتخلصت منه بعناء، وتعودت على البحبوحة من دون أن أنكر نصرة الفقراء، لأن إقناع الأغنياء بفقر الفقراء من منزلتي تلك أنفع وأجدى مما لو كنت فقيرا لن يستمع إليه أحد. منطق غريب، لكنه يبدو أنه من أخلاقيات اقتصاد السوق ... وما كدت أخرج من تفلسفي حتى وجدت نفسي في حدود مدينة الفقراء، وسمعت صريرا يشبه صرير الدبابات، ورأيت أضواء حمراء وخضراء وبيضاء وزرقاء تتصارع في الفضاء. وانطلق الضوء الأبيض يهاجم الضوء الأخضر، ودعا إلى نصرته الضوء الأزرق ليساعده على الفتك بالضوء الأخضر. واشتد الصدام والكلام والخصام حتى ظل الضوء الأخضر وحده. وشرع يلاحق الملثمين من

أهله. فزلزل الأرض والقصور، وأصبحت الدنيا نيرانا تلتهب ... وسمعت صوتين متشاجرين يسألانني.

- وأنت إلى أي رأس تنتسب وإلى أي رأي تميل!

فوجمت وارتعشت وطلبت مهلة. فأجابني الصوتان

- مرت علينا قرون ونحن نتخبط في هذه الحيرة. أنصارنا في انتظار جوابك.

فقلت منتصرا

- الضرورات تبيح المحظورات .

- لكن ذلك لم ينفع. فهو جواب لا يسمن ولا يغني الجائعين منا، التواقين إلى العدل والحركة والتقدم.

- نعتمد التآلف مع الزمن والتاريخ.

- لكن ما رأيك في آفات المجتمع وخطرها على صدقنا الأصدق الذي لا يؤمن بآراء المارقين الجائعين من هؤلاء الخطافين؟

- آفات اجتماعية يمكن تجاوزها، وإن كان لم يسلم منها مجتمع وحتى أصحاب الصدق الأصدق. فما بالكم بالشعراء وأصحاب الفن والمتعة ... فالشفاعة تهون الذنوب والكبائر.

- هل هذا هو مجتمعك المنتظر؟

- اجتهاد في شأنه ... يرفض أن تقوم حرب بينكم من أجل شاب طروب، وغانية فاتنة لعوب. فالدنيا لا تخلو من الفتنة والجمال، والرحمة أوسع من كل شيء.

فسمعت بوق الخضر يصرخ

- لعنة الله عليك وعلى آرائك الزائفة. فلقد قوضت جوهر الصدق مع أولائك الملثمين النورانيين، وحطمت مبادئه السامية، وحوّرت نصوصه الواضحة التي لا تقبل زندقتك ومروقك، وآرائك الملعونة المستوردة التي جعلت منك لقيطا فكريا وثقافيا وحضاريا. عليك اللعنة إلى أبد الآبدين!

فلاحظت أن هذا الخطاب النابع من أفراد أهل الحيرة المزمنة، لم يتحول ولم يتطور، ولم يجدد حتى في أساليب شتمه وترهيبه وإرهابـــه، وإن تمرأت وماتت، وإن آل به الأمر إلى قبول اليوم ما رفضه بشدة بالأمس ... والعينات على ذلك شهيدة ... فلقد جاء جوابه عن معضلات الأمور دائما سلبيا ناكرا، أو متأخرا متسترا. ولمت نفسي على صراحتها، وعلى سعيها إلى الرحمة بالسواد الأعظم الذي تسلط عليه الأحكام القاسيـــــة والواجبـــات الكاملة، دون غيرهم من أهل اليسر الذين لا يتحرجون من خرقها في السر والعلانيـــة ... فاستنجدت بجماعة الملثميـــن الذين ردوا علي

– نحن كنا ننتظر منك حلا جذريا ... وإذا بك تقـــدم لنـــا حلولا مائعة قد أكل عليها الدهر وشرب، وزهقت منها الشعوب في سلوكها اليومي. لذلك أقررنا أن الإنسان مقياس كل شيء. فلا صدق ما دام يعرقل حقه في التصرف في جسمه وعقله وحريته كما يشاء. فلقـــد مـــاتت آراؤك النخرات وشعوذتك المتناصفة الحلول، ومعادلاتك العاجزة، وتواطؤك مـــع الاعتدال الراكد، وخيانتك للعقل الحر الذي يقرأن ما هو حرام عندك ممكن أن يكون حلالا عندنا ... فأنت مراوغ ولا بد أن تسجن حتى نأمن فتنتك!

فهرعت أجري وأركض في كل صوب، لأن فريـــق الخضـــر وملثميهم كانوا يبحثون عني ويلاحقونني لأكـــون كبـــش فـــداء حـــيرتهم الأزليـــة. فصرخت

– يا أصحاب الخفاء! إلى أين المفر؟ وعد الحر دين! أنـــا في خطر.

ورأيت علامة مضيئة وراءها مركبـــة

– طالت محنتك. الحرب علي وشك الانفجار بين بني العـــم. وتلك هي سنة هذا الحي منذ أكثر من عشرة قرون، والمأساة دائمة والحـــيرة قائمـــة.

فحمدت الله على النجاة، وامتطيت المركبة وفي ذهني تلـــك الشعارات المتناقضة التائهة في التضامن والأخوة، مـــع مواصلـــة التصـــادم

والتناحر والتقلب والتشقلب و ... و ... و ... وخيل إلي أن هذه المدينة تحيى وتموت من أجل امرأة منهم من يريدها محجوبة، ومنهم من يريدها سافرة وحولها يقيمون الدنيا ويقعدونها، من دون أن يخرجوا من هذا الهم وما وراءه من عقد وأزمات.

قضيت ليلتي عند أصحاب الخفاء في القاعدة الرئيسية من مدينة الصادقين. وانغمست في أحلام مزعجة، ورأيت آلافا من الناس تحاكم من أجل الحرام والحلال اللذين ظهرا رجلين واقفين حول القضاة الحاكمين. فكانا يتمططان ويتقلصان حسب كل قاض. فأخذت مترا وشرعت أركض وراء الحلالات والحرامات المتنوعة البيضاء، والزرقاء، والخضراء، أقيسها لعلي أجد لها معيارا موحدا يجمع بينها. فلم أفلح واستيقظت منهوك القوى، فارغ اليدين، سعيدا بوجودي حيا أرزق، ومستعدا للعودة إلى قريتي، وقد انتهت محنتي. فلقد رأيت من الصدق والاجتهاد فيه ما يكفيني لأزوّد به صدقي الشخصي بما يستحق من آراء ورؤى. إلا أن علامة مضيئة جديدة وردت علي من أصحاب الفضاء تقول:

– ما زالت لك زيارة أخرى ... إلى جماعة الصفر، وسترى العجب العجاب.

– إني أرفض رفضا باتا أن أتعرف عليهم!

– إنهم الأغلبية الغالية ... ملايين، مليارات! فكيف تعرض عنهم! فحكمك على البشر أو هم لا يستغني عنهم.

– وهل من الصدق التعلق بالأصنام والحيوانات، وتعدد نصبها التي كثرت أيديها وأرجلها؟

– هذا تلفيق لا يليق بإنسان مثلك يقدر حق كل فرد بما يرتضيه من الصدق ، وإن كان يبدو لك ساذجا ...

– لكني علمت أن منهم من حصر الصدق في إنسان حي.

– وهل يجوز لعاقل أن ينكر حق تلك الجماهير الجرارة؟

– العدد لم يكن علامة على نصرة العقل، وحسن البصيرة. المؤمنون قلة. إنهم على صدقهم مصرون مثل الزرق والبيض والخضر.

– مبروك عليهم ولاؤهم لأصلهم وأصالتهم، لهم دينهم ولي ديني.

– وهذا عين الصواب مع افتراض التسامح لأن الخلاف في الصدق لا يفسد للود قضية.

– وما يمنعني من أن أبشرهم بصدقي.

– شريطة أن تقبل بأن يبشروا بصدقهم في أهلك.

– لكن حقي أحسن من حقهم.

– تلك عين المشكلة وسبب الخلاف والحروب. فإن نظرت الى عددهم يبدو أنهم أحق منك بالحق

– سيزداد عدد أمتي وإذاك أكون الغالب.

– سبق لك أن قلت إن العدد ليس مقياسا على الحق. فالفئة القليلة قد تكون أكثر حقًا من الفئة الكثيرة. ألا يليق بك أن تخرج من مهاترتك التي أكل عليها الدهر وشرب. إن خطابك الجدلي يحتاج الى تجديد. هيا بنا إلى حي الصفر

– لا! لا! لا! مثلثة لا رجعة فيها

– اتق الله يا رجل؟ طيب ستزور ذلك الحي من دون أن تفارق مقعدك، وسترى تلك الملة على حقيقتها على الشاشات المحيطة بك كأنك في سهرة تلفزيونية.

فاستحسنت الفكرة، وإن كنت أشعر في قرارة نفسي أني ظلمت تلك الملة الغفيرة ؛ غير أني خشيت خطب الصدق والتنازع في تصور الحق والتناحر من أجله، واعتماد الملائكة والشياطين على السواء للاستبداد به. المهم أن الصور المعروضة علي بينت أن مدينة الصفر كانت تشابه المنحلة بدأبها على العمل والجد والكد، دون راحة ولا ملل. وعلمت أنهم أهل حضارة عريقة تكاد تسبق كل الحضارات في المعرفة والعلوم والفنون، وأنهم

انتصروا على الغزاة البيض بجهادهم في سبيل الصدق واصبحوا قدوة للعالمين. ألا أن الصور بينت كذلك أن مأساقم مأساة غيرهم من الفرق السابقة في تنازعهم وتناحرهم من أجل الحق والعين الفوارة. فحمدت الله على صدق حدسي الذي علمني أن إنسان التاريخ لن يجدد تاريخه وموقفه من الحق، ما لم يغير ذلك التاريخ بالاجتهاد في صدقه وصدق بني عشيرته. وكثيرا ما يكون ذلك جهادا مرا مريرا لجاحه غير مضمون مع الأسف الشديد.

وعلى هذا الأساس اعتبرت أن مهمتي قد انتهت. فسررت بقرب عودتي إلى قريتي ؛ وهاجتني أفكار ومشاريع من كل صوب، وتلاطمت في ذهني وطفح لها قلبي. فلقد خيل إلي أني فزت بمنهجيات وتكنولوجيات رائعة، واجتهادات مدهشة سأنفع بها أهلي من أبناء مسقط رأسي الكرام – والأقربون أولى بالمعروف طبعا – وكذلك أهل الأقطار النامية المبهذلين العائشين على هامش التاريخ والحضارة والرفاهة والخبز والماء، والدواء وراحة البال، والضحكة والمسرة والابتسامة و ... و ... و ... على شرط ألا أصبح زعيما من زعماء خطاب الصدق. وخاطبت أصحاب الخفاء لأودعهم، فلم ألق جوابا. وأعدت الكرة دون جدوى، ولاحظت أن الشاشات المحيطة بي كانت مشوشة، وازداد اضطرابها، وانطلق منها ضوء بيان نذير يقول:

– الخطر داهم. أحياء الصادقين كلها تتحرك. أهلها يقصدون بعددهم وعدقم العين الفوارة للاستيلاء عليها. لقد قرر كل حي أنه جدد اجتهاده في الصدق بما فيه الكفاية ليصبح جديرا بالفوز بالعين الفوارة. كل حي يدعي أن الخبير الأممي الكوني الطويل العمر، الطويل الاسم "تياه الصادق الهبّولي / فرطوط الصادق المهبولي / ثعلب الصادق المهبولاني / افرنقع صدقي هبلان / – قد كان على بينة من تجديده في خطاب الصدق، وشكره على جهده وجهاده، وبوأه ليكون حارس العين الفوارة بلا منازع و ... و ... و ... فقاطعت البيان:

- كل هذا كذب وبهتان وافتراء !!!

إلا أن البيانات الصادرة عن كل فريق ادعت أن الاختصاصي الدولي الألمعي المذكور البارع في خطاب الصدق، قد وقع على شهادة بذلك وأوكل الوصاية له على العين الفوارة.

فزعقت

- أنا لم أكن خبيرا ولا اختصاصيا ولا وصيا، بل مجرد مسافر زاده العقل، يبحث عن الطبع السليم الإنساني المشترك الذي أوصانا به ابن رشد رحمه الله، لأنه وسيلة الصواب ومسلك إلى الحق البعيد.

لكني لاحظت أن كل بيان من البيانات المتقابلة قد أضاف:

- وعلى هذا الأساس فإن ملتنا من مدينة الصادقين تدعو غيرها من الملل إلى الإذعان لها، واحترام القانون الدولي الكوني ونصرته. فما عسى أن يكون رأي أصحاب الخفاء؟

فقفزت مناديا:

- نعم! نعم! الرأي عندكم وإلا كانت العاقبة وخيمة

- يبدو يا أستاذنا أن الطامة وشيكة الوقوع ... إلى جميع جنود الخفاء ارفعوا العين الفوارة وأخفوها في الكون الأسفل، فلعل الحكمة ستغلب على الجنون.

إلا أن إخفاء العين الفوارة زاد الجنون جنونا، لأن كل فرقة ظنت أن غريمتها قد استبدت بالعين. فاشتدت المعارك وتفنن كل فريق في الفتك بخصمه بكل ما أوتي من آيات المكر والخداع، والبطش والتدمير.

فرأيت وأنا في مخفري، مدينة الصادقين تحترق من أجل اجتهادها في الصدق ... عفوا من أجل مصالحها. فأكل الحديد والنار مآثرها ومعالمها، وفتكت بها خطابات صدقها وتحطمت كل مشاريعها وآمالها، واندثر أهلها غنيهم وفقيرهم وبقيت حطاما مثل هيروشيما وكازكي، ومقديشو وكابول، وبيروت و ... و ... و ... فحمدت الله على سلامتي وقلت:

- أيعقل أن يكون البحث عن الصدق سبيلا إلى الخراب والدمار؟

فأجابني أصحاب الخفاء:

- مادامت محن الإنسان قائمة مثل الجبال وبدعه عاجزة، واعتقاده الراسخ في أن صدقه هو الأصدق!

- لكن ما الحل؟ وإلى أين المفر؟ وإلى أي مدينة؟

- تلك هي رسالتك الجديدة فابحث عنها في المدينة القادمة لعلك ستجد فيها ضالتك ... فارحل إليها على لمح البصر ... مع السلامة ولنا لقاء محتمل.

وسكت بودودة عن الكلام بدون زيادة ولا نقصان، واعتبر أن قصته قد انتهت في حدود الوقت المضروب له، مع احترام المتعة والتشويق. وأشار إلى عبار أن قد حان دوره من القصص، ثم صرخ في وجهه: المتعة! المتعة! الفن متعة! وإلا خنقتك. فاستقام عبار مبتسما، وبسمل، وصلعم، ودمعز، وطلبق، ثم قال:

مدينــــة النبــــأ

الدنيـا ســوق إعلانـــات بس!

قال عبـــار قال صاحبنا: "كنت على يقين من أني لاجـــئ لا مقر له لأني أصبحت أعتقد أني أحمل هموم كل المدن السابقة، وخطب صدقها ومحنها وبدعها. فتهيأ لي أني أصبحت مثل بـــودودة مات، عندمـــا صـــرخ: المروءة علينا وليست لنا، تفنينا ولا تحمينا.

فعلـــق بـــــودودة

– يـــا سلام عليك يا سيدنا عبار! ذاكرتك طيبة ومحنتـــــك متواصلة وبدعك منتظرة.

وواصل عبـــار: "فأجابتني صورة وامضة آتيـــة مـــن أهـــل الخفاء:

– لعل ذلك سيكون في مدينة الأنبــــاء!

– مدينة الأنباء! وما صلة حالي بالأنباء والصحف والمجلات، والنشرات والأنباء المصورة والمقولة والصادقة ربعا أو نصفا، أو ثلاثة أرباع والكاذبة بالتفصيل والحفنة والجملة وبالرطل والكيلو، والأطنان والمتحـــيزة والمحايـــدة، والمستقلـــة واليمينيـــة واليساريـــــة، والمتطرفـــة والمعتدلـــة والوطنيـــة، والدوليـــة والقوميـــة والطائفيـــة، والدينيــــة واللائكيـــــة والفاقدة لكل لون وطعم وحس وحسن، والمساومة والمحتشمـــــة، والتابعـــة والمنتسبة والمناصرة، والمناوئة والملعونة والمشكورة والنسائيـــة والرجاليـــــة والمشيخيـــة والشبابيـــة والفلاحيـــة، والتجاريـــة والرياضية والاقتصاديـــة والعلميـــة، والاجتماعيـــة والموضوعيـــة والمُبَزْنِسَـــــه * و ... و ... و ... الوأوأة في كل مكان من هذه الصحافة ... مسكين دماغ الإنسان! ما عساه أن يبتلع من كل هذه الصحف وآرائها ليكون في المستوى وفي الصورة وفي عصره ... نصره الله على عقله الذي عليه أن يحيط بكل تلـــك الصحـــف وترهاتها ... الجاحظ، لا شـــك في ذلك، كان أسعد خلق الله! لم تشغـــل هذه الأوراق باله، مما يدل على أنها غير ضروريـــة للإنسان. وسألني أهـــل الخفاء.

– مالك وللأنباء والصحف؟ هل بينكم خصومــة؟

– ليس بيننا حراثة ولا وراثة، بل إنها تخاصمني وتفرض علي نفسها كرها وطوعا حتى تكاد تفجر رأسي، فضلا عما أعاني من التلفزيــون وأنواعها، والتلكس والفاكس ووكالات الأنباء ومدارسها وطائفياتها. فــلا تبديل ولا تغيير في المنهج، وإن تلون الشكل وتحيل.

ولقد قررت أن أظل في مكاني في قاعة واسعة الأرجاء،تحيــط بي شاشات من كل مكان وبها تمر الصور مرور الضوء. وكنت أنتظر العودة إلى بلدتي وهمومها. إلا أن أصحاب الخفاء أصروا على أن أثابر على الحــوار مع مدينة الأنباء. فقالوا لي.

– تلك هي دنياك. لقد أصبحت أبواقا لا بد من الاســتماع إليها وإلى أنغامها.

– كثير! إنها كثيرة. الأنباء تحيط بنا ليل نهــار، وفي اليقظــة والنوم تكاد تأكلنا، وقامت مقام الكاتب والشاعر، والمسرحي، والموسيقار، والرياضي والواعظ، والمرشد ... والعالم والمهندس والطبيــب و ... و ... و ... فأصبحنا نأكل أنباء ونشرب أنباء ونحيا ونموت علــى الأنبــاء. فلقــد تكاثرت علي الأنباء وأذهبت شيرتي حتى أصبحت أبحث عن مقر لا يدخلــه نبأ ولا يخرج منه خبر، لأتأكد من منزلتي من الأنباء. فهل هي أنا أو أنا هي؟ فمن السابق ومن اللاحق منا؟ إني أخشــى أن أكــون ضحيــة عبوديــة جديــدة أدهى وأمر من عبوديــة الأجناس! فأجابني أصحاب الخفاء

– لا تحكم على هذه المدينة قبل أن تراها. لعلك ستجد فيها ضالتك.

– لا أظنني واجدها بعد ما رأيت من الأحداث والحوادث في المدن السابقة ... الدهر قائم والمدن تعرض نماذجها وخطب صدقها وتذوب كالملح في الماء ... وذلك دليل على تفاهتها.

– الجواب عن هذه الأمثلة موجود في هـــذه المدينـــة. خـــذ المركبة ونحن في خدمتك وفي انتظارك. وستكون الزيـــارة الأخـــيرة لأنـــك ستعود إلى مدينتك بنماذج جديدة سيفيد منها أهلك.

– وهذه ستكون آخر مرحلة من السفر ومنتهى الهذر علـــى شرط أن أراكم في آخر المطاف وأعرف ما تبشرون به.

– على شرط أن تلعب دورك كاملا وتعرف كـــل المحـــن، وتجرب كل البدع حتى تدنو من الإنسان الـــذي يواجـــه كـــل الريـــاح ويسمع الأنغام جميعها، ويعود بروح الصّبا وأغنيـــة الصّبا ونفحة الرياحين، وحاسوب الجنة، وبراق الحداثة وطائرة العمر.

– هذا مشروع لا يقدر عليه بشري مثلي، وأخشى أن تقضي علي تجربة مدينة الأنباء.

– المركبة جاهزة ... اخرج واصعـــد.

فوكلت أمري إلى الله وقصدت المركبة، فوجدت بها خمـــس حسناوات من الطراز العالي. وكفاني أن أنظر إليهن حتى أخرج من جفـــوة نفسي وترهاتها ومشاكلها. فخيل إلي أنهن من حور الجنة. وتســـاءلت عـــن وجودهن معي عوضا عن مرافقين من الرجال. فلعل ذلك يعـــود إلى أنـــي أنتسب إلى مجتمع الحريم؟ البداية تبدو صعبة. فأجابتني علامة وامضة.

– إن بعـــض الظـــن إثـــم يا أستاذ! كل واحدة منهن تمثل فرعا أساسيا من فروع مدينة الأنباء. فالأولى تمثل أنباء السياسة، والثانيـــة أنباء الإعلانات، والثالثة أنباء الكاريكاتور، والرابعة أنباء الثقافة، والخامسة أنباء المعرفة.

ووصلنا مدينة الأنباء، فإذا بها كوكبة من الأنوار والشاشات والحوانيت، والمذاييع والأبواق والصحف والنشرات والمجلات. فأصابني هلع شديد لأني كنت أخشى على عقلي أن يتفرقع من هجمة تلك الآليـــات علي جملة وتفصيلا. إلا أن حسناء من الحاضرات، عرضت علي سماعة نظارة غطت رأسي وأذني وعيني، ووصلتني بصندوق فيه أزرار مكنتني من أن أرى

المنظر وأن أستمع إلى الأنباء التي تـــروق لي. ولاحظت أن أهل المدينـــة كانوا مثلي يتجولون، وعلى رؤوسهم أجهزقم السماعة النظارة. وضغطت حسناء ثانيـــة على زر من جهازي الذي شرع يحكي لي تاريخ المدينة الـــتي كانت تمر أمامي معالمها.

– "أنشأ هذه المدينة خمسة من الصحافيين الذين جمعت بينهم الأقدار ببلد محايد. فقرروا البقاء به لما اكتشفوا أنهم في الهـــم ســـواء، وان اختلفت بلدانهم. فلقد استبدت حضـــرة الســـلطة بسـلوكهم وعقولهـــم وضمائرهم، لما هبوا لنصرة لحقوقهم. فسجنوا ونالوا من العـــذاب وفنياتـــه وتقنياته مما مازال مطبوعا على أجسامهم وفي مخيلاقم، وتبين لهم أنهـــم مـــن ضحايا خطاب الصدق في بلدانهم. فشعروا بحاجة ملحة إلى السفر والهـــذر وإنشاء مدينة الأنباء هذه التي لا مكان لخطاب الصدق فيها، مهما كـــانت مصداقيته، لا يدخلها ويعمل بها إلا الصحافي الهارب منه أو القـــادم عليـــها للتدريب .

فقاطعت الشريط وعارضت.

– هذا خورا فكيف يمكن التمييز بـــين خطـــاب الصـــدق الكاذب وخطاب الصدق الصادق في هذه الحالة. يبدو لي أن هـــذه مدينـــة يجوز فيها كل شيء باسم الفرار من خطاب الصدق ... وهذا عين الخطأ.

فأجابتني مضيفتي ممثلة الأنباء السياسية.

– خطاب الصدق معروف وغاية وجودك بيننا أن تتعـــرف على مواصفاته، لأنه يدخل مدينتنا مثل غيره.

– وكيف يسمح أهلكم بدخول ما ينكرون وما يكرهون؟

فلاحظت ممثلة الإعلانات

– لقد قرر الخمسة المؤسسون لهذه المدينة دخول الأنباء كل الأنباء التي يتقبلها التلكس، والفاكس والتلفزيـــون، والجريـــدة والمجلـــة والمذياع.

فأجبت:

– ألا يوجد نصيب أدنى من الصواب للتصدي لخطاب الصدق لتسلموا منه.

فعارضتني ممثلة الأنباء الكاريكاتورية ضاحكة

– أنت تصلح لتكون مثالا كاريكاتوريا عمن يرفض خطاب الصدق في ظاهره، ويعتمده عمليا لأنك مازلت تؤمن بالصدق المطلق، وتلك سمة من سمات أصحاب خطاب الصدق.

– لأنك تعتقدين أني أمثل مقاييس إنسانية بالية

فقالت لي ممثلة الأنباء الثقافية

– ذلك عين الصواب، لأنك يا سيدي تنتسب إلى ثقافة الانعزال والقياس ، ونحن اليوم في رحاب مدينة الاتصال والنسبية.

– تعنين أني أنتسب في نهاية الأمر إلى عالم أسطوري

فأردفت ممثلة أنباء المعرفة.

– للأسطورة عندنا تاريخ مجيد في نطاق معارفنا، لا سيما عندما تخرج من معرفة التقليد والجمود إلى معرفة الخيال والتخيل التي تفتح لك مجالا لا نهاية له. فنحن قد توصلنا، يا سيدي إلى الخروج من المعرفة الممغنطة إلى المعرفة العددية.

– يا حفيظ! يا لطيف! اللهم احفظنا من هذه البدع.

فأجابتني المضيفات الخمس بصوت واحد.

– صحيح! الحقيقة بنت التجربة. وحقيقة التجربة حقائق. وسترى ذلك بعيني وأذني رأسك.

فارتعشت لإدخال الأذنين في هذه العبارة الجليلة الموروثة، على أني قررت ألا استغرب من شيء لأن التجربة بينت أن كل شيء ممكن، وأن المستحيل أصبح على هذه الوتيرة أمرا معقولا.

ووجدت نفسي في مطار عجيب يســـيره صحـافيون، ولا يدخله ولا يخرج منه إلا الصحافيون الهاربون من خطاب الصدق. وقالت لي مضيفة، قبل أن أطرح أسئلتي التي كانت تدور في رأسي.

– لقد انتهت مهمتنا وســتكون في عــهدة زملائنـا مــن الصحافيين بالمطار. مع الســـلامـــة!

وأحاط بي في الحين خمسة شبان يحمدون الله على ما متعهم به من الصحة والأناقة وحلاوة اللسان، مما بهرني لأول وهلة. وتيقنت من أن من كان على هذه الحال، محال أن يـأتيه خطاب الصدق من قبل أو من خلف.

وتذكرت بالمناسبة، وأنا أرتب شؤون دخولي إلى مدينة الأنباء، أصدقائي من الصحافيين الذين تعرفت عليهم في حياتي: الصحة رثـة والوجـه أصفـر، واللحية تحلق مرة في الأسبوع، والجيب دائما فارغ لا تدخله الفلــوس إلا استثناء تأكلها الديون وهموم الأسرة. أما الطمأنينة في العمل فهي تكاد تكون سلعة غريبة، تتكيف حسب عرض وطلب لا مقاييس ولا حدود لهما. وعلى هذا الأساس كان كثير من أصحاب هذه المهنة يمرون من التأييد والتبرير إلى الشتم والتحقير، كالناعورة تدور مع مهب الريح.

وهذا النوع مكره لا بطل، نوعه كثير في دنيانا، فينـا مــن ينشؤه ويعشعشه بالإيمان والتلميح، والرشوة والتمييز والتفضيل والتبجيـل، ويقدره ويحترمه بالركل والرفس، والتهديد والتوبيخ، والسجن والتنكيـل، والتعذيب حتى يركن إلى المسالمة. فإذا لم يستحي وظل يترفز ويتخبط ويعوي ويصرخ، ويهذي ويخلبط ويتحمس ويبكي على الحق، جاز لنا أن نطبق عليه جزاء قانون الفصاحة الخضراء الحمراء الصفراء السوداء حامية الأمــة، وراعيتها وسيفها المسلول ونبراسها الساطع، وقدوتها الحســنة وحكمتـها المعصومة، وفكرها الفذ في السياسة والاقتصاد والحــرب والاجتمـاع لأنّ قانون فصاحتنا لا يعرف الكذب ولا يخطئ في رأي ولا قــول، ولا تفوتـه واردة ولا شاردة، لأنه وضع ليكون هدى للصحافيين والقانونيين والرياضيين والفيزيائيين، والاجتماعيين والأحيائيين والمزارعين ، والتجــار والجزاريـن

والجغرافيين والحلوانيين و ... و ... و ... فهو يحيط بكل شيء من وظائف ومهن، حتى المداجن والبساتين يدرك شؤونها أحسن من كل أحد، وذلـــك بفضل ما توفر له من رؤى وبصيرة نافذة تؤهله لأن ينوب عنا كلنـــا. فـــهو آذاننا وعيوننا وأفكارنا ومشاريعنا، لأنه حرر ليحيط بكل الخطابات وأنواعها لا سيما خطاب الصدق، وليتصدى لكل العقبات. فهو قادر على حل كـــل المشاكل مهما كانت معضلاتها ... فكيف يتجاسر صحافي أشعث، جـــائع، فارغ الجيب لا مقر له، قليل الحياء فيتطاول على هذه القيم الجليلة لا سيما إن كان من بلاد "الجباليـــة"، وهم همج لا ينتسبون إلى قبيلة أهـــل الذكـــر وبني عمومتهم. وأخوالهم، وأصهارهم من المقربيـــن.

إن هذه الأصول والتقاليد تستوجب من أصحابنا الصحافيين المكرميـــن عندنا أن يفهموها ويهضموها، وأن يلغوهـــا حـــتى يتخرجـــوا مضبوطيـــن منمطيـــن مع السمع والطاعة. وظللت أكرر هذه المواصفـــات العجيبة، وكدت أقرها حقائق صحافيـــة أزليـــة. وما المانع من ذلك عنـــد من يرى أن شكسبير هو الشيخ الزبير، وأن "إلكتريك" مصطلح عربي صميم أصله آلة تريك. وقس على ذلك في عالم السياسة وغيرهـــا ... فالصحـــافي الذي يخرج على هذه الحقائق وما شابهها، لا يستحق أن يكون من أصحاب المهنة. وظللت أهذي حتى خاطبني صحافي من المضيفيـــن.

– سيدي! لقد انتهت الإجراءات لدخول مدينة الأنبـــاء ... أنت الآن ضيف مدينة الأنباء.

– شكرا! شكرا! مدينة الأنباء الحرة.

– مدينـــة الأنباء وكفى! ولقد سجلت آلاتنا وسماعاتنا مـــا دار في ذهنك منذ حين.

– كيف؟ ولماذا؟ وما عساني أفعل! أنا لم أسئ إلى أحـــد ... مجرد خواطر كما يتصورها بعض التائهيـــن ... صدقونـــي!

– لا سلطة عندنا سوى حريـــة الأنبـــاء، نعرضـــها علـــى مواصفات خطاب الصدق.

– وأنا لا أحب خطاب الصدق. قضيت العمر في مقاطعتـــه ومقاومته.

– المهم ليس أن تحبه أو تكرهه، بل أن تقره واقعا، وإن كان مرّا. ولقد رأيت الكثير منه في المدن السابقة، ودار في ذهنك الكثير منه منذ حين ... وعساك تسمع عنه في ميادين أخرى ... هذا برنامج زيارتك.

– يبدو أنكم صحافيون من طراز عال.

– نحن أحفاد صحافيين فروا من خطاب الصدق وأسســـوا هذه المدينة.

– هل فيها غيركـــم؟

– لا يدخلها ولا يخرج منها إلا الصحافي الذي عـــانى مـــن خطاب الصدق، واقتنع أن الحقيقة حقائق عليه أن يقارن بينها لعله يـــدرك الصواب الراجح.

– هذا مستحيل! هذا خيـــال.

– برنامجك سيبدأ ... والمستحيل هنا مستحيل ... والحقيقـــة صواب اجتماعـــي ستقـــف عليـــه.

ووجدت نفسي في مكتب فخم شاسع، طلع علي منه رجـــل في العقد السادس من عمره، مرقع الجسم: فكانت عيناه من بلور، ورجلـــه اليمنى من بلاستيك وسبابته اليسرى مبتورة، وأسنانه مـــن عـــاج أبيـــض اصطناعي. وبدا لي أن شيئا من صدره أو كتفه معطوب، قد رمم جراحـــة وتصويبا.

فاستقبلني بحرارة وعزم يدلان على أن صاحبنا ليس خردة من خرد "الرُّوبافيكَا" * المهلهلة المتداعيـــة، بل كان يتابع بكل عناية ما يحيط به مـــن الأخبار والأحداث الواردة على الشاشات بمكتبه. فكان يرى الدنيا كلـــها ويستمع إلى ما هب فيها وما دب. فبادرني

– الخبر السياسي في هذا الجزء من المدينة حـــر طليـــق، لا يعرقله شيء سوى نصيبه من خطاب الصدق. ومهمتنا في هذا الحي العنايـــة بذلك الخبر بصفة خاصة.

– متى أصبح خطاب الصدق مفهوما محرّما وملعونا؟

– لأن الصدق قد صار سلعة مشوهة حتى أصبح لا يصـــدق في الدنيا كلها.

– من المسؤول على ذلك؟

– الناس أجمعون، ولا سيما أصحاب الشعوذة الذين أقروا أن كلامهم صادق مائة في المائة لا يشك فيه في كل الأحوال.

– لكن ما هي مبرراتك لذلك؟

– أنا أحسن مثال على ذلك. ألم تلاحظ أن جسمي يختلـــف عن جسمك الإنساني.

– وكيف كان ذلك؟

– لقد عطبوني. فلو لم أفرّ إلى هذه المدينة لعطبـــوني أكـــثر، ولأصبحت من قدماء المحاربين المعوقيـــن.

– وما سبب ذلك؟

– لأن نفسي انفجرت ذات يوم بعدما زهقت من الاستماع إلى خطاب الصدق الذي كاد أن يأتي علي، لأني كنت أستهلكه كرهـــا في النوم والصحو، ومن الصحف والاجتماعات العامة والخاصـــة، وفي الإدارة والمقهى والحفلات والمآتم، وفي عشائي وغدائي. فكان يدعونا إلى الصـــواب والرشد والحكمة والبصيرة، والعقل، والإدراك، وفرض علينا مـــا يســـميه بالخبرة والممارسة والحنكة والذكاء، والدهاء والفر والكر، حسب نمـــاذج لا يجب أن نحيد عنها حتى لا نلقي بأيدينا إلى التهلكة و ... و ... و ... فلقـــد كانت نرجسياته على قدر اقتناعه بأن خبراءنا الأجلاء من العـــالم الثـــالث والرابع والخامس، والمائة والستين ... وبالأحرى كل البشريـــة الســـوداء، والصفراء والسمراء، قد اتفقت عليها ألفا في المائة دون أن يجمعهـــا مؤتمر

ولا كــواليس، ولا مــؤتمرات ولا مناورات لأنها الصواب الذي لا يختلف فيه اثنان ... ولقد تعوذت بالله من ذلك التــهور وشعوذاتــه فرميتــــه بالكلام والحجارة. واعتبرته هذيانا ولغوا وجنونا.

وظللت أصارع خطاب الصدق. فكان يقول وكنت أقــول، وأكتب المناشير واتخذت الجدران صحائف وجرائد حتى قبضوا علي. فكانوا على غاية من اللطف في أول الأمر لأعترف بخطئي، وأعــــود إلى الســـراط المستقيم وأنشر بين الناس بيانا أنكر فيه كل ما قلت وأكفر عن كل ما نسب إلى، وأحبر رسالة أرفع فيها توبتي وندمي لكنني رفضت واحتججت. فقال لي بنو قبيلتهم من أنصارهم المؤمنين بهم: اعترف بـــأنهم عيننـــا الســـاهرة، فرفضت، فطمسوا عيني اليمنى. وقالوا: أليسوا هم يدنا البيضاء المعطاء التي تحتاج إليها كل جماعة، فرفضت، فكسروا يدي اليمنى. وقـــالوا: لعلـــك لا تنكر أنهم سادة مسيرتنا ومنارة آمالنا، فرفضت فعطبوا رجلـــي اليســـرى. فقالوا: اشهد بهم أمراء شرعيين علينا، فرفضت، فبتروا إصبع يدي، وتركوني على أن يعودوا إلي ليعطبوا تسعين في المائة من جسمي حتى يســـحقوا كـــل جوارحي، وأظل أتألم خمسة وتسعين في المائة طيلة تسع وتسعين سنة فـــاصل تسعة وتسعين ... لأن هذه النسب عندهم مبروكة مباركة.

فبادرته

– وكيف نجوت، وترممت وأصبحت تشرف على حي مـــن مدينة الأنباء.

– حكايـــة طويلـــة. المهم أني أصبحت مسؤولا مع زملائي الأربعة الآخريـــن عن هذه المدينـــة، ندير شؤونها بالانتخاب وبـــالتداول. مهمتي الأساسيـــة أن أنشئ وأنمي بنكا للمعلومات عن خطاب الصدق منذ نشأة الإنسان إلى يوم الدين هذا وما بعده، أملا في ضبط مواصفاته العامـــة ومميزاته وتطوراته حتى يصبح علما يدرس وقضيـــة تطرح علـــى الإنســـان ليتدبر أمرها.. أنظر.

ضرب على زر من الحاسوب. فظهر على الشاشة خطاب الصدق في العصر الحجري، وتبعه خطاب الصدق عند المصريين والفرس واليونان، واليهود والنصارى والمسلمين والأفارقة والهنود، والروس والأمريكان، واليابانيين والعرب القدامى والمحدثين الذين كانت لهم ميزات خاصة في هذا الميدان ...

فلم أكن أتصور أن الإنسان قد قضى عمره يصنع، ويفبرك خطب الصدق ويتفنن فيها. ولقد تفوق إخواني العرب على غيرهم في هذا الفن، لأنهم أهل فصاحة وبلاغة، ولأنهم يعتبرون لغتهم أفصح اللغات وأبلغها وأن كل الشعوب الأخرى قد خلقت بهائم بكماء. وتحمست للقضية وطلبت نسخا من تلك الخطب. فقال لي مستضيفي:

– سنزودك بكتاب أبيض عنها عندما تعود إلى قريتك.. نحن على مقربة من قاعدة ستحيط فيها بآخر الخطب الحديثة التي يبعث بها إلينا مراسلونا المخفيون.

– وكيف ذلك؟

– هم من أهل الخفاء وكفى!

وستساعدك الأيام على معرفتهم. انظر إلى الشاشات اليسرى.

فرأيت معلومات عجيبة: صاحب خطاب الصدق، صورته الكاملة، مدينته، خطابه، بنو قبيلته المصدقون به، رعاياه المسالمون، أثر خطابه في الناس وفي الحجارة والشجر والشوارع. وقال لي صاحبي:

– انظر إلى هذا الخطاب عندما يمر بمصفاة الحقيقة والواقع.

اندهشت لأني رأيته يتبدد دخانا أسود خائفا مرتعشا، تهرب منه الرياح، وتتخفى منه الشمس ويلتهمه الفضاء ويرحيه. فيسمع له صوت كصوت الحجر، ثم يتفرقع ويؤول إلى غبار ثم يندثر كأنه لم يكن. وظلت خطابات الصدق تمر أمامي يشدني سابقها ويختطفني لاحقها.

– لقد حان وقت تنقلك إلى زميلي الثاني المكلف بالإعلانات.

– مالي والإعلانات! أنا معلم لا أميز رأسها من ذنبها، على ما فيها من تشقلب وتفنن وحيل لها فقهاؤها وأيمتها.

امتطيت المركبة وخطابات الصدق تمر على مصفاة الحقيقة بها حتى وصلت إلى حي الإعلانات. فأعجبني كثيرا، وإن كان قد شوش بـالي قليلا، لأنه مكون من نوعين من البنايات: منها ما هو مقبب دوّار، ومنها ما هو متعال يكاد يبلغ السحاب. وتكون منها تناسق المدينة وتوازنها مما زادها حسنا أصبح جمالا فتانا، بما توافد عليها من الصور والإعلانات والأضواء والألوان الزاحفة كالسيول الجارفة على القباب، وعلى واجهات العمارات الشاهقة. لقد كانت روعة ممتعة لا تملها العين الناظرة، لأنها كانت تتسارع وتتداخل متمهلة.

فصرخت

– غريب! عجيب! كيف يمكن التوفيق بين السرعة والتمهل! فكأني بالعجلة والتأني قد توافقا وأصبحت السلامة دعوة باطلة.

وسمعت صوتا يقول لي:

– تعني في التأني السلامة وفي العجلة الندامة ... جملة عتيقة شكلا ومعنى في مدينتنا. أنا في انتظارك يا حضرة الأستاذ.

ودخلت قاعة رحبة بها رجل طويل القامة مستدير الوجه صبوحه، باسم الثغر كأنه السعادة. سلم علي بحرارة ودعاني إلى قبة بها مراصد عديدة موجهة إلى كل صوب، وقد خصص كل واحد منها لميدان معين من الحياة الاجتماعية والاقتصادية، والثقافية والعلمية والحضارية و ... و ... و ...

فيكفي أن أجلس أمام مرصاد منها لأربط بإعلانات الميدان الذي يهمني ويوجد في وسط القاعة مرصاد عملاق متصل بجميع الميادين، يمد الناظر برؤية إجمالية عن كل ما يجري في كل مرصاد على حدة. فما أيسر الأمور في هذه المدينة ودنياها! فلا عراقيل ولا حجاب، ولا انتظار ولا غياب موظفين ولا صفوف ولا طوابير، ولا تراخ ولا تواكل ولا أوراق

ولا طوابع ولا توقيعات، ولا إمضاءات من السيد الكاتب العام ولا فـــلان ولا فلتان. فقلت لصاحبي:

– لا أظنك قد فررت من خطاب الصدق الإعلامي، لأني لم أر على وجهك علامات القهر والتنكيل.

– لا تدعوني إلى الحديث عن ذلك ... إن وقته آت. اجلس أمام المرصاد العملاق واضغط علىأزراره بالتتابع، فسترى ما يعرض علينـــا الناس من الإعلانات التقليديـــة والغريبـــة والمدهشـــة. فضغطـــت علـــى الإعلانات المخصصة للمآدب والطعام والحلويـــات في العالم. فرأيت حفـــلا ساهرا أغلبيـــة الحاضريـــن فيه من الأثريـــاء الميسوريـــن، وقد برز بينـــهم قرد ضخم، مفتوح العينين، دماغه مشدود إلى حلقة حديديـــة تمنعـــه مـــن التحرك. وفجأة أقبل عليه طباخ وبيده سكين، فضرب دماغه حتى انكشف مخه حيا ينبض، ودعا المحتفلين إليه. فهرولوا نحوه ينهشون ويأكلون ما طاب منه ولذ، ويسقونه بكل أنواع الخمور، دون أن يـــهتموا بـــالقرد وعينيـــه المفتوحتين. وبرز إعلان يقـــول:

– أكلة الأثرياء والعظماء بمطعم الأمبريال. السهم بمليـــون دولار. الفرصة موفرة مرة واحدة في العـــام. الهـــاتف: قـــرد **0008023**. والعرض لا يكرر.

وما انتهى الإعلان حتى أصابني قيء لم أتغلب عليـــه رغـــم جهودي اليائسة لكبته. ودعاني صاحبي إلى مرصد آخر، فرأيت مطعما فيـــه مسرب مطاطي ضيق والزبائن يتربصون به وصحافهم بأيديـــهم. فكـــانوا يطلقون أصابعهم نحوه ويختطفون منه بسرعة شيئا لم أدركه في أول الأمـــر، حتى قربته مني الكاميرا وكبرته. فإذا بنمل أحمر كان يجري بالمسرب يتناولـــه الزبائن بكل شراهة ثم يعودون إلى موائدهم ليتفننوا في لحسه ومصه ثم أكله. وبرز إعلان يقـــول:

– أكلـــة العمـــر: لحـــس النمـــل الأحمـــــر ومصـــه. يستـــورد فـــي الخريـــف. أكلـــــه يعـــالـــج

الهـــوس ويشفيـــه. النملـــة بألف دولار. الاتصـــال بمطعـــم الأدغـــال كـــل يـــوم سبـــت. الهاتف 4812000000.

فتقززت وكدت أطرح أرضا. استدركت أمري وواصلـــت النظر إلى هذه الغرائب وإلى خطب الصدق الطعاميـــة. فرأيت جماعة مـــن الناس يصطادون ضفادع بالعشرات والمئات على شاطئ بحيرة، ثم يقطعـــون أوراكها ويشوونها ويأكلونها بلذة لم أر لها مثيلا. وتبع ذلك إعـــلان يقـــول متغنيا:

– إذا أردت أن تعرف لذة الأوراك وطعمها ومتعتها، فـــابدأ بورك ضفدعة وسيأتيك الباقي.

قصم الله ظهورهم، ما أحمق كلامهم وذوقهم! وكدت أثـــور وأهجر هذه السخافات، إلا أن صاحبي استدرجني إلى منظر ثالث. فرأيـــت جماعة يذبحون ثورا، تركوا لحمه وتعلقوا بذنبه وكرعيه وأذنيـــــه وعينيـــه ومنخاريه، وصنعوا منها أكلة ممروقة تهافتوا على أكلها كالمجـــانين. وجـــاء الإعلان يولـــول:

– أكلة "الهَرْقَمَـــه" * ألذ ما في الدنيا. أكلة الغني والفقـــير، تنعش الروح إن فُوّحت بهْرِيسَة * البلاد. الثمن زهيـــد في متـــاول أبنـــاء الشعب الكريـــم.

فصفقت واهتززت وصرخت باسم العدالة الاجتماعيـــــة، وسال لعابي لأني كنت أحب الهرقمـــة، هرقمـــة بلادي. آه! لو قدمـــوا لي منها ولو صحيفة لأمسح بها ما أصاب معدتي من آثار الأكلات التي رأيتها في الإعلانات السابقـــة!!!

وفاجأني المرصاد بمشاهد أخرى زادت همي همومـــا. فرأيـــت أناسا يأكلون القططة، وآخرون الجرابيع والكلاب والخنازير ويدعون إليـــها بالغناء والموسيقى. واختنقت لما رأيت بعضهم يأكل الأحناش والأفاعي كما يؤكل السمك. فأعذرت من كان يأكل جراد البحـــر وجـــراد الســـماء، والحشائش التي تأكلها البهائم عندنا. فصرخت

– أين الأكل الحلال؟ كل ما رأيت مكروه أوحرام.

– وما رأيك في أكلة الهرقمة والجرابيــع؟

– حلال إن لم تكن مباحة. قاتل الله الجوع وما يستلزمه من جرابيــع!

– الورد حلال كذلك، وإن كان أحسنه ينمو ويــترعرع في زبل الحيوان.

– وما تعني بهذه الإعلانــات.

– لا غايــة لها في حد ذاتهــا، سوى أن تبين لك أن مفهوم الحرام والحلال أمر فيــه نظــر.

– وما فائدتكــم من ذلــك؟ فلم لا تكونوا مـــع حلالنــا وكفــى!

– كلامك كلام يمكن أن يقولــه غيــرك.

– وما يهمني منه ومن حلاله. حلالي هو الحلال.

– لقد أصبحت من دون أن تشعر من أصحـــاب خطــاب الصدق

– وما عساني أن استخلص من ذلك؟ هل أقول حرام قـــوم عند قوم حلال.

– بالضبط! لا على أساس فرض حرام غيرك على حلالك بل لتدرك أن الدنيا ليست مبنيــة على قرنك ولا على منطقك.

– وعلى هذا الأساس فررت إلى هذه المدينــة

– صحيح. لان أصحاب خطاب الصدق أرادوا أن يفرضوا علي التخصص في الإعلان للحم الكلاب فحسب، لأن سوقها كانت نافقة عندهم. والمعروف أن أهل كل سلعة يعلنون عن كل ما توفر لهم وغلــــب. فأصحاب الكلاب لا يحبون أصحاب البقر أو النحل أو السمك.

– هل أفهم أن سر وجودك هنا هو الهروب مـــن أولائــك الكلاب وكلابهم؟

– نعم سيدي ... وكاد أن يصيبني كلبهم.

– فكيف تخلصت منهم ولم تعطب كما عطب صاحب حـــي الأنباء السياسيـــة

– أكلة مخ القردة وما لها من جاه.

– قبلت إعلانا قم القذرة، فتحولت من قذارة الكـــلاب إلى قذارة القردة لاستكشف خزائن سر الإنسان، ومحنه وبدعـــه مـــن خـــلال الإعلانات وغاياقا التي لا يتصورها العقل كما رأيت.

– إني لا ألفي ذلك، ولا أعجب منه بعد كل ما رأيت.

– فاتتك الإعلانات المخصصة للمتاجرة ببني آدم.

– تعني ما يسمى بسوق المخنثين والمومســات البيضــاوات، والسوداوات والحمراوات والصفراوات. هذه حرفة من أقدم حرف الدنيا، عرفتها كل الأمم ولم تسلم منها إلى يومنا هذا، مهما كانت خطابات الصدق التي تدعي القضاء عليها. فلقد نفقت سوقها في كل العواصم الحضاريـــــة عند كل الأمم باسم الرقيق المباح، والقانون الغالب، والخصاصة والقرصنـــة وحريـــة الإنسان، وحقوقه في التصـــرف في جسده كما يشاء لأن التصرف فيه عندهم كالتصرف في المال. فهو جزء حسب هذه الرؤى، من مقتضيات الحياة العصريـــة ... ولذة الجسم عندها من متع الحياة.

– مالك تحمست لهذا الموضوع وأنت تصر على خلاف مـــا تقول. فكأن في قلبك نقمة تريد أن تستريح منها بتهمك المتراكمة علي. نحن هنا نقبل كل الآراء والرؤى والمواقف، على أساس أن مدينتنا مفتوحة لكـــل العجائب الإنسانيـــة ولا يحق لها أن تخفي منها ما هو موجود قائـــم.

– هذه الإباحيـــة بعينهـــا.

– إن القضيـــة مجرد خيارات يتعصب لها الناس ويعتبروهـــا ثوابت أزليـــة

– كفى تفلسفا. فما تعني بالمتاجرة باللحوم البشريـــة؟

– انظر إلى المرصاد رقم 88888 وسترى.

فقرأت على لافتة مضيئـــــة:

"تبرع بدولار واحد وتقتل رَعَبِيًا * بأرض الوطن وتخلصــــها منه. ورأيت مقبّعا يبرز وبيده بندقيـــة. فدفع خمسة دولارات وظهر أمامـــه خمسة رعبيين مذعوريـــن فقنصهم الواحد بعد الآخر. وجاء بعده مئات من المبرطلين فتبرعوا بآلاف الدولارات وشفوا غليلهم من الرّعْبِيِيـــين. فكـــان الرصاص يدوي والأجسام تتراكم حتى أصبحت جبالا ذكرتني بتلك الجبال من العظام والرفاة في محتشدات الاستعمار والنازيـــة والبلشفيـــة والأشقاء، والأصدقاء والإخـــوة و ... و ... و ...

– هذا إعلان واقع. وهو لعبة مفضلة يتسلى بها الناس مـــن البلد صاحب الإعلان الذي رأيت. إنّهم يتخلصون من كبت نفوسهم بالقتل الوهمي. إنهم يقتلون بالصورة وبالتفويض وبالنيابة ...

– كما تقتل الحيوانات وتؤكل لحومها باسم الحـــلال. أمـــا المقتولون من بني الإنسان في هذا الإعلان، فإن لحومــــهم تدفـــن في مقـــابر جماعيـــة باسم أرض الوطن.

– انظر إلى المرصاد رقم **3076**.

فرأيت أشخاصا ملثميـــن يوزعون مناشير كتـــــب عليـــها: الحرب بيننا وبين الشيوعيين آتيـــة. حربنا معهم حـــــرب مصـــير. الغلبـــة تستوجب منا ألا نعتبرهم من أهل الكتاب. فلا رحمة للمقـــــهور والمــــهزوم، والجريح والمريض والأسير منهم!!.

فصرخـــــت.

– لكن هذا إعلان ملعون لأنه يدعو أعـــــداءه إلى معاملتـــه بالمثل. هذه حرب إبادة. أليس هناك إعلان عن حقوق أسرى الحرب؟

– انظر المرصاد رقـــم **00093**.

وددت أن أرفض لأن نفسي زهقت ويئست أمام تلك المآسي والفضائع التي دفعت بالإنسان إلى الخروج من جلدتـــه البشريـــــة. إلا أن فضولي الداعي إلى معرفة محن الإنسان في هذه الدنيا، شجعني على مواصلـــة

المشوار. فرأيت لافتة يرفعها أربعة رجال وقد كتب عليـــها: التضحيـــة الجماعيـــة بالغالي والنفيس هروبا من ذنوب الدنيا. موتوا قبل أن تبلغكـــم الذنوب. وبرز كاهن يتبعه أربعـــون شخصـــا، اصطفـــوا أمامـــه مغنـــين متحمسيـــن، فناولهم مشروبا ناموا بعده إلى أبد الآبديـــن، فهلل وتمتـــم ثم صرخ:

– لقد دخلوا الجنة ... انعضوا بهم. اتصلوا بالهاتف أ – ب – ا – د – ذ – ك – ر – ك 146166555 في كل فجر عندما تستولي عليكم الحيرة.

وأطلق قهقهة ارتعشت لها عظامي. فعلقت:

– إني لم أر من الإعلانات إلا ما يحزن ويبكي.

فأجابتني علامة مضيئـــة.

– إن أردت أن تتسلى وأن تضحك بالإعلان السليم المخدر الذي يرضي البطن وتتمتع به العين، فانظر في المراصيد التي تنتهي برقم 5.

وانهالت علي مأكولات الدنيا وملابسها وأثاثـــها، ورقصـــها وغناؤها وموسيقاها ونساؤها وحفلاتها وجنونها وعربدتها، ومدنها وأنهارهـــا وبحارها وطقوسها، وبنوكها وملاعبها و ... و ... و ... فكانت تعرض علي في أبهى الألوان والأشكال المغريـــة لا تكريما لشخصي المحترم، بل لتبـــاع بأحسن الأثمـــان. فحتـــى الابتسامة والبكاء والقلق والفقر والمرض مباع. فلم يسلم من الإعلانات حتى الأموات. كل شيء يشترى ويباع ولا ســـبيل ثالثـــة حتى النظرة إلى وردة تنمو، وإلى عصفور يطير وإلى طفل يمرح. فلقد مات الزمان الذي كانت فيه الأشياء تعني الأشياء، وحلت محلها خلفياتهـــا ونواياها وتضميناتها. وفجأة سمعت صيحة قريبة مني. وإذا بصاحبي مدير حي الإعلانات يرتعش ويهتز ثم أخذ يعوي:

– لا! لا! لن أقدم إعلانا لتلك الآراء .... لن أفعـــل ذلـــك هذه مهزلة وسخف.

فاستغربت من أمره لأني ما كنت أتصور صـاحبي الجميل الأنيق ستؤول به الحال إلى ذلك الصرعان، وقد أنجدته سبع حسان وغـاب عن ناظري. فظللت وحدي أمام المراصيد الآلاف. واحترت فـي أمـري لأن بـرنامجي انقطـع بعنـف. ولـم تـدم دوامتـي كثيـرا، إذ رأيت علامة مضيئة من أهل الخفاء تقول:

– لا تعجب من ذلك. لقد خرج من جلده، لما رآك تقترب من المرصاد رقم 0096.

– وهل كنت السبب في هلعـه؟

– لأنك كدت تذكره بمحنته وبسبب هروبه إلى هذه المدينة.

– وكيف كان ذلك؟

– قال له أهل الذكر. أعلن بين النـاس أن سـؤال القـبر بالسرياني. فقال هذا مستحيل. أنا أحب العربيـة. فقالوا لـه: أعلـن أن السريانيـة لغة ناكر ونكيـر. فاحتج قائلا: وكيف سيقبلها بنـو يعـرب المساكين؟ فشددوا عليه فقال هذه روايـة غير صحيحة. فأنشدوه شـاهدا شعريـا احتجاجا لما يدعـون:

ومـن غريـب ما تـرى العينـان

أن سـؤال القبـر بالسريانـي

أفتـى فيـه شيخنـا البلقينـي

ولـم أره لغيـره بعينـي

فضحك من هذا الشعـر الموضـوع الركيـك: فضربـوه، وضربوه، والله ضربوه حتى جملوه وحسنوه وصنعوه من جديد. فهو ليـس هو، بل كان مربوع القد أسمر اللون، ضيق العينيـن، كبير الأنف، فيه شيء من قبح. قالوا له:

– أعلن أن الأرض عندنا مربعة حتى يعتمد ذلك المعلمـون والمربون فقال: يشهد الناس والعلم أنها كرويـة الشكل، حتـى يأتـي ما يخالف ذلك. فقالوا له: أعلن أنها مستطيلـة، فضحك منـهم وقـال: والله

العظيم والله العظيم إنها كروية تصبح مربعة مستطيلة عندما تصل إلى بلدكم المحترم!

فخبطوه ومعسوه وعصروه حتى تبدل شكله وأصبح جميلا أنيقا، يعود له صرعانه كلما تذكر ماضيه وقبح وجهه الطبيعي، وكلما اقترب الناس من المرصاد الأخير. وذلك ما يسمى عندهم بالإرشاد والتقويم بالحسنى وبالتحسين. فقلت:

– الإعلان جائز مفتوح اليوم في هذه المدينة. فما كان ضره لو كان فتح لهم أبوابه في بلده الأول.

– امتنع لأن نفسه ملت أعمالهم وأفعالهم. ولقد اهتدى إلى تسجيل مأساته للعبرة والتاريخ، رغم أنهم بدلوا خلقته تبديلا وأذهبوا شيرته.

– الخلقة نعم. أما العقل فما زال نيرا. والرجاء أن يزول صرعانه مع الأيام. هيا يا سيدي، لقد حان وقت زيارتك إلى حي الكاريكاتور من مدينة الأبناء.

فقبلت العرض بسهولة لأن المدينة أخذت تستهويني أكثر مما كنت أتصور، ولأني أعشق الكاريكاتور، هذا الفن الجميل الدخيل علينا. فلو أدركه أبو عثمان الجاحظ لكان أكبر كاريكاتوري في الدنيا، ولكان كتاب البخلاء صورة رائعة عن فنّه، وإن كان لا مانع من أن نتدارك ذلك يوما ونمثل لشخصياته بصور حديثة. وخرجت من خواطري وتفلسفي الماضوي كما يقال اليوم، لما أقبلت على مركبة غريبة في شكل سمكة كبيرة لسانها خارج متهكم، وعينها اليسرى غامزة، وعلى رأسها عمامة ضخمة فوقها قبيعة حمراء قانئة، وعلى ذيلها حسناء رائعة باسمة في بدلة سباحة، يناجيها شيخ وقور. وكانت السمكة تطلق في الفضاء أصواتا ورنينا فيه ما يشبه أصوات الحيوان والموسيقى، ويتصاعد منها بخار خفيف متنوع الألوان، كان ينقلب إلى صور كاريكاتورية بديعة منها كاريكاتور يمثل لشخصي الكريم مع صاحبات مدينة المريخ. فرأيت نفسي أجري مهلوعا، ممدود اليدين،

وشعر رأسي مقشعر واقف، وقميصي مقدود من الدبر، ومئـــات المريخـــات ورائي ولسان حالهن يقول:

– هدئ روعك! لا تغضب ... سنتزوجـــــك كلنـــــا!

فأصابني الهلع لما اقتربت المركبة ظنا مني أن المريخات قد عدن لاختطافي ثانيـــة. فاحتميت بجدار ثم أطلقت رجلي للريح هاربـــا منـــهن. ونظرت ورائي فإذا المركبة تحلق فوق رأسي، وبحارها يقول

– مرحبا بك ... مجرد مداعبـــة. هيا! هيـــا! نحن في انتظارك ... اصعد ...

وعندها أطلقت قهقهة متوترة انقلبت إلى ضحكة مســـــتريحة رنانة قاهرة، تضحك من جبني ومن هذه السمكة الداعرة الـــــتي ركبتـــها، فوجدتها مملوءة بالصور الكاريكاتوريـــة من الدنيا كلها، وبهاجس حســـــان لباسهن من الكاريكاتور. فسألتهن عن سبب ذلك. فأجابتني حســـــناء عـــن لسانهن.

– نحن مُكَرْيَكَات دائما. ولا نلبس إلا هذا اللباس المُكَرْيَكُ. وهو رمز مهنتنا

– ما معنى مكريكات ومكريك؟

– اسم مفعول يا أستاذنا الكريم، مشتق من اسم عين معرب دخيل وهو الكاريكاتور. ومنه اشتققنا فعل كريك. فنقول كريك الشــــيء وكريكه أي وضع لها كاريكاتورا. فعربنا ذلك فقلنا كريك، كريوك كريكة، مكريك لأنها عربت فأصبحت أخف وأفضـــل.

– يا حسرة على الدنيا! لو كنت على بينة مـــن قبـــل مـــن علمكن لأرسلت إليكن طلابنا ومربّينا ليتدربوا عندكن.

– الكريكة على وزن فعللة كما أن دكتور على وزن عصفور وجمعها دكاترة ودكاتير على وزن عصافيـــر.

– ماذا تعنين؟ هل أفهم أننا من أصحـــاب أجســـام البغـــال وعقول العصافير؟

– بعـــد الشـــر!

– ما شاء الله! هذا أول الغيث. فكيف سيكون لقـائي مـع صاحب حي الكاريكاتور؟ العفو الكريوك أو الكريكـة، وهمـا مصـدران صحيحان.

– اللقاء قريب ... ولا تعجب من اعتمادنا علـى اللغـة. فالكريوك والكريكة لغة خاصة تستمد أسسها ومقاصدها من اللغة العامـة التي كثيرا ما تصاحب الكريوك بكلمات وجمل. ويمكن الاستغناء عنها.

– هيا يا دكتور الدكاتير وعصفور العصافير! ... لقد وصلنا.

نزلت المركبة بساحة أشجارها وعماراتها، ورموزها وأنوارها مكريكة كلها. فلم يسلم من الكريكة شيء واحد. وبدا لي أن الحي كريكة قائمة ما وراءها شيء يذكر، مما جعلني أحس أني دخلت عالما يختلف تماما عن عالمنا، وأني ذات شاذة فيه، لولم يكن لي رأس وعينان ولسان، وأذنان ويدان ورجلان، وكلام مثل الحسناوات المرافقات اللواتي اختفين، لما دخلت قاعـة فسيحة مكريكة بها شاشات عديدة ضخمة، وقد جلس على مكتبها المركزي صاحب أنباء الكريكة. فارتعشت ووليت الأدبار، لأني رأيت رجلا في وزني وطولي، لكنه ملون إلى شطرين، وكل شطر مقسم إلى ألـــوان. فهـــدأ روعي وقال لي:

– مرحبا بك يا سيدي ... أنا متشوق إليك، وكنت أظـــن أنك ستبجلني على غيري، علما مني أنك تحب الهزل والمزاح.

– العفو! الأمر ليس بيدي بل يجري حسب برنامج أصحاب الخفاء.

– أعلم ذلك. وسترى على كل حال ما يفيدك، وعليك أن تأمر لتلبّى طلباتك.

– سؤال أول: ما لك مكريك خلافا لما عليـه مسـاعداتك وأهل حيك؟

– حسن! هاني على استعمالك مصطلحاتنا ودخولك في حيز

المهنة.

لقد كريكوني يا سيدي. وهذه الألوان التي تراهـــا ليســـت

قماشيـــة بحتا بل هي غلاف لطبيعة جلدي الأولى.

– وهل خلقك الله مكريكا؟ إن لله في خلقه شؤونا!

– خلقني الله سبحانه وتعالى إنسانا سليما صحيحا ... إلا أن

من عباده من أقر، أن يبدل خلقتي ولوني إلى أبد الآبديـــن.

– إلى حد تبديل لـــون جلدتـــك وتقسـيمها إلى منـــاطق

جيولوجيـــة وجغرافيـــة.

– نعـــم! لأني كنت أحب الكريكة، وكنت مشغوفا بكريكة

الناس ولا سيـــما أولي الأمر منهم، وأهـــل الذكـــر والخـــبرة، واللامعـــين

والبسطاء والسّذج و ... و ... و ...

– وفي ذلك دلالة على سلامة العقل وترويحا عن النفوس.

– الكريكة يا سيدي جماليـــة مـــن خصـــائص المجتمعـــات

المتمدنـــة المتسامحة التي تضحك من نفسها لتقويم اعوجاجها. وهي بعيدة عن

مجتمعات خطاب الصدق.

– لكني لا أرى داعيا إلى تلوينك بهذه الطريقة

– لأني تجرأت على كريكة بعضهم فأغضبهم ذلك، واعتبروه

اعتداء علـــى هيبتهم وعصمتهم. فأقروا أن أكريـــك ويمســـخ لـــوني،

فوضعت في خزّانات كيمياويـــة متعددة وضّبها الاختصاصيون حسبما ترى.

فلقـــد خلقـــوا بعد الله إنسانا مكريكا ... ذلك ما وصلت إليه عقولهم

وبحوثهم ... اختراع عظيم! لكنهم لم يكريكوا ما وهبني الله من عقل. فلقد

ظل سليما ولم ينله تلوثهم.

– وكيف وصلت إلى هذه المدينة؟ ألا يوجد أمل في استعادة

جلدك الطبيعي.

– لقد أنجدني أخي وألحقني بزملائي الآخرين الذين شيدت معهم هذه المدينة. أما استعادة جلدي ولونه، فإني انتظر بحول الله واد الكوثر ليطهرني.

– أتسخر مني! وهل هذه كريكة فكرية مازحة وراءها أمل كبير في رحمة الله.

– صدقني! هذه الألوان لا يغسلها إلا واد الكوثر الذي وعدنا الله به ووعد الله رسالة رجاء خصّ بها الإنسان وكرمه. فلعل محنتي هذه كفارة عن ذنوبي. إلا أني سأظل رغم الداء والدهاء أكريك الناس، وأدعوهم إلى أن يضحكوا من آمالهم وأوهامهم وآلامهم، وعظمتهم وسخفهم وشجاعتهم، وجنتهم وجنونهم و ... و ... و ... سأكريك كل شيء حتى الشياطين والملائكة و ... و ... و ....

– استغفر الله يا رجل! كيف تكريك الملائكة المطهرين؟

– أكريكهم إذا كانت الغاية أن أستعين بطهرهم على الشر.

الضحك ميزة مذكورة في كل الرسالات الإنسانية الكبرى. لو قرأت رأي الجاحظ في الموضوع لأصبحت مثلي. جرب وحاور أبا عثمان في الموضوع! في مدينتنا هذه قررنا أن نكريك كل محن الإنسان وبدعه

– تعني أنكم تكريكون حتى العصور السالفة؟

– بل إننا نكريك بالخصوص العصور الحديثة، بعد أن أصبحت الكريكة معرفة ضرورية وفنا راقيا صعب المنال، يمكن الإنسان من أن يضحك من نفسه ومن ترهاتها وحسناتها. انظر إلى شاشاتنا فسترى نماذج منها. البس السماعة النظارة وتمتع بما يهمك منها.

ففعلت. ومرت أمامي مئات وآلاف مؤلفة من الكريوكات التي كانت تبكيني وتضحكني دون أن أمل منها. فكانت كل واحدة منها تستهويني وتشدني إليها كأنها وحيدة نسجها. عجبا! عجبا! إن الإنسان لغريب! وركزت على بلادي وكريكتها. فأعجبني حالها وحمدت الله على ذلك، لأننا مازلنا نضحك من أنفسنا. رأيت سيدا مشى مشوارا كبيرا في

ميادين السياسة، وارتقى سلم الوزارة بأنواعها وعين يوما على رأس منظمة خطيرة مشاريعها عريضة. ففاجأته التلفزيون وسألته. وهنا ظهرت الكريكة التي صورت ما يلي: فقالت له

– ما رأي سيادتكم في انقسام الأمة، وقد أكلتها الفتن وفتكت بها الحروب بين الأشقاء فأصبحنا مثالا دوليا للفوضى والتشتت على الرغم من خطابات صدقنا التي تدعو إلى الأخوة، والتضامن والوحدة؟ فأجاب حضرته في كريكة أولى:

– سنسعى إلى درء الانشقاق. وتلك محنة ستمر وسيعود الإخاء.

ثم جاءت كريكة ثانية أضاف فيها بعد أن سوى جبة العلماء الفخمة التي ارتداها بالمناسبة.

– ستمر الأزمة ويعود الوئام أسوة بقوله تعالى: اشتدي أزمة تنفرجي ... صدق الله العظيم.

فصرخت صرخة كادت تخرجني من جلدي.

– استغفر الله! استغفر الله. هذا شعر وليس قرآنا كريما!!!

فعلق صاحبي

– إن ذلك لم يمنع صاحبنا من أن يظل ساهرا مشرفا سنين عديدة على حظوظ أمتنا في السراء والضراء.

وبدلت نظري إلى كريوك آخر عرض علي مسؤولا على منطقة مهمة. فكان لابسا زيّه الرّسمي، ويتحدث أمام ميكرفون الإذاعة عن الفيضانات التي اجتاحت منطقته وجرفت مصنعا كبيرا بني وسط الوادي، لأن أصحابه لم يحترموا مقاييس البناء الواردة في كراس الشروط البلدية التي تلاعبت بها الامتيازات والأكتاف. فقال له المذيع.

– ما الداعي إلى المصنع في وسط النهر؟

– الأمطار مطلوبة. وهي رحمة من الله.

– لكن المصنع يا سيادة ...

– الماء ... نحــــن نحتاج للماء ... ولقد أتانا منه خير كثير هذه السنة وكما قال المثل الشعبي: "وجعلنا من الماء كل شيء حي!"

فلم أتمالك عن الصراخ مرة أخرى

– هذا قرآن كريم يا ...

أما المذيع فقد بكم ثم أطلق صرخة شقت عنان السماء. أمـا أنا فكدت أبكي لحال الثقافة والمعرفة والحضارة والكفـــاءة ... ثم غمـرني ضحك عارم واستولى علي فظللت أضحك وأقهقه وأرتعش وأحك جلدي، وأمسح رأسي ساعيا إلى الإقلاع عن الضحك دون جدوى حـتى خشيـت على قلبي من الانفجار. فاستنجدت بصاحبي المكريـك فضربـني علـى أم رأسي، فسكت وانهمرت دموعي دون إذن مني. وعاد إلى هدوئي وطلبـت من صاحبي أن يعفيني من متابعة حصص الكريكة، لأنها تخـدش شعـوري وإيماني وتهدد كياني. فقال لي:

– لا تكن نعامة تخفي رأسها في التراب، حتى لا ترى الصياد قاتلها. هذه دنيانا قررنا أن نراها كما هي في مدينتنـا هـذه، دون إخفـاء حقائقها المؤلمة. انظر! انظر! إلى هذا الكريوك.

رأيت شيخا معمما وقورا، وفي يده سبحة وهو يمر أمام شاطئ تكدست عليه حسناوات في بدل سباحة متفجرة. فكان يحملق فيهن ويتعوذ: يا لطيف! يا لطيف! آه! آه!

فعلقت

– أرض الله واسعة. ما له يمر من هنا بالتدقيق!

ورأيت رجل جمارك يشحن أمتعة دبلوماسي إلى أندونيسـيا، عوضا عن تونس لأن في لغته "تونزيا" تقريبا على وزن "أندونيسيا"، فضـلا عن أنهما من بلاد الإسلام وواصلت المشوار أنظر إلى عجائب مخلوقات الله في هذه الدنيا وعلى سطح هذه الأرض. فسعدت بها لأني اكتشفت الإنسان في كفاحه المرير من خلال كريكاته التي كدت أتيه فيها حتى قال لي صاحبي:

– انظر إلى الشاشة الوسطى ففيها توجد إحصاءاتنـــا عـــن الكريكة في العالم.

– ممتاز ... إني أريد أن أرى نسبها بالأقطار العربيـــة وهـــي واحدة وعشرون.

فرأيته يطأطئ رأسه ويضغط على الزر "ع" أي عـــرب. وإذا بنسبة الكريكة العربيـــة تهاجمنا: إنها لا تتجاوز 1ر000 من المائة. فبادرت

– وفي البلد العربي ... وفي البلد العربي .... الآخـــر ... وفي البلد العربي الثالث ... و ... و ... و ....

– فيـــه ... وفيـــه ... وفيـــــــــه ... و ... و ... و ....

وتساءلنا عما إذا كانت الرتابة مستبدة بنا. لكننا استدركنا على ذلـــك لأن صوتا خفيا دخل علينا زاعما أن نسبة الكريكة والضحك في بلادنا عاليـــة جدا، إلا أنها تروى بالسماع، عوضا عن الكريكة الصريحة، لأن الروايـــــة تخفيها ولا تتحمل تبعاتها. فتأوهت

– يا حسرتي على هذا التراث الذي يأكله النسيان والخوف من ثأر خطاب الصدق!

فقال صاحبـــي:

– انظر إلى الكريكـــة مرسومة بحسب مناطق الوطن العربي: فهي معدومة في المناطق السوداء، وفي أزمة وتوتـــر في المنـــاطق الحمـــراء، وممكنـــة في المناطق الصفراء، ومنتعشـــة في المناطق البيضاء ... والغـــالب عندنا المناطق السوداء والحمراء ... أما البيضاء فهي شاذة .

– وإلى متى سنظل على هذه الحال؟

– مشروعنا أن نسرب الكريكة إلى الذهنيـــات والعقليـــات حتى تصبح تقاليد، لا يأكلها خطاب الصدق ... انظر! انظـــر ترى طائراته قد شرعت تهاجمنا بدعوى أن محطاتنا مواطن تدريـــب، وشغـــب وإرهـــاب وعداوة، وأن طلابنا جيوش إرهاب وترهيب.

وهاطلت القنابل على حي الكريكة من مدينة الأنباء. فهرعت إلى خارج القاعة. فاعترضتني مضيفاتي المكريكات، ودفعن بي إلى الموكبة ونادين أصحاب الخفاء ليتدبروا أمري. وكانت الطائرات تواصل هجوماها عل الحي وتتصارع مع مدافعه وصواريخه المكريكة التي بددهّا في نهاية الأمر. وجاءتني علامة من أصحاب الخفاء.

– فترة حاسمة ... فيها خطر ومغامرة. أليس كذلك؟

فلم أرد عليهم من أثر الغيظ. فجاءتني علامة أخرى

– لم يبق إلا زيارة حي المعرفة من المدينة. فظللت ساكتا غاضبا لأني قررت أن أثور على أصحاب الخفاء وأن أدبر مؤامرة تخلصني منهم. لكن بتأييد ومساندة من؟ وجاءتني علامة مضيئة ثالثة.

– غضبك مقبول ومعقول لأننا أجهدناك أكثر من اللازم. لكنها دنياك أردناك أن تعرفها وتعرف محنها وبدعها، لعلك تستفيد منها ... إلى اللقاء بعد حين.

ودفعتني مركبة المكريكات إلى مطار حي المعرفة من مدينة الأنباء، حيث استقبلني جمهور غفير من الصحافيين والمصورين والمتلفزين، وعلى رؤوسهم هوائيات وسماعات وفي أيديهم تلافيز صغيرة ومصورات، كأنهم يستعدون لإطلاق كلماقم وأسئلتهم تأكلني وترحيني. فانهالت علي الأسئلة طالبة مني أن أجيب عنها جملة وتفصيلا. فلم يتركوا لي مجالا لا بداء رأيي،وطاردوني حتى وصلت إلى حي المعرفة وصاحبه الذي كان في انتظاري بعمارة في شكل قمر يقلع متى شاء ويصبح قبة طائرة، كلما أراد . وكان صاحبنا رجلا عملاقا على رأسه قبعة مستديرة، تخرج منها أربعة هوائيات تتصل بها هوائيات أصغر منها. وكانت تصل إلى أذنيه كذلك سماعتان كبيرتان تنطلق منها سماعات صغيرة عديدة. وكان أمام فمه مصادح كثيرة ألوانها مختلفة، وكانت تتقدم وتتأخر بالتداول وتبتعد ثم تعود هاجمة كأنها تسعى إليه متنافسة للأخذ برأيه في أمهات المشاكل. وكانت تقصر وتطول، وتميل يمنة ويسرة كأنها تصغي وتسمع ما لا يعلم إلا الله أمره. وكان في القبة

مئات من الشبان العمالقة من نمط صاحب حي المعرفة الذي استبدت به المكتبات والمسارح، ودور السينما، والمراقص، ومعاهد البحث والجامعات والكليات. فهي تحيط بنا من كل مكان. وكانت متنوعة فيها المكتبات التقليدية بكتبها الصفراء، ومنها المكتبات السمعية البصرية وما لها من أشرطة وأدوات إعلامية. أما المسارح فإنها كانت تشتغل باستمرار، وكان يتردد على السينما آلاف من الناس. فأعجبت بمعالم المعرفة في الحي وإقبال الناس عليها وبتجادلهم في شأنها، وتذكرت شأن ثقافتنا وإشكالاتها المتهرئة.

وجاءتني علامة مضيئة تقول:

– تفضل اجلس قرب صاحب الحي

ولبست لباسا يماثل لباسه. فجاءني صوت

– مرحبا بك عندنا. لقد أصبحت منا. وستقضي معنا فترة ترى فيها ما يعجبك ويحيرك.

– هل أنا مهيأ إلى ويلات جديدة؟

– ممكن. المهم أنك كنت إنسانا معينا وستصبح إنسانا آخر، بعدما رأيت من المخلوقات، ومارست من التجارب.

– ألا يكفيني ما زودتني به معرفة أمتي وثقافتها من محن وبدع وخطب صدق؟

– هي جزء من محن الإنسانية وليست بالضرورة أثراها.

فصحت متحمسا:

– معرفتنا وثقافتنا قد وسّعتا كل شيء. فلا جدال في ذلك. يشهد به ما شيدنا من المدارس والمعاهد والكليات، وماخلفناه للإنسانية من معارف وعلوم وفنون كانت منطلقنا لعلومنا الحديثة. فأتاني صوت متهكم

– يبدو أن الدنيا وعلومها من صنعكم، دون غيركم لكنكم اليوم من أهل التبعية أليس ذلك صحيحا؟

فرددت متفصحا

- وستعود إلينا الريادة، وسنكون كما كنا سادة الدنيا وعلومها وفنونها، وحماة الإنسان وحقوقه وتقدمه وتطوره، وتضامنه وسلامته وأمنه وطمأنينته وبناة جنته على وجه الأرض.

فعارضني صوت آخر

- خطاب الصدق يعرف بأنه يهم ولا يفعل.

- أنا لست من دعاته بل هارب منه، ومن فتونه وسجونه، وأنت صوت ماكر، معاند، عدو لدود كاره، لا تستحق الاعتبار والتقدير بل المحق والشنق

فخاطبني صاحب حي المعرفة الجالس بقربي

- من أجل هذا فررت من بلدي إلى هذه المدينة. فلقد عزلوني واتهموني وخونوني وكفروني، ودعوا الى شنقي ومحقي لاني قلت علانية ما كان يقوله أغلب الناس خفية أو سرّا.

- تعني أن معرفتنا وثقافتنا كانتا ومازالتا تعيشان من النفاق

- بل من المبالغة في طمس المحللات وإمكانياتها، وإبراز المحرمات وعراقيلها التي يستحيل على الإنسان أن يجد مدخلا من ورائها، ومخرجا الى الاجتهاد والانعتاق. فالمحرمات تكاد تأتي على المحللات، والتشاؤم يكاد يأكل التفاؤل، والحال أننا مدعوون إلى أن نعمل لدنيانا كأننا نعيش أبدا، وأن نعمل لآخرتنا كأننا نموت غدا. ويبدو لي أن المعادلة قد اختلت لصالح الآخرة، وطغى التفكير في عذاب القبر على التعلق بغزو الفضاء وبلوغ العرش.

- هذا هو الإغراء بعينه والتلفيق برأسه.

فأجابني صوت نسائي

- في هذا الحي من المدينة توجد المعارف والثقافات، مهما كانت أنواعها وأصنافها وادعاءات أصحابها. فنحن نقبلها على حالها , تدخل مدينتنا وتخرج منها وتوزع على الدنيا ونتركها تتداخل وتتجاوز،

وتتصادم وتتوافق وتتنافر، وتغلب وتتغلب، والبقاء للأصلح في أغلب الأحيان.

فأجبت

– ويكون الفوز لطول اللسان والشطارة، والدعارة والإباحية، والحيلة والبزنسة كما هو معروف و ... و ... و ... إننا تعرفنا على ما يدعى بثقافة الأبواب المفتوحة ... ثقافة السوق الحرة.

– فقال لي صوت:

– صبرك يا سيدي! هذه ثقافات الدنيا ومعارفها أمامك، اختر منها البرنامج الذي يعجبك والمعارف التي تروق لك، والمسائل التي تستهويك وتحمسك وترضي إيمانك وضميرك، فاستعرضها واستمع إلى أطرافها المتوافقة أو المتنافرة، واعمل رأيك فيها. الهوائي الذي على رأسك مخصص لهذا الغرض. ثقافات الدنيا ومعارفها تمر أمامك كما تشاء في ساعة، في يوم، في أسبوع، في شهر، في سنة أو في قرن حسب السرعة التي تريد

فقررت أن أراها في يومين، وعند الضرورة في أسبوع. هذه مدة معقولة مقبولة. ومرت أمامي عجائب الدنيا وغرائبها، ولعل أكثرها عجبا قدرة أهل مدينة الأنباء على عرضها عليّ مفصلة ومجملة، دون أن أشعر بملل أو تعب. فلقد كانت لهم من الآلات ما يضاعف قدرات نظري وسمعي أضعاف ما عودت عليه. فأيقنت إذاك أنني في مدينة قد بلغت من الثقافة والمعرفة ما لا يمكن أن أدركه وأنا على ما اكتسبت من ثقافة ومعرفة في بلدي، والمدهش في هذه المدينة هو أنها خزنت كل ما اخترعه الإنسان من معارف وثقافات عندما خرج من ظلمات الدهر إلى نور التاريخ ومحنه وبدعه. فما أثرى ما رأيت! وما أجمل ماسمعت ! وما أفضع ما شاهدت، وما أغرب ما رأيت من حقائق ومعارف وثقافات انطلقت من المخلوقات البدائية، وهي تخترع النار إلى الحشود وسيوفها الحديدية ثم ألى رائد الفضاء يتجول على سطح الأرض، والى شعوب يموت أطفالها يقال من الجوع وقلة المطر، والحال الإنسان واحد في الشرق والغرب وعند العرب والأمريكان،

رأسه وعيناه وأذناه ولسانه كله واحد. وهنا فاجأتني علامة مضيئة من أهل الخفاء.

– القضية قضية منهج وخبرة ورأي يا سيدي ... أنظر إلى الشاشة أمامك وسترى!

وبرز أمامي ثلاث فرق من الخلق، الأول أبيض والثاني أسود والثالث أزرق، وكانوا هائجين مائجين في صدام وكلام عنيف لا يليق بالمعرفة والثقافة في عصرنا، وعلى رؤوسهم لافتات وفي أيديهم أسلحة متنوعة يلوحون بها استعدادا للقتال. وهلعت لما سمعت الفريق الأبيض يقول

– الله موجود، حق قائم على الأعداء الناكرين، وهو قوة كامنة فينا

ورد الفريق الأزرق

– والعلم حق معيش لا يختلف فيه اثنان.

وظل الفريق الأسود ساكتا فصرخت:

– هذه معركة قديمة تتجدد. فلم هذا التنافر لأن هذه الحقائق غير متخالفة؟

وما كدت أسكن حتى مر أمامي خبر صحافي معيش في شكل سؤال موجه من قارئ إلى جريدة معروفة مشهورة يقول:

– مشكلتي أني كلما دخلت المسجد واستقبلت القبلة وكبرت تكبيرة الإحرام، أرجع فأشك هل كبرت تكبيرة الإحرام، فأكبر ثانية وبعد ذلك أقرأ الفاتحة فأسهو، وأعود إلى قراءتها من جديد، وخاصة إذا كنت مع الإمام. فهل صلاتي على هذه الحال صحيحة؟ وماذا أفعل لتجنب السهو؟ أفيدوني أفادكم الله؟

وجاء الجواب على نفس الجريدة:

– الصلاة والحال ما ذكرت صحيحة، ولكن ينبغي لك الحذر من الوسواس وذلك بالإقبال على الله واستحضار عظمته إذا دخلت في الصلاة وجمع قلبك مع الاستعاذة من الشيطان وترضي ربك سبحانه.

فأدركت أن الجواب جواب إيمان، يقر وجـود الله ووجـود الشيطان في حياة الإنسان وسلوكه. فأقر حقيقة الفريق الأبيض وأهمل حقيقة الفريق الأزرق ولعله الأسود، لأنه لم ينصح السائل المسكين بأن يعود طبيبـا نفسانيا، لأنه على ما يبدو مصاب بمرض يمكن معالجته مادام واعيا بأثره فيه. فلو هدي ذلك المؤمن الصدوق إلى هذه الحقيقة الثالثة لصلـى بـدون أن يسهى، ودون أن يتغلب عليه الشيطان الذي عاد ذكره مرة ثانيـة. فلقـد قرأت خبرا يقول:

– قام مشعوذ من ... بحرق امرأة وهي من بين أفراد عائلته، وقد ألقي عليه القبض بعد أن توفيت الضحية متأثرة بالحروق التي أصابتها. وقد اعترف "ج هـ " وهو في الثانية والعشرين من عمره بأنـه سكب سائل البترول على الضحية وهي في الرابعة والعشرين من عمرها وأشعل فيها النار لتخليصها من الأرواح الشريرة ".

فاستعجبت من مكانة الثقافة الشيطانية عند الإنسان. وسمعت أصحاب الفريق الأبيض يصرخون في وجه أصحاب الفريق الأزرق

– الشيطان يولد من لائكيتكم ... فلسفة مجتمع الإيمـان لا تجيز للإنسان الخروج عنه إذ لو حصل لاعتبر مرتدّا ولعوقب عقابا شديـدا. فإن مفهوم اللائكية إلحاد وكفر ... مات أصحاب اللائكية مع لينين وستالين إلى أبد الآبدين.

فرد أصحاب الفريق الأزرق بعنف

– والإيمان بالشيطان إيمان جوز لصاحبنا "ج. هـ " أن يحرق قرينته ليخلصها من الأرواح الشريرة؟ فهل يعتبر من احتج على ذلك وخرج عنه مرتدّا؟ أليس كذلك

فأجاب أصحاب الفريق الأبيض

– لا يهمنا ما يقول غيرنا. فنحن حقيقة قائمة ما دام الإيمان والعلم في خلاف. مجالنا واسع.

واشتد الجدال وتصادم الفريقان وانقلبت حرب الكـــلام إلى حرب نار، وفتك حتى فني المحاربون ، وظلت حقائقهم يتيمة لا نصير لها ... وخرجت علي من يسار الشاشة جماعة صفراء غفيرة كانوا يجرون وراء رجل محتـــرم المظهر، محلوق الرأس، يعتبر إلاههم الحي الماشي على رجليه. لقـــد جاء من تخوم الأرض، وهو ليس صنما أبكم مثل الأصنام الغابرة، يقول إنــه مؤمن ليس له وحي ولا دغمائية، يحب الخير ويرى أن الإنسان مقياس كـــل شيء وأن أمله يموت معه، فلا آخرة ولا جنة ولا جـــزاء ولا عقـــاب إلا في الدنيا ... والسلام. غريب شأن الإنسان، لأنه لم يوفق بل لم يهد إلى التوحيد وتوحيد معرفته وثقافته ... كل واحد يغني وجناحه يرد عليه كما يقـــــول المثل الشعبي. وأصابني قلق لما رأيت جماعة أخرى تصرخ داعيـــة إلى الاتفاق على معاهدة تضمن حقوق الحيوان، حتى لا يسجن حيوان من أجل نباحــه طمعا في التعبير عن رأيه وحريته وتخلصا مـــن الـــدهاليـــــز والأقفـــاص والذبح والشوي ... المطلوب الحريـــة الكاملـــة!

فعلقـــت

– عجبا! عجبا والله! حقوق الحيوان! وحقـــوق الإنســـان مازالت محل نظر!

فجاءتني علامة مضيئة تقول

– لقد وزعنا خمسين كلبا ممرنا على خمسيـــن أعمـــى. فلـــو كانت لنا كلاب أكثر لوزعناها على جميـــع عميـــان الدنيـــا ... ولكـــانوا للكلاب شاكريـــن.

سكت من الغضب، لأني لم أر داعيا إلى الدخـــول في هـــذا النوع من المجادلات وما وراءها من زندقة وحمق، وإن كانت لا تخلـــو مـــن معقوليـــة يقرها الطبع السليم ... وشعرت بملل من هذه القضايا فســـمعت صوتا يقـــول.

– وما لك لا تعطي الخلاف حقه ... ولا تقر إلا رأيـــك ولا تنظر إلى الواقع المعيش وحقائقه الصلبة.

فقلـــت

– لكن الحق واحد وليس حقوقا.

فلم يجبني أحد كأن روح الجدال قد ماتت. وأحسست إذاك بسكون رهيب ثقيل كأنه جبال من العتاب. واضمحلت مـــن الشاشـــات الصور والمناظر كأن المدينة كلها في وثبة واحدة للاحتجاج على اســـتبدادي بالرأي. فعاتبت نفسي على تعنتها وعلى خطاب صدقها، بعد ما دعيـــت إلى هذه المدينـــة التي شيدت لتكون مرصدا يمر به كل ما هب ودب من أعمال الإنسان، ماضيا وحاضرا ومستقبلا، حتى يمكن له أن يستفيد منها ويـــدرك الحقيقة بالمقارنة والممارسة ... ولعنت الشيطان ... نعم الشيطان مهما كان مشكله ومعناه، لأنه موجود قائم في الأذهان والذهنيات حاضر في الأعمال والآمال ... وبغتة عادت الصور إلى الشاشات، وظهر أمامي صاروخ قـــائم عملاق والناس حوله في حركة دائبة. فسألت عنه فجـــاءني فـــاكس علـــى الشاشة يقـــول:

– صـــاروخ سيطلق نحو الشمس

فناديـــت:

– غريب، جنون، تهور ... سيحرق، سينفجر ويفجر الدنيـــا معه فقالت الشاشـــة:

– أنسيت ما قالت لك المريخات عندما كنت علـــى ظـــهر مركبتهن؟ ألم تر بعيني رأسك ما بلغنه من عرش السماوات والفضاء؟

سكت مستحيا من موقفي لأني لم أتعض بما شـــاهدت مـــن عجائب الإنسان في الكون: الطائرة، الصاروخ، مراكب الفضاء وغزو القمر والمريخ. فلم لا الشمس أو غيرها لتستريح الأرض التي ستنفجر بمليـــارات ساكنيها وتلوثهم وتهورهم وتناحرهم وشياطينـــهم و ... و ... و ... حـــتى الفضاء، ويبقى وجه ربك ذي الجلال والإكرام. فسخرت مـــن الإنســـان وترهاته ومهاتراته التي لا تسمن ولا تغني من جوع، لولا سعيه إلى أن يكون على قدر عقله وما يحويه من مشاريع ومبادرات. وتحسرت علـــى النـــاس

بلادي، لأن فيهم من يقاتل أخاه حول الديك ومتى يصبـــح صباحـــا! أ في الرابعة أم في الخامسة، أم في السادسة والنصف، كأن في رأسه ساعة مؤقتة.
وعدت إلى الصاروخ الشمسي الذي انطلق في الفضاء كأنه قصيدة رائعـــة طائرة نظمها آلاف بل ملايين من الشعراء، لتنشد سفـــرا وهـــذرا لا نهاية لهما، وقد تخلصت من خطابات الصدق ودخلت في عنان السماوات وبحـــار الكواكب.

وعلمت أنه يتجه نحو الشمس بسرعة 55000 كيلو مـــتر في الساعة وأنه سيبلغها بعد أربع سنوات من قطبها الجنوبي، بعد أن يكون قـــد قطع خمس وحدات فلكيـــة تبلغ كل واحدة منها 150 مليون كلم. فلـــو ركبه بشر فهل سيعودون؟ المريخات قد أكدن لي ذلـــك ... والـــبراق ... والخيال والريادة والعرش ... ومرت أمامي إنسانيتنا العربيـــة وهـــي واردة وشاردة حتى أخذني النوم ".

وهنا سكت عبـــار وسكت الرواة لأن الفجر قد لاح و ...
و ... و ... فتناسوا السفر وسكتوا عن الهذر، وغلبهم النوم، فاسترخوا في انتظار صاحبهم في ذلك اليـــوم.

مدينة الأفكار

يا ستار استر!

– يا محمود! يا جماعة.. استيقظوا ولا تناموا! هذه رسالة جماعية إليكم من سيّد يدعى "سفر وهذر " ... يا ناس استيقظوا. وقتي قليل وشغلي كثير.

فقفزت الجماعة كلها كالرجل الواحد وأحاطت بساعي البريد. وبادره أبودودة:

– رسالة جماعية! ومن راسلها؟

– شخص يدعى "سفر وهذر " يا صاحب السعادة.

وصرخت حياة

– خذها يا بودودة لعلها من صاحبنا

– لكنه لا يدعى سفرا وهذرا. أنا لا آخذ رسائل ملغومة من هذا النوع.

وعلق محمود

– أنا آخذها مهما كان شأنها.

فسلمه ساعي البريد إياها وانصرف مبتسما متهكما من هذه الرسالة الجماعية ومن اسم مرسلها الغريب.

عبار:

– لعلها رسالة آتية من مدينة باب العرش

وقال محمود

– أفتحها باسم الله وعلى بركته. إنها رسالة تلغرافية كالعادة

وقال الجماعة

– ماذا تقول؟ أسرع! تكلم!

– سلام عليكم جميعا، تحية طيبة، آسف على التأخير عن القدوم في الموعد المضروب – السفر والهذر شغلاني وقتا

طويلا - قمت برحلات مكوكيـة زرت فيها مدن البحـار والذكـرى، والمريخ، والصادقيـن والنبأ قبل اللقاء بكـم، لأسبـاب طارئـة - الأسفـار صارت حسبما تصورتم - هنيئا لكم على خيـالكم وتخيلكـم وبراعتكـم - نلتقـي بمدينـة تلتة الجديـدة على مقربـة مـن تلتـة القديمـة، بستة كيلومتر - الموعـد عدا بمدينـة الأفكـار على الساعـة العاشـرة صباحا. في انتظاركم في مركـبة حمـراء.

فصعق القوم وظلـوا ساكتيـن، ثم صرخوا صرخة جماعيـة دوت في الفضـاء كالقنبلـة.

العجـب! العجـب أصبح حقيقـة!

واستولـى عليهم الهذر مرة أخرى

محمـــود: مدينـة تلتـة الجديـدة! مدينـة الأفكـار؟ وما عسانا نفعل بالأفكار وما إليها من ترهـات ومتاهـات؟

بـــودودة: أيجـوز أن تبنى مدينة من الأفكار؟ كل شيء ممكن. لم أزر المنطقة من عشريـن سنة.

عبـــار: لقد بلغني خبر هذه المدينـة الجديـدة بالروايـة، ولم أعرها اهتماما في ذلك الوقت. فكرة جميلة والله.

حيـــاة : وصاحبنا ينتظرنا في مركبـة حمـراء! أتصدقـون ذلـك؟

شـارب النهـر: أيعقـل أن تنشـأ مدينـة جديـدة دون أن يعلمنا بها ساعـي البريـد؟

بـــودودة: إنها أخبـار عجيبـة وغريبـة. إنـي أنتظـر بفارغ صبـر اللقـاء بصاحبنـا. فهـل سيكـون كمـا تصورناه؟

محمـــود: وما لـه يتجنـب لقاءنـا بتلتـة القديمـة؟ فهل يعني ذلك أنها ماتت وماتت أفكارهـا؟

عبـــــــار: أنا متردد يا جماعـــــة. هـــذه البرقيـــة الجماعيـــة تقلقنـــي. لعلها هـــراء مثـــل الأولـــى.

حيـــــــاة: كفانـــي انتظـــارا وأحـــــلاما وأوهـــاما! لنعـــد إلى دنيـــانا وواقعنــــا الحلو المر.

شــــــارب النهـــر: وما ضرنا لوجربنا مرة أخرى ولو للمتعــــة.

بــــــودودة: أنت إنسان غرّ يـــأكل عقلك ومخنـــك الوهـــم والأمل. لقد كنت صبيا وستظل صبيا يصدق كل شيء، حتى مـــا يروى لك على سبيل التسليـــة.

محمــــــود: المدينـــــة الجديـــدة تســـتهويني. وعالمها ممكن لأنها مشروع مفتوح. لقد أصبحت كاتبا أكتب لا ســـيما وأني كنت أول من وضع قصة من قصصنا، استخلصتها مما روى ابن عمي المهاجر من أخبار عن بلاد الأعاجم.

حيـــــــاة: أوضـــاع الإنـــاث في أقطارنا توحـــي بوقائـــع لا يستغرب أن يتولد منها ما تصورته في قصتي وما رويتـــه لكم.

عبـــــــار: مـــا كنـــت أراه ليـــل نهـــار في التلفزيـــون والأفـــلام جعلنـــي أصدق وجـــود العالم الـــذي تصـــورت. فالعجب العجاب أن يوجد اليـــوم عالـــم يخالفـــه ويختلف عنـــه.

شــــــارب النهـــر: ما يجري في واقعنا اليـــومي من أحـــداث وحوادث جعلنـــي لا أستبعد عودة الإنسان إلى مدينـــة أصـــل، نقيـــة طاهرة يخفي فيها رأسه من الواقع الجديـــد الذي يهاجمه مـــن كـــل صوب ... الفرار ... الهـــروب!!

وسكتوا جميعهـــم وظل كل واحد يفكـــر في رأي صاحبـــه. وقرروا بعد تردد أن يلتحقوا بصاحبـــهم في محاولـــة أخيـــرة ... فلعـــل وعســـى!!!

ووفقوا إلى ما عزموا عليه. ووجدوا صاحبهم في انتظـــارهم.

فكان يشابههم جميعا: محيا حيـــاة، وشعر بودودة، وقامة محمـــــود وسمـــرة شـــارب النهـــر، وصـــوت عبـــار. فاستغربوا من أمرهم. والدنيا غرائب.

وتعانقوا وابتسموا وضحكوا، وغنوا ورقصوا. وقال لهم صاحبهم:

- لقد تحققت المعجزة في آخر لحظة، ووفقت مع أصحـــاب الخفاء إلى أن اتفق أصحاب الملل والنحل على أن يبنوا مدينة تلتة الجديـــدة، مدينـــة للأفكار، وأن ينفخوا فيها من الروائع والعجائب والمستحيلات التي دوختنا واستولت على ألبابنا، وأن يجعلوا منها مسرحا للأفكار التي لا يأتيها خطاب الصدق من قبل ولا من خلف. فتدخلها حرة طليقـــة تعيـــش مـــن إجماعهم عليها، وتموت من نفورهم منها.

حيــــــــــــاة: إني أتمنى أن يكون ذلك ممكنا. دنيانـــا سفّارة مهذارة، قد شيدت حولها كل ملة عالما من صلبها لتستجير به مـــن عالم غيرها. إن دنيانا عوالم متنافرة خطب صدقها متنوعـــة. لا ســــبيل إلى اتفاق كلمتها.

قـــال صاحبهـــم:

- لقد كتبوا وسجلوا وأمضوا، وتعهدوا بأن يكونـــوا يـــدا واحدة على بناء مدينة مثال تكون مهدا للعالمين.

محمـــــود: ومن سيحكم لذلـــك أو عليـــه؟

قـــال صاحبهـــم: نحن وأصحاب الخفاء.

بــــــودودة: لقد أصبحنا من جنود السلام والوئـــام.

شــــارب النهـــر: بل من مراقـــبي الأمـــم المتحـــدة، والجامعة العربيـــة والندوة الإسلاميـــة، والوحـــدة الإفريقيـــة والحلـــف الأطلسي و ... و ... و ...

حيـــــاة: هذه شبكـــة مراقبـــة. وعندي من راقـــب الناس مات همّا. أنا مازلت في حاجة إلى مشروع واقعي أصرف فيه جـــهدي وجهادي.

عبـــــــار: باب العرش مازال مفتوحـــا ورحمـــة الله واسعـــة!

فقـــــال صاحبـــهم: التجربـــة جديـــرة بالعنايـــة، والأسطورة جديدة بديعـــة فلنركب مطيتها ولنأخذ بيد هذه الملل والنحل التي توحدت آمالها، بعد أن كان اتفاقها مستحيلا. فهل يجوز ألا نتفق علـــى ما اتفق عليه؟ وهل يحق لنا أن نعطل بالكلام ما هم قائمون به من أعمـــال؟ لقد شيدوا المدينة في لمحة البصر، ومدوا جسور المودة بينهم، وبلغـــوا مـــن الاتفاق والوفاق ما تجاوز البحار والآفاق والسماوات. لننهض يـــا جماعـــة ولنزرهم وهم بالجهد والجهاد يرفعون صرح مدينة الأفكار.

ادخلوا المركبـــة!

وطاروا وحلقوا فوق مدينـــة تلتـــة الجديـــــدة. فكـــانت مدينـــة المدن، قد أخذت من المدن السابقـــة معالمها ومحاسنهـــا وآياتهـــا. فكانـــت هي دون أن تكون إياها. وجاءت علامة مضيئـــة من أهل الخفاء تقـــول:

– التجربـــة ثورة عجيبـــة ... عليكـــم أن تســـجلوها وأن ترعوها وأن تبلغوا رسالتها إلى العاليـــن ... نحـــن في انتظار رأيكـــــم في مدينـــة الأفكـــار ... إلى اللقـــــاء!

فعلـــق بـــــــودودة

– مسؤوليـــة خطيـــرة ... رؤيـــة تكاد تكون مستحيـــلة.

ياستار استـــــر!

" معجم الرواية "

والهدف منه التنبيه على ألفاظ واستعمالات ومصطلحات غايتها التعبير عن مفاهيم اجتماعية وثقافية وحضارية، ليست بالضرورة من الرصيد الشائع ولا من " خطاب الصدق اللغوي المعياري ". فهي أسلوب أو عدول له، فى رأينا وظيفة تعبيرية وإبداعية مقصودة. وليت كل رواية أو قصيدة تتبع بمعجمها ليستفيد منها المتلقي ويثرى بها معجم العربية:

الصفحة	اللفظ أو المصطلح	معناه فى سياق الراوية
16	عرمسلمي، تقدوسطي، تقالبري ، هبلع	كلمات منحوتة من عربى مسلم وتقدمي وسط، وتقايي لبرالي وهلع بلع – مواصفات تشهد بالجدل العقدي ومهاتراته في المجتمع العربي المعاصر.
18	الشمندفر	فرنسية تعنى سكة الحديد، وبالأحرى القطار. وقد استعملها الزهاوى في شعر زمانه تعبيرا عن الحداثة.
21	شكشوكة	أكلة شعبية تونسية من كل الخضار، لا لحم بها، تستعمل عنوانا على الخلط والتداخل.
22	برفات، برفكت	بالفرنسية والإنجليزية

		وتعنيان " ممتاز ".
22	البلوط	لعلها مقلوب الباطل وتستعمل بكثرة بمعنى الكذب
23	باسطه	إيطالية بمعنى " كفى! "
24	أبو قرعون	شقائق النعمان.
24	الهندي	التين الشوكي في المشرق
28	بريكاجي	صانع البريك: أكلة تونسية بحتة تستهلك خاصة في شهر رمضان، وتستعمل مع الجنة عنوانا على منتهى السعادة.
34	البونك	يطلق على جماعة الرؤوس المحلوقة العنصريين في أوروبا وأمريكا
35	" البيكو " و " الراتوان "، " النورداف "	أوصاف عنصرية مهينة ، تطلق على عرب المغرب من الوافدين الى فرنسا.
40	" الفيسته "	" من الفرنسية، الجاكتة بالإنجليزية وقلب القيسته تعبير عن

		مفهوم " قلب المجن " العربي القديم ".
42-41	ص، ع، ص + ع	مختصرات ل: صدق، عداء، صدق + عداء
50	الباغودا	معبد البوذيين
53	مجزمة	من " الجزمه المصرية تعبيرا عن الانضباط.
138	المبزنسة	من الإنجليزية " بزنس " أي المتاجرة بالأخبار والأعراض.
145	" روبافيكا "	من الإيطالية: وتعني الملابس القديمة تعبيرا عن التهرئة.
151	الهرقمة	أكلة شعبية تونسية من رأس البقر وأجزائه
151	هريسة	ما يعبر عنه في مصر " بـ " شطة "، مادة فلفلية تزيد الطعام حرارة.
154	رعبي	مقلوب عربي. وقد دعا إلى تصيدهم أعداؤهم السياسيون والعنصريون في إعلانات مشهورة بأمريكا.

لنفس الكاتب

أ – في القصة والرواية :

1 – بودودة مات : رواية – الدار التونسية للنشر – الطبعة الخامسة 1986م .

2 – طرنو تعيش وتربي الريش: مجموعة قصص – الدار التونسية للنشر – الطبعة الرابعة 1986 م.

3 – زمن التوهات في ثلاث مسرحيات – الدار التونسية للنشر – الطبعة الأولى 1988 م. وهي:

أ – الشياطين في القرية.

ب – الصارخون في الصحراء.

ج – السلسلة.

ب – في اللسانيات والمعجميات :

1 – من قضايا المعجم العربي. دار الغرب الإسلامي – بيروت 1986

2 – المنهجية العامة لترجمة المصطلحات العلمية وتوحيدها – دار الغرب الإسلامي – بيروت 1986.

3 – العربية والحداثة أو الفصاحة فصاحات – دار الغرب الإسلامي – بيروت 1986

4 – أعمال مجمع اللغة العربية بالقاهرة – دار الغرب الإسلامي – بيروت 1988.

5 – مجمع اللغة العربية بدمشق والنهوض باللغة العربية – دار التركي للنشر – تونس 1988.

6 – المعجم العربي : إشكالات ومقاربات – بيت الحكمة – تونس 1991.

7 – ظاهرة المعجمية وسبلها إلى الإحاطة بالخطاب العربي الإنساني – نشر المجلس الأعلى للثقافة القاهرة 1996.

Collection *Ecritures Arabes*
dirigée par Maguy Albet
et Alain Mabanckou

Dernières parutions

N°130 Claire Gebeyli, *Cantate pour l'oiseau mort.*
N°131 Albert Bensoussan, *L'œil de la sultane.*
N°132 Mohd Karou, *Le retour inachevé.*
N°133 Lotfi Selmi, *Le testament.*
N°134 Gebran Tarazi, *Le pressoir à olives.*
N°135 Max Guedj, *Le cerveau argentin.*
N°136 Rachid Chebli, *Au-delà de Jabal Tarik.*
N°137 Mouloud Achour, *A perte de mots.*
N°138 Abdessalam Idriss, *Ibaydi.*
N°139 Leila Barakat, *Les Hommes damnés de la terre sainte.*
N°140 Mohamed Haddadi, *Les Bavures.*
N°141 Albert Bensoussan, *Le chant silencieux des chouettes.*
N°142 Tarik M. Nabi, *Dent pour dent.*
N°143 Kerroum Achir, *Nassima.*

Collection ***Ecritures Arabes***
dirigée par Maguy Albet
et Alain Mabanckou

N°99 Lyne Tywa, *La liaison.*
N°100 Nabile Fares, *Le miroir de Cordoue.*
N°101 Layla Nabulsi, *Debout les morts !*
N°102 Taïeb Sbouai, *Le rêve suspendu.*
N°103 Mohd Karou, *Le retour inachevé.*
N°104 Hadjira Mouhoub, *La guetteuse.*
N°105 Sami Al-Sharif, *L'Eternel perdant, de Bagdad à Jérusalem.*
N°106 Anouar Benmalek, *L'amour loup.*
N°107 Mohed Altrad, *Badawi.*
N°108 Aymen A. Jebali, *Justice pour tous.*
N°109 Leïla Barakat, *Le chagrin de l'Arabie heureuse.*
N°110 Albert Bensoussan, *Le Félipou (contes de la sixième heure).*
N°111 Henri-Michel Boccara, *L'ombre... et autres balivernes.*
N°112 Jacqueline Sudaka-Bénazéraf, *La secrète.*
N°113 Hassina, *Les chants sacrés du vent et de l'olivier.*
N°114 Mustapha El Hachemi, *Les minuits de la terre battue.*
N°115 Fatima Bakhaï, *Un oued, pour la mémoire.*
N°116 Mohammed El Hassani, *La fraude.*
N°117 Habib Mazini, *La vie en laisse.*
N°118 Jeanne Benguigui, *Le déménagement.*
N°119 Ghita El Khayat, *Les sept jardins.*
N°120 Ahmed Triqui, *Délos... ou la voix ambiguë.*
N°121 Nordine Zaimi, *Le tombeau de la folle.*
N°122 Nordine Zaimi, *Contes des vies rusées.*
N°123 Sabrina Kherbiche, *Les yeux ternes.*
N°124 Fatima Bakhaï, *Dounia.*
N°125 Leïla Barakat, *Pourquoi pleure l'Euphrate... ?*
N°126 Selmi Lotfi, *Une voix dans la nuit.*
N°127 Yasmine Benmehdi, *Les rênes du destin.*
N°128 Nadia Chafik, *Filles du vent.*
N°129 Ahmed Ismaili, *Le train de l'apocalypse.*

Collection ***Ecritures Arabes***
dirigée par Maguy Albet
et Alain Mabanckou

N°68 Tahar Bekri, *Le laboureur du soleil.*
N°68 bis Ammar Koroghli, *Sous l'exil, l'espoir.*
N°69 Ammar Koroghli, *Mémoires d'immigré.*
N°70 Saaf Abdallah, *Chroniques des jours de reflux.*
N°71 Noureddine Aba, *Et l'Algérie des rois, Sire?*
N°72 Hassina, *Ame des fleurs, ma soeur.*
N°73 Dounia Charaf, *L'esclave d'Amrus.*
N°74 Fawzia Assaad, *La grande maison de Louxor.*
N°75 Albert Bensoussan, *La Ville sur les eaux.*
N°76 Fatiha Berezak, *Regard Aquarel III.*
N°77 Leïla Rezzoug, *Douces errances.*
N°78 Noureddine Aba, *L'Arbre qui cachait la mer.*
N°79 André Nahum, *Le roi des Briks.*
N°80 Selim Matar, *La femme à la fiole.*
N°81 Erasmi Mohamed Bousquim, *Complaintes de perdants orgueilleux.*
N°82 Naïdè Ferchiou, *Ombres Carthaginoises.*
N°83 Mokhtar Atallah, *Rue du Liban.*
N°84 Raphaël Braque, *Le nouveau livre d'Isaac.*
N°85 Albert Bensoussan, *Djebel-Amour ou l'Arche naufragère.*
N°86 Azzedine Bounemeur, *Cette guerre qui ne dit pas son nom.*
N°87 M.K. Bouguerra, *Fenêtres barbares.*
N°88 Slaheddine Bhiri, *De nulle part.*
N°89 Fatima Bakhai, *La Scalera.*
N°90 Fatiha Berezak, *Homsiq.*
N°91 Myriam Ben, *Ainsi naquit un homme.*
N°92 Rabia Abdessemed, *La voyante du Hodna.*
N°93 Leïla Barakat, *Sous les vignes du pays druze.*
N°94 Messaoud Djemaï, *Le lapsus de Djedda Aïcha et autres histoires à lire à haute voix.*
N°95 Maya Arriz-Tamza, *Quelque part en Barbarie.*
N°96 Leïla Houari, *Les Cases basses* (théâtre).
N°97 Albert Bensoussan, *L'échelle séfarade.*
N°98 Salah Benamara, *Sous les pierres mon cœur.*

Collection *Ecritures Arabes*
dirigée par Maguy Albet
et Alain Mabanckou

N°32 G. Coissard et H. Djedidi, *Chassés Croisés.*
N°33 Tawfik El Hakim, *L'Âne de sagesse.*
N°34 Sakinna Boukhedenna, *Journal : Nationalité : Immigré(e).*
N°35 Albert Bensoussan, *Le dernier devoir.*
N°36 Tahar Bekri, *Le cœur rompu aux océans. Poèmes.*
N°37 Leïla Houari, *Quand tu verras la mer.*
N°38 Évelyne Accad, *Coquelicot du massacre.*
N°39 Mohamed Ghazi Chniber, *Les murmures de la palmeraie.*
N°40 Leïla Rezzoug, *Apprivoiser l'insolence.*
N°41 Mohamed Haddadi, *La malédiction.*
N°42 Fatiha Berezak, *Le regard Aquarel II.*
N°43 Antoinette Benkerroum-Covlet, *Gardien du seuil.*
N°44 Mohamed Moulessehoul, *De l'autre côté de la ville.*
N°45 Moncef Ghachem, *Cap Africa.*
N°46 Salah Al Hamdani, *Au-dessus de la table, un ciel.*
N°47 Albert Bensoussan, *Mirage à trois.*
N°48 Ammar Koroghli, *Les menottes au quotidien.*
N°49 Gilles Zenou, *Les Nuits.*
N°50 Tewfik Fares, *Empreintes de silences.*
N°51 Maya Tamza Arriz, *Ombres.*
N°52 Bouissef-Rekab, *A l'ombre de Lalla Chafia.*
N°53 Ferrudja Kessas, *Beur'story.*
N°54 Ridha Bourkhis, *Un retour au pays du bon Dieu.*
N°55 Nousha Fassi, *Le ressac.*
N°56 Abderrezac Hellal, *Place de la régence.*
N°57 Mohd Karou, *Les enfants de l'ogresse.*
N°58 Layla Nabulsi, *Terrain vague.*
N°59 Brahim Sadouni, *Le drap.*
N°60 Fatiha Sefouane, *L'enfant de la haine.*
N°61 El Moubaraki, *Zakaria, premier voyage.*
N°62 Bensoussan Albert, *Visage de ton absence.*
N°63 Guedj Max, *L'homme au basilic.*
N°64 Albert Bensoussan, *Le marranne.*
N°65 Reda Falaki, *La ballade du berbère.*
N°66 Ahmad Bahgat, *Mémoires de Ramadan, Egypte.*
N°67 Sami al Sharif, *Les rêves fous d'un lanceur de pierres.*

Collection ***Ecritures Arabes***
dirigée par Maguy Albet
et Alain Mabanckou

N°1 Abdallah Baroudi, *Poèmes sur les âmes mortes.*
N°2 Évelyne Accad, *L'excisée.*
N°3 Abdallah Zrika, *Rires de l'arbre à palabre.* (Poèmes).
N°4 *La parole confisquée. Textes, dessins, peintures de prisonniers politiques marocains.*
N°5 Noureddine Aba, *L'Annonce faite à Marco ou A l'aube et sans couronne.* (Théâtre).
Noureddine Aba, *C'était hier Sabre et Chatila.*
N°6 Jean Amrouche, *Cendres.* (Poèmes).
N°7 Jean Amrouche, *Étoile secrète.*
N°8 Souhel Dib, *Moi, ton enfant Ephraïm.*
N°9 Myriam Ben, *Sur le chemin de nos pas.* (Poèmes).
N°10 Touati Fettouma, *Le printemps désespéré.*
N°11 Noureddine Aba, *Mouette ma mouette.* (Poèmes).
N°12 Belhriti Mohammed Alaoui, *Ruines d'un fusil orphelin.* (Poèmes), suivis de *L'Épreuve d'être.* (Pamphlet).
N°13 Albert Bensoussan, *L'Échelle de Mesrod.* (Récit).
N°14 Morsy Zaghloul, *Gués du temps.* (Poèmes).
N°15 Rabah Belamri, *Le Galet et l'Hirondelle.* (Poèmes).
N°16 Tahar Bekri. *Le chant du roi errant.* (Poèmes).
N°17 Leïla Houari, *Zeida de nulle part.*
N°18 Abdellatif Laabi, *Discours sur la colline arabe.*
N°19 Fatiha Berezak, *Le regard aquarel.*
N°20 Jean Amrouche, *Chants berbères de Kabylie.*
N°21 Ahmed Kalouaz, *Point kilométrique 190.* (Roman).
N°22 Fathia Saoudi, *L'oubli rebelle. Beyrouth 82.* (Journal).
N°24 Kacimi El Hassani, *Le mouchoir.*
N°25 Nabile Farès, *L'exil au féminin.*
N°26 Max Guedj, *Mort de Cohen d'Alger.*
N°27 Myriam Ben, *Sabrina, ils t'ont volé ta vie.* (Roman).
N°28 Mustapha Raith, *Palpitations intra-muros.* (Roman).
N°29 Jean-Luc Yacine, *L'escargot.* (Roman).
N°30 Abdellatif Laabi, *L'écorché vif.*
N°31 Abdellatif Laabi, *Le baptême chacaliste.* (Théâtre).

MISE EN PAGES FOURNIE

Achevé d'imprimer par Corlet, Imprimeur, S.A. - 14110 Condé-sur-Noireau (France)
N° d'Imprimeur : 30125 - Dépôt légal : mars 1998 - *Imprimé en U.E.*

Voyages et balivernes

Je fuis la langue de bois...

Mohamed Rached Hamzaoui

Nous avons décidé — que Dieu soit loué — de ne pas opter pour un être humain unique monolithique, momifié, sanctifié, robotique et sans âme. Quant à moi, j'ai opté pour un être humain certes narcissique mais dont la vision, sans cesse renouvelée, est à la recherche de la vérité, au-delà des frontières, des contraintes et surtout de la langue de bois ainsi que des héroïsmes, des idéologismes et des lectures préfabriquées. Je suis à la recherche d'un être humain qui pense et d'une cité qui me prend dans ses bras et me protège de la langue de bois. Telle est ma cité élue. Tout le reste mérite d'être revu. C'est la leçon que m'a enseigné mon séjour en prison.

الحمد لله على أنّنا لم نتّفق على إنسان واحد أوحد موحّد، مومي قدسي، ربوتي حديدي. أنا أحبّه، و إن كان نرجسيًا، صاحب رؤية متجدّدة يبحث عن الحقيقة الهاربة من الحدود و القيود و خاصة من خطاب الصدق... و من البطولات و العقائديات و القراءات الجاهزة. إنّي أبحث عن إنسان يفكّر و عن مدينة تحتضنني و تحميني من خطاب الصّدق و مطلقاته... تلك هي مدينتي. أمّا الباقي ففيه نظر... ذلك ما تعلّمته في السّجن...

*محمّد رشاد الحمزاوي كاتب من تونس أسهم في القصّة القصيرة و الرّواية و المسرح و سلك في مضمونها و أشكالها و مقاصدها مسالك قد سعت باستمرار إلى ان تتجاوز "خطاب الصدق" والأنماط اللّغويّة و الأدبيّة و الجمالية و الفكرية و العقدية و ما وراءها من مدارس و قبائل.

و هذه الرّواية مشروع مفتوح متفجّر يبحث عن الإنسان العربي المنتظر بدون قيد و لا شرط.

9 782738 459534

ISBN : 2-7384-5953-6